الصوفيّة الألمانيّة الطوباويّة

# الأُخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك»

## ٣

## الرؤى

**

**الآلام، والصلب، والقيامة، وانتشار الكنيسة**

أديب مصلح

# الصوفيّة الألمانيّة الطوباويّة

# الأُخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك»

## ٣

## الرؤى

**

**الآلام، والصلب، والقيامة، وانتشار الكنيسة**

٢٠١٩

طبعة أولى

٢٠١٩

*

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب.: ١٢٥
هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – ٠٣/٣٥٧ ٣٥٣ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إلى الذين حملوا الصليبَ طوعاً وبفرحٍ،

مشاركينَ الفادي تضحيةَ فدائه... !

# الآلام

## الفصل الرابع

## عشاءٌ في بيت سمعان

كان تلاميذ كُثُرٌ قد التأموا في فناء بيتِ لعازر، حيث أمضى يسوع فترة الصبح معلّمًا. وبعد الظهر بُسطت موائد، التفّ حولها نحو ستّين نفرًا، فيما كان يسوع والرسُل يطوفون من مائدةٍ إلى أُخرى يخدمون الضيوف، ويتبادلون معهم عبارات الترحيب.

لم يكن يهوذا حاضرًا، إذ كان منهمكًا في ابتياع لوازم العشاء الذي سيقدَّم في بيت سمعان. وكانت العذراء التي أطلعها يسوع، صباحًا، على مقتله القريب، رازحةً تحت وقر الغمّ، وكانت ابنة أُختها الكبرى مريم زوجة كليوبا، إلى جانبها تحاول شدّ أَزرها.

وأفصح يسوع لتلاميذه عن موته الوشيك، وأنّ أحد الرسُل الذي أَولاه ثقته، ولم يضنّ عليه بشيءٍ، قد باعه للفرّيسيّين، ولم يساومْهم كما يفعل بائعو العبيد، الذين يحدّدون لكلّ عبدٍ ثمنًا، في حين اكتفى خائنه بسؤال الفرّيسيّين: "كم تعطوني كي أُسلمه لكم؟"، وارتضى بما عرضوه، أي أَقلّ من ثمن عبدٍ. هذا النبأ صدم الرسُل وأحزنهم، فأَضربوا عن الطعام، ولكنّ الربّ أَلحّ عليهم كي يتخطّوا صدمتهم وأساهم، ويتناولوا غداءهم. فبلّلوا طعامهم بدموعهم.

وكان يسوع قد زوّد رسُله وتلاميذه بفيضٍ من التعاليم التي لم يستوعبوها كلّها استيعابًا وافيًا، فأمرهم بتدوينها، مؤكّدًا أنّ الروح الذي سيرسله لهم سيفهمهم كلّ شيء. فأقبل يوحنّا وآخرون على تدوين أقوال المخلّص. ومع أنّه صعب عليهم تصديق أنّهم سيفرّون ويتخلّون عنه حين سيُلقى عليه القبض، غير أنّهم سجّلوا هذا القول أيضًا. وبأطيب العبارات وأرقّها زوّد يسوع تلاميذه بقدرٍ كبيرٍ من النصائح.

وحدّث يسوع رسُله عن أمّه، مؤكّدًا أنّها ستقاسمه كلّ أهواله وآلامه، وكلّ مهانة الموت المذلّ، بشريًّا، ولكنّها ستمكث معهم بضع سنواتٍ.

في هذه الأثناء كانت المجدليّة قد رجعت من أورشليم التي قصدتها باكرًا، وعادت بطيبٍ فاخرٍ، باهظ الثمن، أنفقت فيه كلّ مالها.

وكانت النساء القدّيسات في بيت سمعان، منهمكاتٍ في إعداد العشاء، وفي تزيين القاعة التي سيُقام فيها، وتهيئة القاعة التي ستُمدّ فيها مائدة النساء.

وعندما أضحى كلّ شيءٍ معدًّا، انطلق سمعان وخادمه بثياب العيد، لدعوة يسوع ولعازر والرسُل، فواكب هو المخلّص، وواكب خادمه الرسُل، وسلكوا، إلى البيت من خلال الحدائق الممتدّة خلفه تفاديًا للزحام واللغط، إذ كانت قد تقاطرت إلى بيت عنيا جموعٌ غفيرةٌ من الغرباء بغية رؤية لعازر الذي بُعِث من القبر، كما أنّ الحركة الدائبة حول بيت سمعان و الأغذية التي كانت تتدفّق إليه من السوق كانت قد أثارت فضول الجيران فتدافعوا لاستطلاع ما يحدث، حتّى إنّ عددًا منهم قد تسلّقوا الجدران كي يتسنّى لهم الاطّلاع.

قُدِّم، أوّلاً، للرجال خروفٌ وُجّه رأسه نحو موقع يسوع الذي قطعه بسكّينٍ أبيض اللون، ربّما كان من حجرٍ أو من عظمٍ، وأكمل سمعان تقطيعه وقدّمه لضيوفه: وللنساء قُدّم حملٌ وُجّه رأسه صوب العذراء. بعدئذٍ قُدّمت ثلاثٌ وعشرون سمكةً كبيرةً بدت وكأنّها تسبح في مرقٍ أبيض اللون. وخُتمت الوجبة بحلوى وفاكهة. أمّا يسوع، فبعد تناوله الزهيد من الطعام، أخذ يُعلّم، والرسُل يصغون إليه بانتباهٍ شديدٍ.

كانت مائدة النساء مستديرةً، إلتفّت حولها تسعُ نسوةٍ، وكانت المجدليّة جالسةً قبالة العذراء مستسلمةً لبكاءٍ شديدٍ. وبغتةً نهضت، بصمتٍ، وجاءت وراء يسوع وألقت وجهها المبلّل بالدموع على قدمه الممدودة وراءه، فمدّ هو قدمه الأُخرى ونزعت المجدليّة خُفّيه عن كلتيهما، فدهنتهما، ثمّ مسحتهما بشعرها الذي انتزعته من الحجاب الذي كان يضمّه، وأعادت ربط خفّيه.

حينئذٍ توقّف يسوع عن الخطابة، وناشد الحاضرين ألاّ يستنكروا فعلها. أمّا هي فوقفت من خلفه، وسكبت العطر الفاخر الذي انساب حتّى على ثيابه، وفركت

به شعره بيديها كلتيهما، وفاح شذا العطر حتّى ملأ القاعة كلّها. ولكنّ الرسُل لم يستسيغوا هذا الفعل فأخذوا يتهامسون، وبطرس نفسه أبدى امتعاضه. وفيما كانت المجدليّة عائدةً إلى مجلسها مرّت بقرب يهوذا الذي حاول إيقافها باسطًا ذراعه أمامها، منددًا بهذا الإسراف، مدّعيًا أنّه كان الأحرى إنفاق المال المهدور على الفقراء. وكانت هي تبكي بمرارةٍ. حينئذٍ أمره يسوع بالكفّ عن إعاقة طريقها، موضحًا أنّ ما فعلته كان تكريمًا لدفنه، إذ سيتعذّر عليها فعله آنذاك. وأكّد أنّ صنيعها هذا سيخلّده الإنجيل حيثما سيُبَشَّر به. قفلت، إذن، المجدليّة متهالكةً، وقد هدّها الحزن. وكان استنكار الرسُل واعتراض يسوع عليه قد أسبلا على العشاء نهايةً كئيبةً.

وكان الحَنَق يجيش في صدر يهوذا، الذي ضاق صبرًا، ولكنّه كتم مشاعره، وخرج خلسةً وخلع ثياب العيد، متظاهرًا باعتزام توزيع بقايا الطعام على الفقراء، ولكنّه جرى بكلّ ما وسعه من سرعةٍ إلى أورشليم، صوب البيت الذي ستنهمر فيه الإهانات على سيّده، في غضون ساعاتٍ معدوداتٍ، وحيث كان الفرّيسيّون ورؤساء الكهنة ما برحوا ملتئمين يحيكون جريمتهم. كان الخائن على عجلةٍ من أمره، فلم يدخل قاعة الاجتماع، ولكنّ اثنين من المتآمرين جاءاه إلى أسفل البيت، فأكّد لهما أنّه بات جاهزًا لتسليمهم يسوع، وسألهم عمّا سيدفعون له مقابل ذلك، فضجّا فرحًا وعادا إلى زملائهما كي يزفّا لهم البشرى. وعاد أحدهما فعرض على الخائن ثلاثين قطعةً فضّيّةً. وطالب يهوذا باستلام المبلغ في الحال، ولكنّ محاوره ذكّره بتردّده وتأرجحه، إذ جاء آنفًا عارضًا خدماته، ثمّ توارى طويلاً، وعليه فلن ينال مكافأته، إلاّ بعد تنفيذ مهمّته. وتشابكت الأيدي توثيقًا للاتّفاق، وحاول المتآمرون استبقاءه للاطّلاع على تفاصيل خطّته، ولكنّه آثر العودة سريعًا توقّيًا لإثارة الشكوك. وأكّد أنّه سينهي كلّ شيٍ في الغد وبهدوء، بعد أن يكون قد اطّلع على تفاصيل هامّةٍ تتعلّق بالصفقة. وعاد سريعًا، فارتدى ثياب العيد واختلط بالرسل.

## العلّيّة

قُبَيْل الفجر استدعى يسوع بطرس ويوحنّا، وتداول معهما بإسهاب إعدادات الفصح التي كلّفهما بإنجازها في أورشليم، وأوضح لهما أنّهما، بعد تسلّقهما جبل صهيون، سيصدفان رجلاً حاملاً جرّةً، وهو الذي كان يسوع ورسُله قد تناولوا الفصح في بيته، العام الفائت، فليتبعاه إلى بيته، وليبلّغاه قول المعلّم أنّ ساعته قد دنت، وأنّه راغبٌ في تناول الفصح الأخير له مع رسله لديه، وحينئذٍ سيريهما الرجل علّيّةً فسيحةً، مؤثّثةً، حيث يمكنهما إعداد الفصح.

وتحقّق قول الربّ، والتقى الرسولان الرجل الذي وصفه الربّ لهما، وهو "هيلي" نسيب زكريّا، الذي كان قد أعلن في بيته مقتل المعمدان السنة السالفة، والذي كان له ابنٌ لاويٌّ تربطه وشائج صداقةٍ بلوقا، قبل انضمام هذا الأخير إلى تلاميذ يسوع. وكان قد اعتاد، في كلّ سنةٍ، استئجار قاعةٍ كي يحتفل فيها بالفصح من لا يملكون منـــزلاً في أورشليم، وكان، في هذه السنة، قد استأجر العلّية من مالكيها نيقودمس ويوسف الأريماثيّ، وأراها للرسولين. ويذكر التقليد أنّ تلك العلّيّة عينها كانت مستودعًا مؤقّتًا لتابوت العهد، قبل بناء الهيكل، وأنّ النبيّ ملاخيا كان قد اختبأ تحت قناطرها ودوّن نبوءاته المتعلّقة بسرّ القربان، ضحيّة العهد الجديد. وكان ذلك البناء قد نجا من الدمار الكبير الذي حلّ بأورشليم.

عاين الرسولان العلّيّة، ثمّ انطلقا إلى منـــزل سمعان الشيخ، إذ كان بعضٌ من أبنائه موالين، سرًّا، ليسوع، وكان أحدهم مكلّفًا بخدمة الهيكل، فرافقهما إلى سوق المواشي حيث اختار أربعة حملان، وأعدّ واحدًا، منها للفصح. وطاف الرسولان في أماكن متعدّدةٍ من أورشليم، مستكملين ابتياع لوازم الفصح، وكانت محطّتهما الأخيرة في بيت "سيرافيا" (ڤـــيرونيكا) حيث أنجزا مهمّاتٍ عديدةً، وأهمّها المجيء بالكأس التي ستُستخدم في تأسيس سرّ الإفخارستيّا.

هذه الكأس كانت من ممتلكات الهيكل، ولكن بما أنّها كانت مصنوعةً من مادّةٍ

مجهولةٍ يتعذّر صهرها، بيعت مع آنيةٍ أُخرى كثيرةٍ، واشترتها "سيرافيا". كان لونها ضاربًا إلى البنّيّ. وهي مصنوعةٌ على شكل إجّاصةٍ، ومرصّعةٌ بالذهب والأحجار الكريمة، ولها مقبضان تُمسَك بهما، بسبب ثقل وزنها، وقاعدةٌ من الذهب الخالص، رائعة الصنعة، وقد نُقش عليها شكل حيّةٍ، وعنقود عنب. وهي مثقلةٌ بالتاريخ، مضمّخةٌ به، إذ يُقال إنّها كانت ملك إبراهيم أبي المؤمنين، وأنّ ملكيصادق استعارها واستخدمها عندما قدّم الضحيّة، بمناسبة إرساء أُسس الهيكل، وأنّ نوح قد أخذها في سفينته، ثمّ سافرت إلى مصر، حيث امتلكها موسى، وأخيرًا انتهت إلى يعقوب الصغير، وأضحت ملكًا للكنيسة.

وفي الصباح ودّع يسوعُ أُمَّه، ولعازر والنساء القدّيسات وداعًا مؤثّرًا، وعقب هذا الوداع الجماعيّ انفرد بأمّه، وأوضح لها كلّ شيءٍ، فأطلعها على إيفاد بطرس ويوحنّا، اللذين يجسّدان الإيمان والحبّ، من أجل إعداد الفصح في أورشليم. ولحظ أنّ حبّ المجدليّة يتعذّر وصفه، ولكنّه ما زال مشوبًا بتأثير الجسد، ولذلك يفقدها الألم رشدها، وأطلعها على خيانة يهوذا، فصلّت بحرارةٍ كي يرعوي الخائن عن غيّه.

هذه الأنباء أدمت نفس الأُمّ القدّيسة في الصميم، فألحّت على ابنها أن تشاركه موته. ولكنّه التمس منها أن تكتم حزنها، متباينةً، في ذلك، عن سائر النسوة، وحاول بلسمة جراحها بتأكيده لها أنّه سيقوم من القبر في اليوم الثالث، وبيّن لها كيف وأين سيظهر لها إثر قيامته. فكفكفت دموعها، ولكنّها لم تقوَ على الانعتاق من الحزن الهاصر، الذي تجلّى على محيّاها تجلّيًا مريعًا يفطر القلوب. فشكر لها يسوع حنانها وسيطرتها على نفسها وعلى أساها، وضمّها إلى صدره. ووعدها بالتلاقي على العشاء.

في هذه الأثناء كان يهوذا، متذرّعًا بحجّة إنجاز مهامّ عاجلةٍ قد شخص إلى أورشليم كي يكمل مع الفرّيسيّين ورؤساء الكهنة تدابير تسليمه ربّه لهم، ولم يلتحِقْ بالآخرين إلاّ بضع دقائق قبل العشاء.

## العشاء الأخير

عند الظهر شخص يسوع إلى أورشليم يرافقه تسعة رسُلٍ وسبعة تلاميذ، كان بينهم يوحنّا مرقس وابن الأرملة التي كانت بالأمس قد أَلقت في الهيكل تقدمةً متواضعةً سخر منها الفرّيسيّون وأكبرها يسوع. وطاف موكبه حول بستان الزيتون، ووادي يوشافاط حتّى الجلجلة، وفي هذه الأثناء لم يكن يسوع يكفّ عن إلقاء تعاليمه، ومّما قاله لتلاميذه، أنّه، حتّئذٍ، كان يوفّر لهم خبزًا وخمرًا، ولكنّه عازمٌ الآن على منحهم جسده ودمه، والتخلّي لهم عن كلّ شيءٍ. وكانت لهجته تفيض تأثّرًا، ومن خلالها كان يسكب نفسه، متحرّقًا توقًا إلى موعد تقديم ذاته ضحيّةً. ولكنّ تلاميذه لم يدركوا مقصده الحقّ، وظنّوا أنّه يعني الحمل الفصحيّ. وبالإجمال، كانت أقواله الأخيرة كلّها تقطر حبًّا وتسليمًا يستعصيان على الوصف.

وفي هذه الأثناء كان التلاميذ السبعة الذين رافقوا يسوع والرسل قد انفصلوا عن الموكب وهرعوا إلى العلّيّة حاملين ثياب الاحتفال، وقاموا بتزيين جدران العلّيّة، وعلّقوا ثلاثة مصابيح.

في العلّيّة مُدَّت ثلاث موائد، إحداها في القاعة الرئيسيّة التي جلس إليها يسوع والرسُل الإثنا عشر، وفي القاعتين الجانبيّتين، رأس نثنائيل، بصفته ربّ الأسرة، مائدةً ضمّت اثنيْ عشر تلميذًا قديمًا، فيما رأس المائدة الأُخرى "إيلياسيم" وهو ابن كليوبا ومريم ابنة أخت العذراء، وكان قد سبق له أن كان تلميذًا للمعمدان. وكانت ثلاثة حملان قد ذُبحت في الهيكل من أجل التلاميذ، أمّا حمل يسوع والرسُل فذُبح في العلّيّة.

وأعلن يسوع أنّ عهدًا جديدًا، وضحيّةً جديدةً سيُستهلاّن، وسيستمرّان حتّى نهاية العالم، وأنّه سيكون، هو، الهيكل الجديد، والحمل الفصحيّ الحقيقيّ، وسيستمرّان حتّى نهاية العالم.

وفق طقوس الفصح، ارتدى يسوع ورفاقه ثياب السفر وأحذيته، ورفعوا أطراف جلابيبهم، وشّمروا عن سواعدهم، وتناول كلٌّ منهم عصا، وجاؤوا، اثنين

اثنين، إلى المائدة، ووقفوا في أماكنهم منها، وألقوا عصيّهم على سواعدهم، ورفعوا أيديهم إلى السماء وأُعطي يسوع عصيين قصيرين وضع أحدهم عرضيًّا على خصره، والآخر عموديًّا على صدره، ولكأنّه يتوكّأ على الصليب الذي سيبهظ كتفيه في تلك الليلة عينها.

عقب الصلاة وضع خادمٌ، أمام يسوع، سكّينًا لتقطيع الحمل، وكوبًا ملأه خمرًا، ووضع بين كلّ رسولين كوبًا ملأه خمرًا، وقطّع يسوع الحمل، ووضع حصّة كلّ منهم على الرغيف الذي كانوا يقدّمونه له، وأكلوا على عجلٍ منتزعين اللحم عن العظام التي جمعت لاحقًا وأُحرقت. ثمّ تناولوا ثومًا وأعشابًا مُرَّةً، مغمّسةً بمرقٍ بنّيّ اللون. ومُلئت الكؤوس ثانيةً، ولكنّ يسوع أبى ارتشاف كأسه، واكتفى بالشكر قائلاً: "اشربوا جميعكم من هذه الخمرة، أمّا أنا فأقول لكم، إنّني لن أشرب، بعدُ، من ثمرة الكرمة، حتّى يأتي ملكوت السماوات"، فشربوا وأنشدوا. وصلّى يسوع وعلّم. وحينئذٍ غسلوا أيديهم وجلسوا، وكانوا قد تناولوا العشاء وقوفًا، مستعجلين.

ثمّ قطع يسوع حملاً آخر قُدّم إلى النساء القدّيسات اللواتي كنّ قد انتحين في قاعةٍ محاذيةٍ. وقد أظهر يسوع، في ذلك المساء، من الرقّة والسجوّ أكثر ممّا أظهر قطّ. وناشد رسُله التخلّي عن كلّ خوفٍ وقلقٍ. وكانت العذراء أيضًا تفيض سكونًا، وكانت التفاتاتها إلى النساء الراغبات في التحدّث إليها تتدفّق رقّةً.

غير أنّ لهجة يسوع تحوّلت، بغتةً، من الرقّة إلى الجدّ والوقار والحزن، عندما أعلن: "إنّ واحدًا منكم سيخونني، وهو معي على هذه المائدة، ويده معي"، واتّفق أن كان أمام يسوع طبقٌ واحدٌ مليءٌ خسًّا، وكان يهوذا مقابله على طرف المائدة الآخر، فأوعز إليه أن يمرّ به على الجالسين إلى جانبه. واعترى الرسُل الحزن وهزّتهم الصدمة عندما قال المعلّم، "إنّ واحدًا منكم، ممّن يشاركونني الطعام سيخونني". واستأنف يسوع القول: "إنّ ابن البشر سيمضي، كما هو مكتوب. ولكن الويل لذاك الذي سيخونه، فخيرٌ له لو لم يولد".

وطفق الرسُل يستوضحون الربّ، على التوالي: "يا ربّ، هل أنا من تقصد؟". واستنجد بطرس بيوحنّا الذي كان الأقرب إلى يسوع على المائدة، فمال إليه من وراء المعلّم، ورجاه أن يستوضح المعلّم. فلطالما أنّب يسوع بطرس على أقوالٍ كانت تفلت منه ولا يستسيغها الربّ، وخشي، في تواضعه، أن يكون هو المقصود. وهمس يوحنّا سؤاله في أذن يسوع، وسرعان ما أدرك أنّ يهوذا هو المعنيّ، عندئذٍ مدّ يسوع ليهوذا خبزًا وخسًّا مغمَّسيْن بمرقٍ، فسأله يهوذا: "هل تعنيني أنا يا ربّ؟" فرنا إليه الربّ برقّةٍ، وأجابه إجابةً غامضة، ولكأنّه كان يبذل محاولةً أخيرةً من أجل إعادته إلى رشده. ولم يُبحْ يوحنّا لبطرس باسم الخائن، ولكنّه طمأنه، بنظرةٍ، أنّه ليس هو المقصود.

## غسل الأرجل

بعد العشاء، خاطب يسوع الرسُل مجدّدًا في كثيرٍ من الوقار، متحدّثًا عن ملكوته، وعودته إلى أبيه، وعمّا سيتركه لهم وهو يغادرهم، وأمورٍ أُخرى. ودعا إلى التوبة، والتكفير، والتطهّر، فعبّر الجميع عن توبتهم، ما خلا يهوذا، وعندما فرغ من خطابه الجليل والمسهب، كلّف يوحنّا بإدخال طستٍ، ويعقوب بجلب قربةٍ مليئةٍ ماءً. وطلب من التلاميذ أن ينظّموا مقاعدهم على شكل نصف دائرةٍ، ثمّ خرج هو ويوحنّا ويعقوب فخلع معطفه واتّزر بمنشفة، وطلب من الخدم أن يأتوه بطستٍ، ويُحضروا إلى الدهليز طستًا آخر وماءً. وفي هذه الأثناء نشب جدالٌ بين الرسُل حول تحديد من هو الأكبر بينهم، بناءً على قول يسوع لهم إنّه سيغادرهم، وأنّ ملكوته قريبٌ، فخُيِّل إليهم أنّه لم يفصح إلاّ عن جزءٍ من الحقيقة. وأنّهم، في نهاية المطاف، سيكونون شهودًا على انتصاره الدنيويّ.

ولّما عاد إليهم يسوع في زيّ الخادم المتواضع، أنّبهم تأنيبًا حازمًا، على تنافسهم حول المناصب معلنًا أنّه، هو نفسه، خادمٌ لهم، ودعاهم إلى الجلوس كي يغسل لهم أرجلهم، وطاف بالرسل فردًا فردًا، غاسلاً أرجلهم التي كان ينشّفها بالمنشفة التي

اتّزر بها. وكان يقوم بهذه المهمّة في كثيرٍ من التواضع والمحبّة. ولمّا انتهى إلى بطرس، انتفض الرسول معترضًا، قائلاً: "ماذا؟ أأنت تغسل رجليّ؟ معاذ الله!" فأجابه الربّ : "أنت لا تدرك الآن ما أنا فاعلٌ، ولكنّك ستدرك لاحقًا!". وتقول الرائية إنّها رأته يهمس في أذنه: "يا سمعان، لقد شاء الله أن يوحي لك بحقيقة هويّتي، ومن أين أنا آتٍ، وإلى أين أنا ماضٍ؛ وانفردتَ، أنت، بإعلان ذلك وبالاعتراف به، ولذلك عليك سأبني كنيستي، ولن تقوى عليها أبواب جهنّم. وستواكب قوّتي خُلفاءَك حتّى نهاية العالم". ثمّ أشار إليه أمام الرسُل، مؤكّدًا، أنّ بطرس، سيحلّ محلّه، عقب مغادرته لهم، وسيسوّي الأمور كلّها. وعاد بطرس فاعترض باندفاع: "لا، لن تغسل رجليّ أبدًا"، ولكنّ يسوع أَجابه: "إن لم أغسل رجليك، فلن يكون لكَ معي نصيبٌ!" فهتف بطرس: "إذن، لا تقتصر، يا ربّ، على غسل رجليّ، بل اغسل، أيضًا، يديّ ورأسي"، فأجابه يسوع: "من اغتسل بكامله لا يحتاج، بعدُ، إلى غسل رجليه، لكي يطهر طهرًا كاملاً. وها أنتم قد طُهّرتم، ولكن لا جميعكم"، فقد كان على بيّنةٍ ممّن سيخونه. كان غسل الأرجل ليسوع بمثابة عملٍ روحيٍّ، وغفرانٍ. ولكنّ بطرس، في اندفاعه، لم يرَ فيه سوى تنازلٍ جمٍّ يقوم به معلّمه، وغاب عنه أنّه، في الغد، ومن أجل خلاصه، سيتنازل حتّى الموت المشين على الصليب.

وكان يسوع قد غسل رجلي يهوذا بطريقةٍ مؤثّرةٍ، ولامسهما بوجهه، ودعاه للعودة إلى ذاته، لأنّه، منذ سنةٍ، كان يُعدّ مشاريع الخيانة، وتظاهر يهوذا بعدم سماع المخلّص، وأخذ يحدّث يوحنّا، فأنّبه بطرس قائلاً: "إنّ المعلّم يكلّمك!"، فردّ يهوذا بعباراتٍ مبهمةٍ لا معنى لها. ولم يلحظ سائر الرسُل شيئًا ممّا حدث بينهما، فقد كانوا منهمكين بانتعال أحذيتهم.

وبعد أن غسل يسوع، أيضًا، أرجل يوحنّا ويعقوب، استأنف عظته عن التواضع، وأكّد مجدّدًا أنّ الأعظم هو من يخدم الآخرين، فعليهم، أُسوةً به، أن يغسلوا أرجل بعضهم بعضًا، وكان جليًّا أنّ خيانة يهوذا كانت ترين على الربّ بكلّ ثقلها وتسرّب إلى نفسه حزنًا سحيقًا.

## تأسيس الإفخارستيّا

طلب يسوع أن تُنصب منضدةٌ وسط القاعة، أُسدل عليها بساطٌ، مُدّ فوقه غطاءٌ أحمر، وعلاه غطاءٌ أبيض، ووُضع فوق كلّ ذلك إناءٌ مليءٌ ماءً، وآخر مليءٌ خمرًا. ثمّ جاء بطرس ويوحنّا من قاعة العشاء بالكأس المغطّاة، وأودعاها أمام يسوع، إلى جانب طبقٍ بيضاويّ الشكل يحتوي ثلاثة أرغفة خبزٍ فطيرٍ، ونصف الرغيف الذي كان المخلِّص قد كسره أثناء العشاء الفصحيّ.

كانت تقاليد اليهود، الضاربة في القِدَم، تقتضي اقتسام لقمات خبزٍ، وارتشاف الخمرة، من كأسٍ واحدةٍ، دليلاً على التآخي، وتعبيرًا عن ترحيبٍ أو وداعٍ. وقد ارتقى يسوع، في ذلك المساء، بهذا التقليد إلى مرتبة سرٍّ قدسيٍّ. كان بطرس ويوحنّا يحيطان بيسوع من جانبيه، وكانت الأبواب موصدةً، وكلّ شيءٍ يندرج في خشوعٍ مقدّسٍ. وقد صلّى المخلّص، وتكلّم بوقارٍ، مفسّرًا سرّ الأفخارستيّا. بدأ بإزاحة غطاءٍ أبيض عن الكأس، وبسطه على المنضدة، ثمّ رفع صينيّةً كانت تغطّي الكأس، ووضعها على الغطاء الأبيض، وإلى جانبها وضع الخبز الفطير، وأحاط الكأس بثلاثة أكواب على يمينها وثلاثةٍ على يسارها. ثمّ سكب بطرس ويوحنّا ماءً على يديه فوق طبق، وصبّ هو قليلاً من هذا الماء على يدي الرسولين، وطاف الطبق بجميع الرسُل، فغسلوا به أيديهم، وقد أخذ بهم التأثّر كلّ مأخذٍ.

كان قلب يسوع يذوب رقّةً، وهو يبوح لرسُله أنّه راغبٌ في إعطائهم كلّ ما يملك، حتّى ذاته، وكان كيانه، بكلّيّته، ينساب حبًّا، وأمسى شفّافًا، مضيئًا. وقطّع الخبز، وهو يصلّي، قطعًا صغيرةً، كوّمها فوق الصينيّة، وأسقط في الكأس فتاتًا منه. حينئذٍ شاهدت الرائيةُ العذراءَ مريم تتناول روحيًّا، مع أنّها لم تكن حاضرةً جسديًّا، وكان يسوع قد باح لها، صباحًا، في بيت عنيا، برغبته في الاحتفال بالفصح معها روحيًّا، وحدّد لها الساعة التي يتعيّن عليها فيها التخشّع والصلاة.

ثمّ استأنف الربّ الصلاة والتعليم، وكانت أقواله تنبعث من فمه انبعاث نارٍ ونورٍ وتخترق قلوب الرسُل، ما عدا يهوذا. وقدّم لهم الصينيّة والخبز قائلاً: "خذوا فكلوا، هذا هو جسدي المبذول لكم". كان بطرس ويوحنّا المتناولين الأَوّلَيْن، وتلاهما الآخرون، وأشار يسوع إلى يهوذا أن يقترب، ولكنّ القربان الذي قدّمه له بدا وكأنّه يميل عنه. حينئذٍ قال له يسوع: "أنجز ما عزمت على فعله".

ثمّ رفع المخلّص الكأس حتّى مستوى وجهه، وتفوّه بعبارات التقديس، متجلّيًا مشعًّا، باديًا كأنّ كيانه كلّه يثوي في ما كان يعطيهم، وارتشف بطرس ويوحنّا من الكأس التي كان يسوع ممسكًا بها، والتي أعادها، حينئذٍ، على المنضدة، فسكب يوحنّا دم الربّ الثمين في الأكواب وقدّمها بطرس للرسل، فارتشف كلّ اثنين من كوبٍ واحدٍ. وحينئذٍ، اندفع يهوذا خارجًا فظنّ الرسُل أنّ يسوع كلّفه بمهمّةٍ خارجيّةٍ، ولم يكن قد صلّى وشكر. وتقول الرائية إنّها شاهدت، حينئذٍ، ثلاثة أبالسةٍ يحيقون به حالما تخطّى عتبة القاعة: أحدهم تسرّب إليه من خلال فمه، وآخر كان يدفعه من الخلف، والثالث كان يسير أمامه كي يضيء له عتمة الليل الداجي، وهو كان يجري كالمجنون.

وسكب الربّ ما تبقّى في الكأس الكبرى في كوبٍ صغيرٍ ومدّ أصابعه فوقه فسكب عليها بطرس ويوحنّا خمرًا وماءً، واستقيا من هذه الخمر الممزوجة بالماء، وتقاسم الآخرون ما بقي منها. وحينئذٍ جفّف يسوع الكأس، وغطّاها بالصينيّة التي احتوت ما تبقّى من الخبز المكرّس، وألقى على الكأس غطاءً. واتّسمت حركات الربّ، طيلة ذلك الاحتفال، بالانتظام، والوقار، وزخرت بالرموز. وكان الرسُل يدوّنون كلّ ما جرى تحت أنظارهم.

ثمّ استفاض المخلّص في شرح الأسرار وأفعال التكريس، وكلّ ما يتعلّق بالإفخارستيّا، وأعلم رسُله أنّهم سيقومون، هم أنفسهم، عقب هبوط الروح

القدس عليهم، بتكريس الخبز والخمر. وأنّ خلفاءهم سيستمرّون في هذا الفعل، تخليدًا لذكراه، حتّى نهاية الأزمنة. ولقّنهم، أيضًا، صنع الميرون والزيوت المقدّسة، وأرشدهم إلى استخدامها. ثمّ مسح بطرس ويوحنّا الجاثيَين أمامه، واضعًا يديه على أكتافهما ثمّ على رأسيهما، ودهن إبهام وسبّابة كلٍّ منهما، ورسم بالميرون صليبًا على رأسهما. بعدئذٍ مسح، أيضًا، كلاًّ من يعقوب، وأندراوس، ويعقوب الكبير وبرتلماوس. وبمثل هذه الطقوس أولى بطرس ويوحنّا سلطاتٍ فائقةً، وأوكل إليهما مسح سائر الرسُل، عقب العنصرة، ومسح العديد من الرسُل بعدئذٍ. وعقب قيامة الربّ، ناول يوحنّا مريم العذراء للمرَّة الأولى.

وتواترت صلوات يسوع الحارّة، وزوّد الرسُل بالكثير من التعاليم، وبدا يفيض حبًّا لله الآب وللروح القدس، باثًّا الرسُل شيئًا من حرارته وغيرته، ومجيبًا على أسئلتهم الكثيرة. ثمّ أوكل إلى بطرس ويوحنّا تبليغ أمورٍ كثيرةٍ للتلاميذ والنساء القدّيسات حالما يكونون مؤهّبين لاستيعابها، وأَطلع يوحنّا على شؤونٍ كثيرةٍ وخاصّةٍ، وعلى مستقبل الكنيسة، كما أطلع الرسُل على ما كان يهوذا يفعله، في تلك الأثناء. وأخذ الاندفاع ببطرس، فأعلن جهارًا وفاءه الذي لن يقوى شيءٌ على زعزعته، ولكنّ يسوع أخمد غلواءه قائلاً: "سمعان، سمعان، ها إنّ إبليس يسعى إلى غربلتكم مثلما تُغَربَل الحنطة. ولكنّي صلّيت من أجلك، لكيلا ينهار إيمانك. وأنت، عندما ترتدّ، ثبّت إخوتك". وحذّر يسوع رسُله من استحالة قدرتهم على اتّباعه حيث هو ماضٍ آنذاك. فانبرى بطرس مدّعيًا أنّه لن يحجم عن اتّباعه حتّى بذل حياته دفاعًا عنه.

ومرَّةً أُخرى هدّأ يسوع من توثّب اعتداد بطرس بنفسه بقوله: "الحقّ أقول لك، إنّك في هذه الليلة عينها، وقبل أن يصيح الديك مرّتين، تكون قد أنكرتَني ثلاث مرّاتٍ". وبصّر يسوع الرسُل بالأزمنة العصيبة التي سيجتازونها، قائلاً: "عندما أرسلتكم بلا زادٍ ولا مالٍ ولا أحذيةٍ، هل افتقرتم إلى شيءٍ؟" فأجابوا نفيًا. فقال:

"والآن، من لا يملك شيئًا فليبعْ رداءه ويشترِ سيفًا. فلا بدّ من أن تتحقّق هذه النبوءة عنّي: لقد عُدّ بين الأشرار. وكلّ ما قاله عنّي الأنبياء سيتحقّق".

بدعوته إلى ابتياع سيفٍ، كان الربّ يدعوهم إلى التأهّب للصمود في وجه المحنة الداهمة، والتخلّي عن كلّ شيءٍ في سبيل إنقاذ إيمانهم، وضمان خلاصهم، غير أنّ الرسُل فهموا دعوته بحرفيّتها، وجاءه بطرس بسيفين قصيرين، وأراه إيّاهما؛ فقال يسوع: "كفى ! (حسبك سوء فهم!) هيّوا بنا". وغادروا القاعة، وفي الدهليز هرعت إلى يسوع أُمّه العذراء، وابنة أختها مريم ابنة كليوبا، والمجدليّة، وتوسّلنَه ألاّ يشخص إلى جبل الزيتون، فقد أُشيع أنّ أعداءه يعدّون للقبض عليه. ولكنّ يسوع هدّأ روعهنّ، بعباراتٍ وجيزةٍ، وانطلق مسرعًا، متّجهًا مع رسله إلى جبل الزيتون.

# الآلام الخلاصيّة

## الفصل الخامس

## على جبل الزيتون

يسوع، الذي كانت أمواج الحزن لا تني تتلاطم وتتصاعد في نفسه، غادر مع الأحد عشر، العلّيّة، وتوقّلوا، عبر وادي يوشافاط، في جبل الزيتون المنار بضوء القمر. كان يسوع يسير محدّثًا رسُله، وممّا باح لهم به أنّه سيعود، ذات يومٍ، كي يحاكم العالم، ولكنّه سيعود قديرًا ذا سلطانٍ، فيرتعد كثيرون، ويتوسّلون الجبال أن تهوي عليهم وتواريهم. واستغلقت أَقواله على فهم الرسُل، لا بل ذهبت بهم الظنون إلى أنّ الإعياء أوقع الاضطراب في فكره، فغدوا يتوقّفون، فينةً إثر فينةٍ، ويكلّمونه برفق، زاعمين أنّهم يهدّئون روعه. ولكنّه عاد فحذّرهم: "ستُصدمون جميعكم هذه الليلة، وسيعتريكم بشأني الارتياب، فقد كُتِبْ: "اضرب الراعي فيتشتّت القطيع". ولكن عندما سأقوم، سأسبقكم إلى الجليل".

كان التناول قد أغرق الرسُل في لجّةٍ سحيقةٍ من الخشوع، وكانت أقواله التي تقطر جلالاً وعطفًا قد بثّت في صدورهم الحماس، فالتصقوا به، وعبّروا له عن حبّهم ووفائهم بكلّ أسلوب، أمّا هو فلم تتغيّر لهجته المنذرة بتخاذلهم، فهتف بطرس: "حتّى لو ارتاب بك جميعهم، فأنا لن تخالجني أيّة ريبةٍ". ومن جديدٍ أكّد يسوع له: "الحقّ أقول لك، إنّك، في هذه الليلة وقبل صياح الديك، ستكون قد أنكرتني ثلاث مرّاتٍ". وأبى بطرس تصديق هذا القول فردّ باندفاعٍ: "حتّى لو كان عليّ أن أموت معك، لن أنكرك أبدًا!". وعلى غرار بطرس أكّد الجميع عزمهم على الصمود والوفاء.

وكانوا يجهدون في تسريب الثقة إلى خَلده، مؤكّدين أنّ حزنه لا يقوم على أيّ مبرّرٍ. ولكنّ جهود الرسُل لم تلقَ من يقين المعلّم أيّ صدًى.

وانتهوا إلى بستان الجتسمانيّ، حيث ألف يسوع، في الأيّام الأخيرة، أن يعلّم رسله وتلاميذه، فهو موئل هدوءٍ وراحةٍ وصلاةٍ، ويلاصقه بستان الزيتون حيث كان المخلّص ينتقي أكثر مواقعه وحشةً للصلاة. كان الحزن يهصر قلبه، والخطر

الداهم يقترب، والرسل مذهولين، فأوعز إلى ثمانيةٍ منهم بالجلوس، ريثما يقصد مكان صلاته المألوف، واستصحب معه إلى ذلك المكان بطرس ويوحنّا ويعقوب، وتوغّل في بستان الزيتون. ومع دنوّ ساعة المحنة الكبرى كان يتجلّى على محيّاه تفاقم الحزن الذي يجتاح نفسه، فاستوضحه يوحنّا مذهولاً: "علامَ تبدو مهدودًا، وأنت الذي كنت دائمًا تشدّ أزرنا، وتبثّنا العزاء"؟، فأجاب الربّ: "نفسي حزينةٌ حتّى الموت". وإذ كان يشهد الغمّ والتجارب تحاصره من كلّ صوبٍ مثل سحابة أشباحٍ مريعةٍ، قال للرسل الثلاثة: "امكثوا هنا واسهروا وصلّوا لكيلا تطيح بكم التجربة"، ونأى عنهم مسافة مرمى حجر، وانتحى في مغارةٍ تسدّ النباتات البرّيّة مدخلها، وتحجب ساكنها عن الأنظار.

## رؤى جرائمنا: النزاع الأوّل

فيما كان يسوع قاصدًا تلك المغارة رأت الشاهدة دائرةً مرعبةً من الأشباح تحيق به وتزيد غمّه إرهاقًا، وفزع الربّ إلى المغارة منهدًّا، كما يفزع إنسانٌ إلى ملجأٍ فرارًا من غولٍ يلاحقه، وواكبته إلى ملجئه تلك الأشباح القبيحة. وكانت تنتظره في المغارة لوحةٌ تجمّعت فيها كلّ الخطايا المرتكبة منذ سقطة أبوينا الأَوّلَيْن حتّى نهاية العالم، والعقوبات المستحقّة تكفيرًا عنها. وكان يسوع، بتقديم ذاته للعدالة الإلهيّة، ضحيّة تكفيرٍ عن خطايا العالم، بلا سندٍ سوى سند حبّ قلبه البشريّ، معرّضًا إنسانيّته فائقة القداسة، والواقعيّة، والزاخرة إحساسًا وبراءةً، لكلّ ألوان الألم والغمّ. لقد شاء يسوع، كلّيّ الرحمة، حبًّا بنا، أن يتحمّل بكلّ أوتار كيانه كفّارةً كاملةً عن خطايانا التي لا يأخذها حصرٌ ولا إحصاءٌ، آلامًا تتسرّب إلى كلّ طاقات نفسه الإلهيّة وتنتشر في كلّ أعضاء جسده المقدّس. وتحت وطأة طبيعته البشريّة هوى على وجهه، مُثقلاً بالغمّ، موغلاً في أسًى لا يحيط به حدٌّ، متوسّلاً الله. وحينئذٍ، تبدّت له تحت أشكالٍ لا يحيط بها إحصاءٌ، وبكلّ بشاعتها، كلّ خطايا العالم، التي أخذها على عاتقه وقدّم ذاته، في الصلاة لعدالة أبيه

السماويّ، تكفيرًا عن هذه الآثام، بآلامه. وكان إبليس يتلوّى غيظًا وازدراءً، وبحنقٍ لا يني يتفاقم على يسوع، كان يعرض على مرأى نفسه لوحاتٍ تزداد فظاعةً، موسوسًا لبشريّته: "هل تأخذ هذه أيضًا على عاتقك؟ وكيف لك أن تكفّر عن كلّ هذه الجرائم؟".

حينئذٍ رأت الأخت الرائية دربًا نيّرًا ينحدر على يسوع، وجوقاتٍ من الملائكة الهابطين إليه من أجل مؤازرته وشدّ عضده. غير أنّ المغارة ما انفكّت تضجّ برؤى خطايانا المريعة، وبالأرواح الشرّيرة التي كانت تراود الربّ وتهزأ به. لقد أخذ يسوع على عاتقه كلّ جرائمنا، ولكنّ قلبه، القلب الوحيد الذي أحبّ الله والبشر حبًّا طاهرًا كلّيًّا، أَحسّ، في صحراء أساه، بقباحة تلك الخطايا اللامحدودة، والتي هدّته رعدةً ووجعًا. وبعد أن طاف بحرُ تلك الآثام بأكمله أمام نفس المخلّص، وبعد أن قدّم هو ذاته ضحيّة تكفيرٍ عنها، مرتضيًا تحمّل عقوباتها وشدائدها، راح إبليس يراوده بسيلٍ من التجارب، على نحو ما فعل آنفًا في الصحراء، لا بل إنّه تجاسر فأطلق سلسلةً من الاتّهامات التي تطاول الحمَل المنَزّه من كلّ لوثةٍ، موسوسًا: "كيف؟ أتأخذ على عاتقك كلّ تلك الآثام، وأنت ذاتك تفتقر إلى الطهر!". وبقِحَةٍ جهنّميّة، اتّهمه بسلسلةٍ من الأخطاء الزائفة، وحمّله كلّ هفوات تلاميذه، والفوضى التي أحدثوها في العالم، بصدوفهم عن تقاليد الأقدمين. كان إبليس يتّهم وكأنّه أكثر الفرّيسيّين مكرًا وأقواهم حجّةً. فأخذ عليه التسبّب بمقتل الأطفال الأبرياء على يد هيرودس، والمضايقات التي تحمّلها ذووه في مصر، وإحجامه عن إنقاذ يوحنّا المعمدان، وعن شفاء العديد من المرضى، وإيذاء الجرجسيّين عندما أوعز إلى مسكونين بأرواحٍ بتدمير معاصرهم، وبالسماح للشياطين باللجوء إلى خنازيرهم التي ارتمت في البحر ونفقت. واتّهمه بعدم الحؤول دون كبوة المجدليّة الأخيرة، وبتخلّيه عن ذويه، وبهدر أموال الآخرين، ولاسيّما أموال لعازر والمجدليّة، وما سبّبه من حسرةٍ لأُسر تلاميذه التي حرمها منهم في سبيل اتّباعه. لقد حاول إبليس هزّ نفس يسوع المحتضرة، وقد غرب عن باله أنّه ابن الله،

وعدّه مجرّد إنسانٍ بارٍّ. وقد شاء الرّبّ إبراز قداسة إنسانيّته، حتّى ارتضاء اختبار التجربة التي تراود، غالبًا، الأبرار ساعة موهم، وتُسرِّب إليهم الريبة في استحقاقات أعمالهم الصالحة. وارتضى تجرُّع كأس هذا الاحتضار الأوّل، فأظهر له إبليس كلّ صنائعه الخيّرة وكأنّها ديونٌ للنعمة الإلهيّة، تخلَّف هو عن سدادها. وأخذ عليه المجرّب إرادته محو خطايا الآخرين، فيما هو ما برح مدينًا لله، الذي أتاح له ما يدّعيه من صنائع رائعة. وبذلك أتاح ابن الله لإبليس أن يمتحن بشريّته، كما لو كان يمتحن إنسانًا، يبتغي أن ينسب لأفعاله قيمةً خاصّةً، بمعزلٍ عن استحقاقات المخلّص.

وعندما أُسقِط في يد الشرّير، وعجز في ثني المخلّص عن مشروعه الفدائيّ، راح يوسوس لطبيعته البشريّة، مقارنًا جسامة الآلام التي ارتضى معاناتها من أجل بشرٍ سادرين في غيّهم، عنيدين في ضلالهم، متشبّثين بخطاياهم.

في البدء كان يسوع راكعًا يصلّي بهدوءٍ، ولكن، شيئًا فشيئًا، غزا الرُعب نفسَه وهو يشاهد جرائم البشر التي لا يأخذها إحصاءٌ، وعقوقهم حيال الله، واجتاحه غمٌّ هاصرٌ، فهتف مرتاعًا: "أبّا، يا أبتِ، إن كان ممكنًا فلتجزْ عنّي هذه الكأس. كلّ شيءٍ ممكنٌ لك، يا أبتاه، فأبعد عنّي هذه الكأس!". ثمّ استعاد جأشه، فاستأنف: "ولكن فلتكن مشيئتك، لا مشيئتي!". من المحقّق أنّ مشيئة الآب ومشيئته واحدةٌ، غير أنّ طبيعته البشريّة جفلت حيال تلك الرؤى المريعة.

رؤاه كانت أشباحًا مريعةً تحاصره، فارتعدت فرائصه، وانثال من كلّ جسده عرقٌ باردٌ، وعجزت ركبتاه عن حمله، فهوى أرضًا، ونهض شاحب الشفتين، متجهّمًا، مشوّه الملامح. وبعد ساعاتٍ من الصلاة والرعدة، عاد متهالكًا، متعثّرًا، إلى حيث ترك رسُله الثلاثة، فوجدهم نيامًا، رازحين تحت وقر التعب والحزن والهواجس، جاءهم ملتمسًا ملجأ صداقتهم وتعاطفهم، جاءهم مثل راعٍ تمزّقه الهواجس ولكن لا تُنسيه قطيعه المهدَّد بالمخاطر، وارتمى إلى جانبهم، ونادى بطرس بحزنٍ، قائلاً: "أتنام، يا سمعان؟". فهبّوا جميعهم، ومن أعماق خيبة الربّ، انطلق

سؤالٌ: "لم تقوَوا على السهر معي ساعةً واحدةً!"، وذعر الرسُل عندما تبيّنوا شحوبه، وتشوّه قسماته، ورعدته وارتجافه، والعرق المتصبّب منه، ولّما سمعوا صوته المبحوح، المتلعثم، ولولا هالة النور المحيقة به، لحاروا في أمره، ولما تعرّفوه. فقال له يوحنّا: "ما خطبك يا معلّم؟ هل عليّ أن أستدعي الرسُل الآخرين، ونلوذ جميعنا بالفرار؟" فأجابه: "لو عشت، وعلّمت، وشفيت ثلاثًا وثلاثين سنة أُخرى، لما كفتني لإنجاز ما سأُنجزه من الآن حتّى الغد. وإيّاك أن تستدعي الثمانية الآخرين. فقد حرصتُ على إبقائهم بعيدين، لأنّهم لن يقووا على مشاهدة ما انتهيت إليه من بؤسٍ كفيلٍ بصدمهم. فقد يتعثّرون، وينسون الكثير ممّا شاهدوه وخبروه، وقد يرتابون بأمري. أمّا أنتم فقد شهدتم تجلّي ابن الإنسان، وغدا بوسعكم مشاهدته في خمود نوره وتخلّيه. ومع ذلك اسهروا وصلّوا، لكي لا تقعوا في التجربة، فالروح يقظٌ، ولكنّ الجسد ضعيفٌ". لقد حرص الربّ على إبقائهم صامدين، وإطلاعهم على صراع طبيعته البشريّة مع رهبة الموت الذي سيُفرض عليه، وإظهار أسباب ضعفه. حدّثهم بحزنٍ جمٍّ، ومكث بقربهم نحو ربع ساعةٍ، ثمّ عاد إلى المغارة فيما كان اضطرابه يتفاقم باطّراد. ومدّ الرسُل إليه أيديهم محاولين استبقاءه معهم، مذرّفين وابلاً من الدموع، ثمّ تعانقوا، مشدّدين بعضهم بعضًا، متسائلين عمّا أفضى به إلى كلّ ذلك الانهيار. وحينئذٍ انطلقوا يصلّون رازحين تحت وقر الألم، إلى أن غلبهم النعاس، وربّما طغت عليهم الخيبة.

في هذه الأثناء كان الرسُل الثمانية الآخرون ما انفكّوا مستيقظين، فقد سرّب الحزن الشديد الذي اتّسم به حديث المعلّم في الساعات الأخيرة، إلى نفوسهم، قلقًا موجعًا، فراحوا يبحثون في شعاب جبل الزيتون عن مخبأ.

وفي أورشليم لم يعكّر شيءٌ هدوء الليل وصمته. فاليهود منهمكون في إعداد مستلزمات الفصح. والنساء القدّيسات غادرنَ العلّيّة إلى بيت مريم والدة مرقس؛ ولكن عندما روّعتهنّ الشائعات اقتربنَ من المدينة المقدّسة مستطلعاتٍ الأنباء

المتعلّقة بيسوع. وحاول لعازر ونيقودمس ويوسف الأريماثيّ، وأقرباء زكريّا تهدئة روعهنّ، مؤكّدين أنّ الفرّيسيّين الذين استوضحوهم لم يكن قد تنامى إليهم أيّ نبأ حول تعرّض يسوع إلى أذى، في المدى القريب، مستبعدين القبض عليه الذي من شأنه أن يفسد العيد، ولم يكن لديهم، بعدُ، اطّلاعٌ على خيانة يهوذا، ومسارعة رؤساء الكهنة إلى استغلالها.

غير أنّ الأمّ العذراء كانت توجس خشيةً وقلقًا من تصرّفات يهوذا في الأيّام الأخيرة، وأذكى خشيتَها وقلقَها خروجُه المباغت من العلّيّة، فتنبّأت بألمٍ: "لا ريب أنّه مضى ليتمّم خيانته!".

## النزاع الثاني

عاد يسوع إلى المغارة مثقلاً بأحمال أحزانه، وارتمى أرضًا باسطًا ذراعيه، مصلّيًا لأبيه السماويّ، وطغت عليه موجة نزاعٍ ثانٍ، فقد عرضت عليه ملائكةٌ سلسلة لوحات الآلام الجمّة التي يتعيّن عليه مكابدتها تكفيرًا عن خطايا العالم أجمع. فرأى كم كانت جليلة البهاء، صورة الله في الإنسان، قبل الخطيئة، وكم أمست الخليقة الفاسدة قبيحةً وشوهاء عقب السقطة، وكيف كانت الخطيئة الأولى منشأ كلّ الخطايا وكيف بثّ الفسق وباله في نفوس البشر وأجسادهم، وابتلاهم بالعواقب الوخيمة الناجمة عنه. كلّ تلك الجرائم البشريّة، كان على طبيعة يسوع البشريّة المنــزّهة، وحدها، من الخطيئة، أن تكفّر عنها. كان حبّه قد ارتضى تسديد ديون البشريّة، مقاومًا نفور الإنسان الفطريّ من الألم والموت. وارتاعت نفسه حيال مشهد مقتضيات التكفير التي لا تقتصر على جسامة العذابات، بل تشمل أيضًا قسوة النفوس التي ابتدعت أدوات تلك العذابات وشراسة الجلاّدين، وهواجس جميع الضحايا الذين يتعرّضون لمثل تلك المظالم على امتداد العالم والأجيال. وتحوّلت تلك المشاهد والخواطر المريعة قطرات عرقٍ ودمٍ، ترشح من كلّ جسمه، وتنثال على الأرض.

الملائكة الذين كانوا يعرضون على المخلّص كلّ تلك الأهوال تعاطفوا معه

والتمسوا رحمة الآب، فنشبَ ما يشبه صراعًا بين العدل الإلهيّ والحبّ المقدِّم ذاتَه كفّارةً، وحلّت برهة هدنةٍ. وصرّحت الأخت الرائية أنّها رأت، حينئذٍ، بالروح، مشيئة المسيح الإلهيّة تستسلم للآب، سائلةً إخضاع إنسانيّته لكلّ تلك الآلام، في حين كانت مشيئته البشريّة تلتمس من الآب تخفيف وطأتها عليه. ولكأنّ الكلمة المتّحد بالآب كان يُنـــزل بابن الإنسان ما تتمنّى إرادته البشريّة استبعاده. وحينئذٍ حتّى الملائكة الجاهدون في شدّ عضد يسوع، تخلّوا عنه، مفسحين السبيل لاجتياح نفسه لأصناف معاناةٍ أشدّ ضراوةً.

لقد شاء الربّ اختبار ما يختبره كلّ إنسانٍ عاديٍّ من نفور الطبيعة البشريّة حيال الألم والموت، وعندما وطّن العزم على تخطّي هذا النفور، سمح للشرّير التعامل معه مثلما يتعامل مع كلّ إنسانٍ يبتغي التضحية بذاته في سبيل قضيّةٍ مقدّسةٍ. وكان إبليس، أثناء مرحلة نزاع يسوع الأولى، قد أظهر له، بازدراءٍ مهين، جسامة دين الخطيئة التي كان عليه تسديدها، لا بل كان قد تجاسر فلمّح إلى أنّ سيرة يسوع نفسه، لم تكن منـــزّهةً من الشوائب والمآخذ. وفي مرحلة نزاعه الثاني تولّى الملائكة إظهار مدى الآلام الفدائيّة التي يتوجّب عليه مكابدتها، فليس من شأن إبليس الإفصاح عن إمكانيّة التكفير والفداء، وليس من شأن أبي الكذب والقنوط إذاعة أفعال الرّحمة الإلهيّة. وبعد أن انتصر يسوع في كلّ الصراعات، باستسلامه التامّ لمشيئة أبيه السماويّ، حاصرته كوكبةٌ جديدةٌ من المشاهد المريعة. فطرح على نفسه السؤال الذي يراود فكر كلّ إنسانٍ مقدمٍ على تضحيةٍ موجعةٍ: ما هي ثمرة هذه التضحية؟ فغزت قلبه الطافح حبًّا لوحةٌ تموج بأكثر المشاهد ترويعًا.

وهنا علّقت الأخت الرائية "أنّا كاتارينا" ملمّحةً إلى استلال ضلعٍ من آدم الغافي، واستنباط حوّاء منه، وقالت: "إنّ المسيح، آدم الجديد، ابتغى الاستغراق في سبات الموت على الصليب، وفتح جنبه، لكي تتكوّن منه خطيبته العذراء، الكنيسة، أمّ جميع الأحياء. وابتغى أن يمنحها دم الفداء، وماء التطهّر، وروحه، أي

عناصر الشهادة الثلاثة. وأراد أن ينفحها الأسرار، لكي تكون طاهرةً، منـــزّهةً من كلّ لوثةٍ، ابتغى أن يكون هو رأسها، ونكون نحن الأعضاء الخاضعين للرأس، عظم عظامه، وجسد جسده. ويسوع، باتّخاذه طبيعةً بشريّةً، افتداءً لنا، ترك أباه وأمّه، والتزم بخطيبته، الكنيسة، وأصبح معها جسدًا واحدًا، وغذّاها بسرّ المذبح، حيث يتّحد بنا باستمرار. وشاء البقاء مع خطيبته على الأرض، كي يتيح لنا الاتّحاد به اتّحادًا حميمًا في السماء. ولكي يبرهن عن حبّه للخطأة. ولكي يأخذ على كاهله المعاناة الناجمة عن آثامهم، تأنّس، وصار أخًا للخطأة أنفسهم. كان قد رأى، بألمٍ هاصرٍ، جسامة دَيْنهم، وضخامة الآلام الفدائيّة التي يتعيّن عليه معاناتها، ومع ذلك استسلم، استسلام الضحيّة، لمشيئة أبيه السماويّ. وها هو ذا يرى الآن ما ستتعرّض له الكنيسة، خطيبته، التي سيفديها بدمه، من محَنٍ، وإهاناتٍ وآلام.

أمام روح يسوع عُرِض مشهدٌ كئيبٌ، مشهد عقوق البشر ومواكب آلام رسله وتلاميذه وأصدقائه. رأى الكنيسة قليلة العديد، أوّلاً، ثمّ رآها بعد أن نمت وقد مزّقتها البِدَع والانقسامات، وجموح الخيال والفكر، والتعصّب، وجنون الأنبياء الكذبة، وعناد الهراطقة، وخيانات المارقين، وضلال المعلّمين، ورياء المصلحين، والمفسدين والفاسدين، وجميع الممعنين في إهانة المسيح، كما لو أنّه لم يُصب قسطه الوافي من الصلب، وكلٌّ منهم يبتغي أن يُلبس المخلّص غير الثوب الذي أراد حبُّه ارتداءه، فيتمادى في إهانته، ملقيًا عليه نظرة ازدراءٍ، هازًّا رأسه وكتفيه، معرضًا عن ذراعيه الممدودتين إليه، مؤثرًا التردّي إلى الهاوية التي تبتلعه. ولكم رأى من ممثّليه الجبناء الذين يتجاسرون حتّى على إعلان تخاذلهم وخيانتهم، فيمضون بطريقهم، مثل لاويّ الإنجيل، مشمئزّين من جراح الكنيسة، التي أسهموا في إحداثها، ومثل أبناءٍ عاقّين يصمّون آذانهم لكيلا يسمعوا صيحات استغاثة أُمّهم عندما يداهم المنـــزل لصوصٌ وقتلةٌ، ويفرّون بكنوز البيت تاركين الباب مشرعًا للأشرار. يتخلّون عن البيت الوالديّ المبنيّ على الصخر، الذي أقسموا على البقاء فيه، والوفاء له، وراحوا يضربون هائمين في البراري القاحلة، صادفين عن الكنيسة

الجاثمة على جبلٍ، حيث هو أبديّ الحضور والرحمة، ليقيموا في خيمةٍ هشّةٍ مغروسةٍ في الرمال. أبوا الدخول من الباب الواطئ لكيلا يضطرّوا إلى طأطأة رؤوسهم المتعالية، التي تتقلّب مع كلّ هبّة ريحٍ، ولا تثبت على وجهةٍ واحدةٍ!

وكم أوجعته رؤية الذين هجروا المراعي النضرة، وتاهوا بين معاقل الذئاب بقيادة مرتزقةٍ يدفعونهم إلى منتجعات الهلاك، مزوَرّين عن الراعي الصالح الذي يدعوهم إلى حظيرته الآمنة متأهّبًا لبذل حياته في سبيل إنقاذهم.

رآهم يدمّرون، أحيانًا، أكواخهم، ويقذفون بحطامها على جدران الكنيسة، ولكنّهم يعجزون عن إحداث أيّة فجوةٍ فيها. ورغم العتمة التي تحتويهم، يرفضون الشخوص إلى نور مصابيح البيت الأبويّ، ويجوسون، مغمضين العيون حول حديقة الكنيسة، مكتفين باستنشاق شذاها الذي يمدّهم برمق حياة. يستغيثون بأشباحٍ، ويتبعون أفلاكًا شاردةً تقودهم إلى آبارٍ جافّة، يقفون عند حافّة الهاوية، معرضين عن صوت الأمّ التي تدعوهم إلى أحضانها، وفي صلفهم وتعاليهم يسخرون من الخدّام الذين يدعونهم إلى وليمة العرس. يحجمون عن دخول الحديقة خوفًا من أشواك السور؛ يزدهون بأنفسهم، ومع افتقارهم إلى الخبز والشراب يلتهمهم الظمأ، ويهلكهم الجوع؛ يعميهم عقلهم المتكبّر، فيعلنون عجزهم عن رؤية كنيسة الكلمة المتجسّد.

رأى يسوع كلّ هؤلاء، وبكى على جميعهم. كان قد ارتضى التألّم من أجل جميع الذين يأبون حمل صليبهم في إثره، في المدينة المبنيّة على الجبل، ويُعرضون عن رؤيته في خطيبته، أي في الكنيسة المؤسّسة على صخرٍ، والتي منحها ذاته في سرّ الإفخارستيّا.

كلّ تلك المشاهد المريعة، مشاهد الجحود والإهانات التي كانت تؤلم المخلّص، كانت تكرّ متسارعةً أمام أنظار روحه. وكانت تُحيق بها صور إبليس في أكثر الأشكال بشاعةً وتنوّعًا، وهو يَجُرّ إلى الهاوية نفوسًا افتداها يسوع بدمه، وبعضها قد تلقّت المسحة الأخيرة. بألمٍ مضنٍ رأى المخلّص فساد المسيحيّين الأوّليّين

وجحودهم، وجحود وفساد الأجيال التي تَلَتْهُم، وصوت المجرّب لا يني يوسوس: "هؤلاء هم الجاحدون الذي تعتزم التألّم من أجلهم!". وكانت نفس ابن الإنسان، لدى هذه الرؤى المريعة، ترزح تحت وقر غمٍّ يستعصي على الوصف. وكان، المرَّة تلو المرَّة، يهوي على ركبتيه، وإرادته البشريّة تصارع النفور من التألّم عن ذلك الجنس العاقّ، فيرشح جسده قطرات دمٍ كبيرةً، تنثال على الأرض، ويبدو وكأنّه ينشد غوثًا، ويستشهد السماء والأرض وكواكب السماء على آلامه، ويسألها: "هل يُمكن تحمّل كلّ هذا الجحود؟".

وفي غمرة غمّه كان المخلّص يطلق صيحات ألمٍ، وفي إحدى النوبات تنامت صيحاته هذه إلى مسامع الرسُل وأيقظتهم من سباتهم، وهبّ بطرس لتحرّي الأمر، ودخل المغارة فشهد المخلّص رازحًا تحت وقر الألم، وقد غمره عرقٌ ممزوجٌ بالدم، فارتعد وسأله عمّا به، فلم يجبه، لا بل بدا وكأنّه لم يسمعه، فعاد بطرس إلى رفيقيه، وأطلعهما على ما انتهى إليه المعلّم من انهيارٍ، فانخرطوا، هم الثلاثة، في النحيب.

في هذه الأثناء كانت رؤى خيانات الأصدقاء وشراسة الأعداء تتوالى سريعةً، ممعنةً بشاعةً وهولاً أمام عيني المخلّص، منتزعةً منه صيحاتٍ موجعةً، فيسمعه رسُله هاتفًا بأسًى: "يا أبتِ هل يسوغ التألّم من أجل جميع هؤلاء الناس؟ إن أمكن، يا أبتِ، أبعد عنّي هذه الكأس! ولكن لتكن مشيئتك!". وفي لجّة هذه الإهانات التي كانت تُرشَق بها الرحمة الإلهيّة، كان إبليس يتلوّى تحت أشكال مبتذلة تمثّل جميع أنواع الخطايا، متّخذًا على التوالي أشكال ماردٍ أسود، أو نمرٍ، أو ذئبٍ، أو ثعلبٍ، ومبرزًا طبيعة كلٍّ من تلك الأشكال: الدمار والفسق، والغدر، والعصيان، وبالإجمال كلّ صفات إبليس. وكان يسوع يرى كلّ تلك الصوَر الشيطانيّة وهي تجرّب، وتغوي وتلتهم النفوس التي لا يطالها إحصاءٌ، التي كان يسوع يتوخّى، من خلال موته على الصليب، أن يحرّرها من سطوة إبليس. في البدء كانت الأفعى قليلة الظهور، وبغتةً انقضّت على الربّ وهاجمته بعنفٍ جحافل نساءٍ ورجالٍ

ينتمون إلى كلِّ طبقات المجتمع، وراحوا يشتمونه، ويلطمونه، ويطعنونه، ويبصقون على وجهه، ويغمرونه بالأقذار، ويهوون بأضرى شراستهم على حبّة الحنطة التي تغور في التربة وتموت لكي تغذّي البشر أبديًّا بخبز الحياة...

وقد تألّفت مجموعات أولئك الأشرار خاصّةً من مدنّسي سرّ الإفخارستيّا، حيث يثوي يسوع، فعليًّا وشخصيًّا، وكانت خطاياهم تتمثّل في الإهمال، واللامبالاة، والإغفال، والازدراء، والإساءة، والتدنيس، بادئة بعبادة أصنام العالم، من كبرياء العقل، والعلم الزائف، وانحراف العقيدة، ونبذ الإيمان، والتعصّب، والبغض والاضطهاد. وكان ممارسو هذه العبادات يضمّون عميانًا يرفضون رؤية الحقيقة، ومقعدين يُحجمون عن اتّباع يسوع، وصمًّا يصمّون آذانهم عن تحذيراته، وبكمًا يأبون الدفاع عنه بسيف الكلمة، وأولادًا أفضى بهم إلى الضياع والدون ومعلّمون يتملّكهم روح العالم، المعادي للدين، فامتلأوا بالرغبات الدنيويّة، وثملوا بعلمٍ باطلٍ، وعزفوا عن الشؤون الإلهيّة. وكانت محبّة يسوع للأولاد تسعّر نيران ألمه على هؤلاء الأولاد الضالّين، ولاسيّما الذين منهم يخدمون الكنيسة بقحةٍ، ولامبالاةٍ. وفوق كلّ هذه الرؤى الموجعة، آلمت يسوع رؤى كهنةٍ وأساقفةٍ يتفانون في إرضاء أصحاب السلطة والمال وعظماء العالم، معرضين عن ملك السماء والأرض القابع عند أبوابهم، مثل لعازر الفقير، مستجديًا فتات حبّهم، ولكنّه لا يتلقّى منهم سوى جراحٍ جديدةٍ.

وخطرت أمام المخلّص صُوَر كهنةٍ طائشين مدنّسين، ومتناولين فاترين غير جديرين، ونفوسٍ كثيرةٍ غدا لهم سرّ الله المحيي منبع لعنةٍ، وصُوَر أعداءٍ محاربين هائجين وقفوا نفوسهم لخدمة الشيطان، يدنّسون الأواني المقدّسة، ويدوسون القربان بأقدامهم، وينجّسونها وفق طقوسٍ جهنّميّة. ورأى أفواج الذين أغواهم الهراطقة بتعاليمهم، فأعرضوا عن الإيمان بوجود الربّ الفعليّ في الإفخارستيّا، وبذلك سُلِخَت عن قلب يسوع أفواجٌ من المؤمنين الذي سكب دمه فداءً عنهم.

وبدت الكنائس المنقسمة، وكأنّها مزقٌ داميةٌ مُنتَزَعةٌ عن جسده الحيّ، ومحرومةٌ من كنوز رحمته وحبّه. تلك الرؤى كانت مريعةً وممعنةً في الهول. وكانت قطرات دمٍ كثيرةٌ تنثال على وجه المخلّص، وتضرّج شعر رأسه ولحيته.

وخرج المخلّص من المغارة، وقد أثقل الحزن خطواته، محنيًّا، جريحًا، نازفًا، متهاويًا. ووجد رسله جالسين مغطّين رؤوسهم أسًى، وساندينها على ركبهم دليلاً على خيبتهم، كما أَلِف اليهود أن يفعلوا للصلاة، أو للتعبير عن فاجعةٍ ألّمت بهم. كان قد هدّهم التعب والخوف، والحزن، وأخذت بهم سنّة نومٍ. وأيقظهم اقتراب يسوع المترنّح، المرتعد، المتأوّه. وعلى ضوء القمر شاهدوه واقفًا أمامهم، منحنيًا، شاحب الوجه، مضرّجًا بالدم، مشعّث الشعر، وصعب على عيونهم المتعبة تعرّف معلّمهم، الذي أخذ به التشوّه كلّ مأخذٍ. فهبّوا واقفين وضمّوه بأذرعهم، وساندوه باندفاعٍ مفعمٍ مودّةً. فأنبأهم بأنّ اليهود سيقبضون عليه بعد ساعةٍ واحدةٍ، سيجرّونه إلى محكمتهم وينكّلون به ويهينونه، وسيجلدونه، وفي الغد يذيقونه أقسى ميتةٍ وسيقضون عليه، ورجاهم أن يواسوا أمّه والنساء القدّيسات، ولكنّهم، في ذهولهم، عجزوا عن الردّ بأيّة كلمةٍ، فحيال ما انتهى إليه الربّ من وضعٍ جديرٍ بالرّثاء، هدّهم وأعياهم الجواب. وعاد يسوع إلى المغارة يسانده يوحنّا ويعقوب.

في هذه الأثناء كانت العذراء، في بيت مريم أمّ مرقس، وقد ران عليها الحزن والاضطراب بكلّ وقرهما، جاثيةً، مطويّةً على ذاتها، ضحيّة إغماءٍ متواترٍ، فقد كانت تتابع بروحها كلّ تفاصيل نزاع ابنها المضني. وكانت قد أوفدت رسلاً لتحرّي حاله، وتحت تأثير القلق مثلت، مع المجدليّة، إلى وادي يوشافاط، لكي تكون على أدنى مسافةٍ من ابنها، وغالبًا ما كانت تمدّ ذراعيْها باتّجاه جبل الزيتون، وكأنّها تسعى إلى مسح العرق والدم عن الوجه الحبيب الملوَّع. وفي الآن عينه كان قلب يسوع يهفو صوب أُمّه، وكأنّه يستجير بها. وتصرّح الرائية أنّها شاهدت، حينئذٍ، أشعّة نورٍ تنبعث منه صوب أمّه، وأشعّةً تنبعث من قلب أمّه صوبه.

أمّا الرسُل الثمانية الآخرون فبعد أن تبادلوا مشاعر القلق والهلع، غلبهم

النعاس، فهووا إلى كرى مضطربٍ ثقيل الوطأة، تمزّقهم تساؤلاتٌ مخيفةٌ، حول مصيرهم عقب موت معلّمهم المهين، فقد تخلّوا عن كلّ شيءٍ، كي يسيروا في إثره. كانوا قد أولوه كلّ ثقتهم، وها هو ذا منهارٌ، محطّمٌ، ولا رجاء فيه.

وكان معظم التلاميذ، إثر سماع المعلّم يعلن عن المخاطر الداهمة، قد فزعوا إلى بيت فاجي.

وعاد يسوع إلى المغارة يصارع نفور طبيعته البشريّة من الألم. ومن أعماق إعيائه ورعدته هتف لأبيه السماويّ: "يا أبتِ، إن أنت شئت، أبعد عنّي هذه الكأس، ولكن لا تتحقّق مشيئتي بل مشيئتك". وحينئذٍ أُشرعت أمامه فجوة نور، أسالت في نفسه العزاء، إذ رأى أنّ موته سيشرع أبواب الفردوس لأفواج الأبرار الذين كانوا قد ماتوا ولبثوا ينتظرون إطلاق سراحهم، ومواكبته إلى السماء.

وبعد نفحة العزاء هذه، عرض عليه الملائكة مبعث عزاء جديد، وأروه مواكب القدّيسين والشهداء الذين سيقرنون صراعاتهم وتضحياتهم، باستحقاقات آلامه الخلاصيّة التي ستمكّنهم من الجلوس معه في حضن الآب السماويّ. وكان ذلك المشهد فاتنًا، أخّاذًا، يفيض ارتياحًا. وخطرت أمام عيني روحه أفواج الرسُل، والتلاميذ، والعذارى، والنساء القدّيسات، والشهداء، والنسّاك، والمعترفين، والباباوات والأساقفة، وطوابير المكرّسين، وقد ازدانوا جميعهم بأحلى الفضائل والآلام. وكانت كلّ استحقاقات سيَرهم وإنجازاتهم، وصراعاتهم وانتصاراتهم ناتجةً عن اتّحادها باستحقاقات فداء يسوع، وكان كلّ ألَقِها نابعًا من الشمس الوحيدة، آلام المخلّص، الكلمة المتجسّد، فهو حياة البشر ونورهم الذي يضيء في الظلمات، التي لم تدركه.

في سبيل هاتين الفئتين، فئة الأبرار الذين سبقوا المخلّص، وانتظروا عودته إلى السماء كي يواكبوه إليها، وفئة الذين في إثره، سيبذلون ذواتهم ببطولةٍ وسخاءٍ، تمثّلاً ببذله الكلّيّ، استطاب المخلّص أدهى الآلام والمهانة.

ولكن سرعان ما توارت هذه الرؤى المنعشة، وفرضت الآلام الوشيكة حضورها العنيد الموجع، ، بدءًا بقبلة يهوذا حتّى الكلمات الأخيرة على الصليب، بأدَقِّ تفاصيلها، وبكلّ قسوتها ومرارتها. بسرعةٍ وقسوةٍ خطرت أمام ناظريه خيانة يهوذا، وفرار التلاميذ، والإهانات المنهالة عليه في محكمة حنّان وقيافا، وإنكار بطرس، وحكم بيلاطس الجبان، وسخريّة هيرودس، والجلد، وإكليل الشوك، والحكم بالإعدام، وسقطاته تحت الصليب، والتقاء أُمّه الملتاعة، ومنديل ڤـــيرونيكا، والصلب، وشماتة الفرّيسيّين، وطعنة الحربة. كان المخلّص يشهد كلّ حركةٍ، ويسمع كلّ نأمةٍ، ويدرك كلّ مشاعر المحيقين به، ويسمع أقوالهم وهمساتهم، غير أنّه، حبًّا بالبشر، ارتضى كلّ ذلك. وكان أكثر ما أوجعه العري الذي فُرِض عليه وهو الذي ارتضى الآلام لكي يكفّر عن فسق البشر. وأوجعته أيضًا في الصميم آلام أمّه الشاهدة على آلامه. حيال هذه الرؤى ارتمى يسوع ووجهه على الأرض، وتوارى الملائكة، وانساب منه العرق الممزوج بدمٍ انسيابًا كثيفًا حتّى اخترق ثيابه، وغمرت المغارة عتمةٌ تامّةٌ، وحينئذٍ ظهر له ملاكٌ مديد القامة، في زيٍّ كهنوتيٍّ، حاملاً كأسًا، ومدّ يده إلى يسوع وأنهضه، وسقاه من الكأس وتوارى.

تقبّل إذن المخلّص طوعًا كأس الآلام، وتلقّى القوّة التي تمكّنه من تجرّعها حتّى الثمالة، وتلبّث برهةً، في المغارة، ساجيًا، هادئًا، شاكرًا الآب السماويّ. كان ما برح حزينًا، ولكن مدعومًا بتشديدٍ سماويٍّ. وعاد إلى رسله، بلا خوفٍ ولا هاجسٍ. لم يزل شاحبًا، مشوّه القسمات، ولكنّه كان يسير بخطىً ثابتةٍ، ووجد الرسُل نيامًا، فقال لهم: "علامَ تنامون؟ انهضوا وصلّوا. لقد حانت ساعة تسليم ابن الإنسان للأشرار. هيّوا لننطلق، فالذي يسلّمني قد اقترب وكان خيرٌ له لو لم يولد". وهبّ الرسُل واقفين مرتعدين يجيلون من حولهم أنظارًا قلقةً. واستعاد بطرس جأشه فقال للمعلّم: "سأدعو الآخرين كي ندافع عنك"، وحينئذٍ أشار يسوع إلى جماعةٍ كبيرةٍ مسلّحةٍ قادمةٍ من وادي قدرون، مستنيرةً بالمشاعل، وأنبأهم بأنّها تضمّ واحدًا منهم وهو الذي خانه. وبهدوءٍ طلب منهم مواساة أُمّه،

وقال لهم: "فلنمضِ إليهم، فسأسلّم ذاتي، بلا مقاومةٍ، لأيدي الأعداء". وخرج من بستان الزيتون مع رسله الثلاثة على الدرب المفضي إلى الجتسمانيّ.

## يهوذا وعصابته

لم يتوقّع يهوذا عواقب خيانته، التي لم يتوخَّ منها سوى الحصول على المال الحرام، والظفر برضى الفرّيسيّين، وربّما لم يخطر له ببالٍ أنّ زعماء اليهود سيمضون في حقدهم وجريمتهم حتّى صلب الربّ. وكان، منذ أشهرٍ عديدةٍ، قد عقد علاقاتٍ مع فرّيسيّين وصدّوقيّين دسّاسين، أغدقوا عليه ألوان المداهنة وحرّضوه على تحقيق خيانته. وهو كان قد ضاق ذرعًا بحياة الرسُل الملأى أتعابًا وتشرّدًا والمحفوفة بالاضطهادات والمخاطر. وكان قد شرع يعدّ لجريمته باختلاسه جزءًا من أموال الصدقات التي كان أصدقاء يسوع يجودون بها. وبلغت نقمته ذروتها من جرّاء هدر المجدليّة أموالاً طائلةً على عطورٍ كانت تسكبها على رأس يسوع ورجليه، والتي كان يتمنّى أن تعطي أثمانها له كي يوزّعها، فيقتطع الجزء الأكبر منها لجيبه.

وفضلاً عن ذلك كان يأمل أن يؤسّس يسوع مملكةً أرضيّةً يتولّى هو فيها مركزًا يضفي عليه أُبّهةً، ويختلس بواسطته كلّ ما تطاله يده الطويلة والمتمرّسة. ولكن لّما تبدّدت هذه الأوهام، عكف على جمع أموالٍ ترضي جشعه، وتمكّنه من مواجهة الأيّام الصعبة، وإلى اقتناص رضى اليهود الذين كان يحسد سطوتهم وأمجادهم. فوثّق علاقاته بأزلامهم الذين ما انفكّوا يؤكّدون له أنّهم سيقضون على الناصريّ عاجلاً أو آجلاً. وفي الأيّام الأخيرة بذل جهودًا مضنيةً من أجل إقناع رؤساء الكهنة بالمبادرة إلى العمل في الحال، وكان هؤلاء، في تلك المرحلة، لا يأخذون عروضه مأخذ الجدّ، ويحتقرونه، ولا يثقون به، ويؤثرون إرجاء أيّ عملٍ كفيلٍ بإجراء هياجٍ في الشعب، إلى أن تنتهي احتفالات الفصح. غير أنَّ السنهدرين شرع يتحوّل إلى تقبّل عرض يهوذا، الذي، إثر تناوله الفصح الأخير

مع المخلّص، ورغم كلّ ما أظهره له الفادي من عطفٍ واهتمامٍ، ومن تحذيرٍ، استسلم كلّيّةً لإبليس وازداد حرصًا على تنفيذ جريمته. وبعد أن كانت اتّصالاته محصورةً بالوسطاء، قابل قيافا وحنّان، اللذين قابلاه بسخريّةٍ وتعالٍ، إذ إنّهما لم يكونا واثقين به، ولا بنجاح خطّته.

وكان إبليس ممزّقًا بين خيارين، فهو كان يمقت فادي الخطأة، المعلّم القدّيس والبارّ، ومتمنّيًا أن يرتكب اليهود جريمة قتله؛ ولكنّه في الآن عينه كان يخشى عواقب مقتل ذلك البطل الطاهر، الذي لا يحفل بإنقاذ نفسه، وكان يحسده على المجد الذي سيحقّقه له موتٌ لم يستحقّه. ومن ثمّ كان إبليس يقوم بمساعٍ متعارضةٍ متناقضةٍ، فمن جانبٍ كان يسعّر لدى أعداء يسوع نيران حقدهم ونقمتهم على يسوع، ومن جانبٍ آخر، يوحي لآخرين أنّ يهوذا رجلٌ سافلٌ، فاسدٌ، ولا يمكن تنفيذ مخطّطه قبل الفصح ولا توفير العدد الكافي من الشهود لإدانته.

وسارع الخائن إلى تبديد مخاوف اليهود من كون يسوع محاطًا بجماعةٍ مسلّحةٍ، فأكّد لهم أنّ لا أحد معه سوى الأحد عشر رسولاً، وأنّ يسوع نفسه، منهارٌ لا حول له ولا طول. ولكي يشدّد عزمهم على تنفيذ جريمتهم بلا تلكّؤ، أوهمهم أنّ شكوك يسوع والرسل قد أخذت تحوم حوله، وإن هم لم ينتقلوا إلى مرحلة التنفيذ فورًا، فستفلت منهم الفرصة إلى الأبد، فهو لن يستطيع العودة إلى يسوع عقب افتضاح أمره، وقد يلوذ يسوع بالفرار ويعود بمسلّحين متَمَرّسين بالقتال. وحينئذٍ أعلنوا قبلوهم عرضه، ونقدوه مكافأة خيانته، ثلاثين قطعةً فضّيّةً، مستطيلة الشكل مثقوبة الطرف.

وخطر حينذاك ليهوذا أن يبيّض صفحته في عيون زعماء اليهود الذين ازدروه وارتابوا في صدقه، لكي يوهمهم باستقامته ونزاهته، أعرب عن رغبته في تقديم المال الذي حصل عليه للهيكل، فرفضوا عرضه مبرّرين رفضهم بحظر إيداع ثمن دمٍ في خزينة الهيكل. وكان هذا الرفض الصفعة الأولى التي هوت على وجهه الخائن

الذي شرع يجني ثمار فعلته الشائنة قبل تنفيذها، ولكن لم يبقَ لديه سبيلٌ إلى التراجع. وأمر رؤساء الكهنة بمواكبته بتيقّظٍ وحذرٍ شديدٍ، وواكبه ثلاثةٌ منهم عندما طلبوا منه إفهام الجنود المكلّفين بالقبض على الناصريّ، تفاصيل مخطّطه.

وحينئذٍ جرى برفقة أحد خدّام الفرّيسيّين إلى العلّيّة، لعلّ يسوع ما زال فيها فتغلق كلّ الأبواب، ويتمّ القبض بسرعةٍ وكتمانٍ. وحرصًا على عدم إضاعة الوقت كلّف فرّيسيّون خدَمهم بابتياع الأخشاب لإعداد الصليب، كي يتمّ الصلب قبل الفصح.

وما لبث أن عاد يهوذا بخبر مغادرة يسوع للعلّيّة، وتوقّع وجوده في جبل الزيتون حيث اعتاد الاختلاء للصلاة. وطلب ألاّ يرافقه إلى هناك إلاّ مجموعةٌ قليلة العدد، اتّقاءً لإيقاظ ريبة الرسُل الساهرين، ومن ثمّ إثارة فتنةٍ، على أن تظلّ مجموعاتٌ متعدّدةٌ في مختلف مواقع أورشليم متأهّبةً للمساندة، ودعا الجميع إلى التيقّظ مدّعيًا أنّ يسوع غالبًا ما يلجأ إلى أساليب سحريّةٍ تمكّنه من التواري عن الأنظار والفرار إلى الجبال. ونصح من سيلقون عليه القبض بتقييده، واستخدام تمائم سحريّة تمنعه من فكّ قيوده. فسخر منه اليهود، قائلين: "فلنقبض عليه، وأمر إبقائه في قبضتنا هو شأننا".

وتوافق مع الجماعة المواكبة له أن يدخلوا معه إلى بستان الزيتون، حيث سيسارع يهوذا إلى تحيّته وتقبيله، ولكأنّه جاءه صديقًا وتلميذًا، ولكأنّ الجند حضروا صدفةً، ولا علاقة لهم بيهوذا، وحينئذٍ سيهجمون ويمسكون به، فيما يلوذ يهوذا وسائر الرسُل بالفرار.

وكان زعماء اليهود قد أوعزوا إلى الجند بمراقبة يهوذا عن كثبٍ حتّى إلقاء القبض على يسوع، إذ كانت ما برحت تساورهم خشيةٌ من أن يلوذ الخائن بالفرار بعد أن استولى على مكافأته. وكان عدد الجند المكلّفين بالقبض على يسوع يناهز العشرين، بعضهم من حرّاس الهيكل، والآخرون من قنّاصي حنّان وقيافا، وجميعهم مسلّحون بسيوفٍ، وبعضهم أضافوا إلى السيوف حرابًا، وكانوا مزوّدين بمصابيح ومشاعل.

## توقيف يسوع

كان يهوذا وموكبه المسلّح على مسافة عشرين قدمًا من بستان الجتسمانيّ عندما دنا منهم يسوع ورسله الثلاثة. وحاول يهوذا أن ينفصل عن الجند المواكبين له، والتظاهر بأن لا علاقة له بهم، وأنّه إنّما آتٍ إلى يسوع بصفته تلميذًا وصديقًا، ولكنّ المسلّحين أوقفوه، وأفهموه أنّهم لن يدعوه يبعد عنهم خطوة حتّى يُضحي يسوع بين أيديهم. واستدعت الجلبة الرسُل الثمانية فهرعوا، وحينئذٍ استعان الجند بالقنّاصين غير مبالين بمعارضة يهوذا. وفي هذه الأثناء انضمّ إلى الرسُل أربعةٌ من التلاميذ الذين جاء بهم قلقهم على الربّ إلى الجتسمانيّ بغية الوقوف على ما آلت إليه الأمور.

وتقدّم يسوع من المسلّحين، وبصوتٍ جهيرٍ سألهم: "عمّن تبحثون؟" فأجابوه: "عن يسوع الناصريّ" فقال: "أنا هو". وما إن تلقّوا هذا الجواب حتّى ارتموا أرضًا. وازداد يهوذا اضطرابًا، وحاول الدنوّ من يسوع الذي أوقفه بيده المرفوعة دونه وقوله: "يا صديقي ما غاية مجيئك؟". وفي اضطرابه، أخذ يهوذا يتلعثم، ساردًا أكاذيب عن مهمّةٍ وهميّةٍ، مدّعيًا أنّ المعلّم كلّفه بها. فعبّر له المخلّص عن حزنه السحيق بقوله: "لقد كان خيرًا لك ألاّ تولد أبدًا". وكان الجند قد نهضوا، وضاقوا صبرًا بانتظار أن يعطيهم يهوذا الإشارة التي اتّفق معهم عليها، فيقبضون على من يقوم الخائن بتقبيله. وكان بطرس وسائر الرسُل قد تحلّقوا حول يهوذا وأوسعوه شتمًا وتأنيبًا، وأمطروه بأوصاف السرقة والخيانة، فيما هو كان جاهدًا في تبرير نفسه باختلاق الأكاذيب، بلا طائلٍ، إذ إنّ حرص الجند على حمايته، أصدق دليلٍ على خيانته.

واستفسر يسوع الجند ثانيةً: "عمّن تبحثون؟" فأجابوا: "عن يسوع الناصريّ"، فقال: "قلت لكم إنّي أنا هو. وبما أنّي أنا من تطلبون، دعوا هؤلاء يمضون في سبيلهم". وما إن قرع هذا الجواب مسامع الجند حتّى اطّرحوا أرضًا، وكأنّ نوبة صرعٍ قد صعقتهم. وأمرهم يسوع، ثانيةً، بالنهوض، فنهضوا وقد أخذت بهم الرعدة كلّ مأخذٍ. وسارعوا إلى إعتاق يهوذا من أيدي الرسُل، وأنذروه بإعطائهم

الإشارة المتّفق عليها في الحال، فدنا من يسوع وقال له "تحيّة، يا معلّم"، وقبّله. فقال له يسوع: "أبقبلةٍ تسلّم ابن الإنسان؟". وحينئذٍ وضع الجند والقنّاصون أيديهم على المخلّص، وحاول يهوذا الفرار، ولكنّ الرسُل والتلاميذ وقفوا سدًّا في وجهه، وأخذت بهم الحميّة، فسألوا المعلّم: "يا ربّ، هل نُعمِل السيف؟". ولم ينتظر بطرس جواب المعلّم، بل هوى بسيفه على خادم رئيس الكهنة المدعوّ "ملكُس"، وفي اضطرابه لم ينلْ منه سوى أُذنه. وسادت الفوضى، وسنحت ليهوذا فرصة الفرار، ولكنّه سرعان ما وقع بين أيدي تلاميذ آخرين أفرغوا عليه جعبة غضبهم بسبب خيانته للمعلّم، غير أنّ ستّةً من الفرّيسيّين سارعوا إلى إعتاقه، فيما كان جندٌ يقيّدون يسوع، وآخرون يردّون التلاميذ الذين ظهروا بغتةً، وتدافعوا إلى موقع الاشتباك.

وكان يسوع قد لام بطرس لومًا صارمًا بسبب استخدامه السيف وقال له: "ردّ سيفك إلى غمده، فمن يأخذ بالسيف، بالسيف يهلك. أوَتظنّ أنّني لا أستطيع أن أسأل أبي فيرسل لي في الحال أكثر من اثنتي عشرة جوقةً من الملائكة. ولكن كيف تتمّ الكتب القائلة إنّه هكذا ينبغي أن يكون؟". ثمّ دنا من "ملكس"، وصلّى، وأعاد له أُذنه؛ وحتّى في تلك الظروف الحرجة كان الفرّيسيّون ماضين قُدُمًا في غيّهم، فقالوا للجند المحيطين بهم: "إنّ الناصريّ على صلاتٍ وثيقةٍ بإبليس، وبفضل أعمال سحره بدت أذن ملكُس قد صُلمت، ثمّ بدت صحيحة".

لم يقدّم الجند أيّ أمرٍ قضائيٍّ بالقبض عليه، فقال لهم يسوع: "لقد جئتم بسيوفٍ وعصيّ، وكأنّكم تطاردون لصًّا، في حين أنّكم لمّا كنتُ بينكم، كلّ يومٍ، في الهيكل لم تمدّوا عليّ يدًا. ولكن ها قد حانت ساعتكم، وسلطة الظلمات". فأمر الفرّيسيّون بتقييده، وراحوا يشتمونه قائلين: "لقد فشل سحرك في إيقاعنا". وحينئذٍ لاذ الرسُل جميعهم بالفرار.

وفي هذا السياق تقول الرائية إنّ الجنود الذين سقطوا أرضًا وأنهضهم الربّ، لم يمسّوا يسوع بأذًى، واقتصر دورهم على الإحاطة بيسوع، على نقيض الفرّيسيّين

والقنّاصين، وقد اعتنقوا، لاحقًا، دين المسيح، أمّا ملكس فارتدّ فورًا إثر شفاء يسوع له، وفي أثناء آلام الربّ، تطوّع لتبليغ أخباره لأُمّه وأصدقائه.

أمّا القنّاصون الذين كُلِّفوا بتقييد يسوع، فكانوا من رعاع الوثنيّين، وقد نفّذوا مهمّتهم بضراوة الجلاّدين. فقيّدوا يدي الربّ بقسوةٍ فائقةٍ مستخدمين حبالاً جديدةً شديدة القسوة. وربطوا معصم يده اليمنى بمرفق ذراعه اليسرى، ومعصم يده اليُسرى بمرفق ذراعه اليُمنى. ولفّوا جسده بحزامٍ غرسوا فيه أسنّةً حديديّةً، وطوّقوا عنقه بعقدٍ من الأسنّة الحادّة، مشدودٍ إلى صدره بسيرين مربوطين ربطًا وثيقًا بالحزام، وقد عُلّقت بالحزام أربعة حبالٍ، كان الجند يجرّون بها ضحيّتهم في كلّ صوبٍ، وفق نزوات وحشيّتهم.

وأشعلوا المزيد من المشاعل، وانطلق الموكب المريع، يتقدّمه عشرة جنودٍ، يليهم القنّاصون جارّين يسوع بالحبال، وفي إثرهم الفرّيسيّون الشتّامون، والحرس في مؤخّر الموكب. أمّا التلاميذ فكانوا يجرون في كلّ اتّجاهٍ، منتحبين، مطلقين صرخات لوعتهم، فاقدي الرشد. وحده يوحنّا كان يتبع يسوع، ولمحه الفرّيسيّون فأمروا بالقبض عليه، ولكنّه ترك بين أيديهم الغطاء الذين تلفّع به، وفرّ بجلبابه الداخليّ. (ربّما عنت الرائية الإنجيليّ مرقس، الذي كان يدعى يوحنّا مرقس والذي كان راقدًا في بستان الجتسمانيّ الذي يخصّ ذويه، في تلك الليلة وأيقظته الجلبة).

إرضاءً للفرّيسيّين الذين كانوا يموجون مقتًا للربّ، تنافس القنّاصون الذين كانوا يجرّون يسوع بالحبال، وهو حافي القدميْن، إمعانًا في القسوة الهمجيّة، فاختاروا من الدروب أشدّها وعورةً ووعثاءً، ومرّوا به فوق الحجارة والوحل، وهم يشدّون الحبال التي قيّدوه بها بعنفٍ، يسوطونه بحبالٍ أُخرى معقّدة، مثلما تساط البهائم المساقة إلى المسلخ، ويمطرونه بشتائمهم الحافلة بالبذاءة والسفالة. وكان موكب القتلة يسير بخطًى حثيثةٍ، مسابقًا الزمن، وقد أدّى ذلك إلى تعثّر المخلّص وسقوطه أرضًا، مرّةً إثر مرّةٍ. وقد بلغت الوحشيّة بالجلاّدين أنّهم، فيما

كانوا يعبرون جسرًا فوق مجرى سيلٍ ضحل الماء دفعوه إليه دفعًا عنيفًا وهو مقيّدٌ، ساخرين منه، وداعينه إلى الارتواء من الماء بقدر ما يشتهي. فهبط على ركبتيه، ثمّ على وجهه الذي وقاه بيديه المقيّدتين اللتين أفلتتا من قيدهما. ويبدو أنّ صخور مجرى السيل كانت أرأف من قلوب اليهود وأزلامهم، فلم تمسّه بأذًى. غير أنّ ثوبه الصوفيّ غبّ ماءً كثيرًا، فأضحى ثقيلاً والتصق بجسده وساقيه، وأعاق مشيته، فلمّا خرج من الماء وخطا بضع خطوات، هوى أرضًا، فأنهضوه بضرباتٍ عنيفةٍ، ورفعوا ثوبه وعلّقوه بنطاقه، كي يتمكّن من مواصلة السير. ولّما رأى الفرّيسيّون قدميه وقد مزّقتهما الصخور والأشواك وأدمتهما، شمتوا به، متظاهرين بالعتب على المعمدان سابقه، الذي فشل في إعداد الدرب له إعدادًا لائقًا. وسأله أحدهم ألم يقل النبيّ: "سأرسل ملاكي أمامه كي يمهّد الطريق؟". وسخر آخر سائلاً: "لَمَ لا تقيم سابقك من الموت كي يزيح العوائق من أمامك؟". عبارات الشماتة هذه كانت تستثير ضحكاتٍ وقحةً، وتشجّع القنّاصين الجلاّدين على الإمعان في همجيّتهم.

وفي هذه الأثناء كان نبأ القبض على يسوع قد ذاع، فانبرى عددٌ من التلاميذ مستطلعين الواقع، ومتأهّبين للذود عنه، وما إن لحظ قادة الموكب تحرّكهم حتّى استعانوا بالفرق الاحتياطيّة المعَدّة لهذه المهمّة، فأقبلت رافعةً المشاعل، مدجّجةً بالأسلحة، ومطلقةً صيحات الاستنفار للمعركة، ما أخاف التلاميذ، وما أوقع الاضطراب في قلب العذراء التي كانت قد وافت إلى وادي يوشافاط لمتابعة الحدث عن كثب، برفقة النساء القدّيسات، ولعازر، ومرقس، وابن ڤـيرونيكا وابن سمعان الشيخ. وأُغمي عليها، فحُملت إلى بيت مريم أمّ مرقس.

وذهل سكّان القرى المجاورة، عندما تنامى إلى مسامعهم نبأ القبض على من أغدق عليهم بركاته وشفاءاته ونعمه، وتعالت أصوات نحيبهم وتأوّهاتهم متحدّيةً تهديدات الجند وأزلام قادة الهيكل.

وبلغ الإعياء بيسوع أن ارتمى أرضًا نوبةً أُخرى، وبدا عاجزًا عن النهوض ومواصلة السير. ورئف به جنديٌّ فقال لرفاقه: "ألا ترون أنّه لن يقوى، بعدُ، على خطوةٍ أُخرى. وإن كان علينا إيصاله إلى رؤساء الكهنة، فلا بدّ من إرخاء الحبال التي تقيّد يديه، فيستطيع، على الأقلّ، الاتّكاء عليهما عندما يسقط". وامتثل الجلاّدون لاقتراحه، وحينئذٍ دفعت الرأفة جنديًّا آخر إلى مدّه بجرعة ماء، فشكر له الربّ صنيعه، وتفوّه ببعض عباراتٍ تتعلّق بالماء الحيّ، فأوسعه الجند سخريّةً، مؤكّدين له أنّه انتهى إلى حالٍ لا يقوى معها على إرواء عطش إنسانٍ ولا بهيمةٍ. وواصل الموكب ارتقاء تلّةٍ، فيما الجند والحرّاس ممعنون في إسامته ألوان التنكيل والإهانات. ولدى دخولهم مدينةً كان يسوع قد أغدق عليها إحساناته وصنائعه، استقبله أهاليها بصيحات تعاطفٍ وجيعةٍ تفتّت الأكباد، وشقّ على الجنود درء سيل الرجال والنساء الذين تقاطروا من كلّ جانبٍ، ولم يطيقوا رؤية مخلّصهم والمحسن إليهم، شاحبًا، مشوّهًا، جريحًا، مشعّث الشعر، ملطّخًا بالوحل، مساقًا مثل ذبيحةٍ إلى المسلخ، تحت ضربات الهراوات يُهوي عليه بها جنودٌ شرسون. وركعوا، متوسّلين: "أطلقوا سراح هذا الرجل، فمَن سواه يغيثنا، ويواسينا، ويشفي أسقامنا؟". وراحوا يعدّدون المقعدين الذين أنهضهم وأعاد لهم قواهم، والعميان الذين أعاد لهم البصر، والأموات الذين أعادهم إلى الحياة. بالمقابل كان الجنود وقادتهم يستفزّون الرعاع كي يشتموا المخلّص، ويمعنوا في المطالبة بإعدامه.

وبلغت ثورة المتعاطفين مع يسوع ذروتها عندما لمحوا أُمّ المخلّص المنهارة يمضي بها أصدقاء ابنها والنساء القدّيسات إلى بيت أُمّ مرقس، فتعالى نحيبهم الموجع، وكادوا يحملون الأمّ الحزينة على أكفّهم، فيما كانت هي قد أخرسها الألم، إلى أن وافى يوحنّا، وأجابها على استيضاحها عن مصير ابنها، فأغرقت في النحيب.

بطرس ويوحنّا كانا قد لحقا بيسوع، عن بعد، إلى أن دخل الموكب أورشليم، وكان يوحنّا يعرف بعضًا من خدم رئيس الكهنة والمراسلين المكلّفين بتبليغ دعوات

المحكمة، فالتمس عونهم وتمكينه وبطرس من دخول بيت رئيس الكهنة، حيث كان يسوع قد اقتيد. فألبسوهما مثل زيّهم الخاصّ، وتسهيلاً لتسلّلهما كلّفاهما باستدعاء عضوين في السنهدرين اللذين كانا، في الآن عينه، صديقين ليسوع، وهما نيقودمس ويوسف الأريماثيّ، واللذين كان الفرّيسيّون يؤثرون ألاّ يدعيا إلى الحضور.

في هذه الأثناء كان يهوذا، يجوس هائمًا بين المزابل وأكوام الأنقاض المنتشرة في حواشي أورشليم الجنوبيّة.

## حراكٌ وجلبةٌ في أورشليم

كان حنّان وقيافا قد أُحيطا علمًا بالقبض على يسوع، ساعة تنفيذه، فنشطت الحركة من حولهما. وأُضيئت قاعات المحكمة، وأُحكمت حراسة الأبواب، وامتلأت الأزقّة والأحياء بالسعاة المكلَّفين بدعوة الكتبة والشيوخ، وكبار أعضاء المجلس، وكان كثيرون من هؤلاء، قد تريّثوا في المجلس، عقب عقد صفقة الخيانة مع يهوذا ترقّبًا للعواقب. وقد حرص رؤساء الكهنة على استدعاء جميع الذين برهنوا عن عداءٍ ضارٍ للربّ، وطالبوهم بتزويد المجلس بكلّ الأدلّة والشهادات الكفيلة بإدانته. وكانت أورشليم تضمّ، بمناسبة الفصح، أفواج الأشرار القادمين من كلّ أرجاء فلسطين الذين سبق ليسوع أن فضح ما يتستّرون عليه من أفعالٍ مشينةٍ، وما يضمرونه من نوايا خبيثةٍ؛ وأوعز رؤساء الكهنة إلى عملائهم بشراء ضمائر شهود زورٍ، مهما غلا الثمن. فتسابقت إلى محكمة قيافا طغمةٌ هجينةٌ من المتأهّبين لبيع ضمائرهم، انتقامًا من يسوع، ضمّت باعةً كان الربّ يسوع قد طردهم من الهيكل، وعلماء شريعةٍ كان قد أفحمهم، وخطأةً رفضوا التوبة، فرفض شفاءهم، وخطأةً كان قد شفاهم فعادوا إلى دروب الخطيئة، واستولت عليهم العلل من جديد، وشبّانًا مدّعي الفضيلة رفض المخلّص ضمّهم إلى مدرسته، وورثةً جشعين كان يسوع قد أوصى للفقراء بأرزاقٍ كانوا طامعين في اقتناصها، أو كان قد شفى أشخاصًا كانوا توّاقين إلى وراثتهم؛ وفاسقين كان قد ردّ شركاءهم في الفسق إلى دروب الطهارة،

والعديد من الأشرار الذين يعلنون عداءً ضاريًا لكلّ قداسةٍ واستقامةٍ وطهرٍ. كلّ هؤلاء تقاطروا إلى محكمة قيافا لكي يدّعوا، افتئاتًا، بأقذر التهم على الحمَل المنَزّه من كلّ عيبٍ الذي ارتضى أن يتّخذ على عاتقه كلّ آثامهم، ويكفّر عنها.

ومن جانبٍ آخر كان القلق والأسى يلتهمان نفوس أفواج أصدقاء يسوع الذين حيّرهم تلك الحركة المشبوهة التي لم يدركوا لها سببًا، والذين انطلقوا يستفسرون، فإن أظهروا تعاطفًا مع الضحيّة طُردوا، وإن التزموا الصمت أضحوا موضع شبهةٍ، وآخرون كان ولاؤهم للمخلّص مترجرجًا، فهانت عزائمهم وتخاذلوا. وبالإجمال كان الثابتون الصامدون قلّةً، فمنهم المذهول، ومنهم المنتحب بصمتٍ، ومنهم من يبحث عن صديقٍ أمينٍ يبوح له بخلجات نفسه.

كان اليهود قد فرغوا من إعداد مقتضيات العيد، عندما راح سُعاة رئيس الكهنة يجوسون بمشاعلهم، أزقّة أورشليم الغافية، ويقرعون الأبواب، موقظين أزلامهم والرعاع، وشهود الزور، موغرين الصدور على المخلّص، ومنتزعين النيام من غفوتهم، فكان بعضهم يخرجون مستطلعين ما يحدث؛ وبعضهم يُحكمون إيصاد أبوابهم، خشية ثورةٍ شعبيّةٍ، وآخرون يتلمّظون شماتتهم مسبّقًا، متخيّلين الويل الذي سيحلّ بلعازر وشقيقتيه، وبالنساء القدّيسات اللائي لم يتورّعن، يومًا، عن إعلان وفائهنّ الراسخ للناصريّ وتضحياتهنّ السخيّة في سبيله وفي سبيل رسله وتلاميذه.

وكان أكثر المشاهد هصرًا للقلوب مشهد الأمّ المفجوعة والنساء القدّيسات اللوائي أخرجهنّ القلق من مسكنهنّ، فانطلقنَ في الطرقات والأزقّة ليلاً مستقرياتٍ الأخبار، بقلوبٍ داميةٍ واجفةٍ، وكنّ يضطررن إلى التواري لدى ظهور جماعاتٍ تجأر بعباراتٍ سوقيّةٍ، وتنهال عليهنّ، بين فينةٍ وأُخرى، بالشتائم المقذعة الوقحة، وأحيانًا أُخرى تطعن قلوبهنّ تعابير الشماتة بالمخلّص. فيعدنَ إلى مخابئهنّ مهدوداتٍ، ويطّرحنَ إعياءً وحزنًا، ويذرّفن وابل الدموع، ويُتكئنَ رؤوسهنّ المحجّبة على ركبهنّ. وقد يُقرع الباب، فيتهيّبن فتحه، ويلحّ القرع برفقٍ مؤكّدًا أنّه

قرع صديقٍ فيفتحنَ مرتعداتٍ، وعندما يتّضح أنّه مرسلٌ من صديقٍ للمعلّم يُحطنَ به من كلّ صوبٍ ويستمعن باهتمامٍ إلى ما جاء به من أنباء، ولكنهنّ لا يجدنَ إلى الراحة سبيلاً، ولا تبارحهنّ الرغبة في الوقوف على أحوال الحبيب، لحظةً فلحظةً.

أمّا الرسُل والتلاميذ فهائمون في الوديان المحيطة بأورشليم، رازحون تحت وقر الخوف. عندما يلتقون يتبادلون الاستفسارات، بصوتٍ خافتٍ، عن أخبار المعلّم، ويصمتون فور شعورهم باقتراب عابر سبيلٍ. لايستقرّون في مكانٍ محدّدٍ، ولا يكفّون عن الاقتراب من المدينة، أملاً في الظفر بخبرٍ، ثمّ لا يلبثون أن يعودوا خائبين.

ويتوالى، في الليل، ثغاء الخراف التي تُساق إلى الهيكل، كي تُذبح، ويُحتفل بأكلها احتفالاً بالفصح، فيما الحَمَل المنَزّه من كلّ عيبٍ صامتٌ، تحت سيل الإهانات المنهالة عليه،التي ارتضى الإنسان الإله احتمالها عقابًا عن آثام البشر كما ارتضى الإله الإنسان التكفير عنها. وكم كانت جليلةً تلك الساعة التي فيها التقت الرحمة العظمى بالعدل الأقصى وتعانقا، وتضافرا على تحقيق عمل الحبّ الأسمى!

## يسوع أمام حنّان

نحو منتصف الليل أُدخل يسوع إلى قصر حنّان، الذي كان جالسًا في صدر القاعة على منصّةٍ عاليةٍ يُصار إليها ببضع درجاتٍ، يحيق به ثمانيةٌ وعشرون مستشارًا. وجُرّ يسوع الذي ما انفكّ محاطًا بالجند الذين ألقوا عليه القبض إلى أعلى المنصّة، فيما امتلأت القاعة بجنودٍ، ورعاعٍ، وخَدَم حنّان، وبأعداء يسوع، وبشهود زورٍ.

كان حنّان عجوزًا نحيلاً، قاسي القلب، ينتظر بتوقٍ وصول المخلّص. ونفسه تعجّ حقدًا، وخبثًا، وفرحًا ماكرًا، وكانت مهمّته تحرّي سلامة العقيدة، وإحالة مخالفيها إلى رئيس الكهنة. ولدى دخول يسوع، طافت على شفتيه بسمةٌ طافحةٌ سخريّةً وشماتةً، وتظاهر باستغراب مثول يسوع بين يديه، فسأله: "عجبًا، أهذا أنت، يا يسوع الناصريّ! أين هم تلاميذك، وأفواج أتباعك؟ وأين ملكوتك؟ يبدو لي أنّ أُمورك قد ساءت، وأنّ زمن خطاباتك والشتائم التي كنت تصبّها على

الكهنة، وانتهاكاتك لحرمة السبت قد ولّى. وما الذي حلّ بتلاميذك؟ أتصمت؟ هيّا تكلّم أيّها المشاغب، يا ناشر الفتنة! ألم تتناول الفصح بطريقةٍ غير مألوفةٍ، في وقتٍ ومكانٍ محظورين؟ أو هل تبتغي ابتداع علمٍ جديدٍ؟ ومن رخّص لك التعليم؟ وفي أيّة مدرسةٍ تعلّمت؟ ما هو تعليمك الذي يزري بكلّ شيءٍ؟ هيّا تكلّم.."

ورفع يسوع رأسه، وحدّق إلى حنّان، وأجاب: "لقد علّمتُ علنًا، في المجامع وفي الهيكل، حيث يحتشد جميع اليهود، ولم أُدلِ بأيّ تعليمٍ سرّيٍّ. فعلامَ تسألني؟ الأحرى بك أن تسأل الذين استمعوا إليّ، والذين يعرفون كلّ ما علّمته". فارتسمت على وجه حنّان، لدى سماعه هذا الجواب، أَمارات الحَنَق والغيظ. وسارع أحد الجلاّدين إلى الانتقام له، فأهوى بيده المرتدية قفازًا حديديًّا على فم يسوع ووجهه، وهو يصيح: "أهكذا يُجاب الحبر الجليل؟"، وكانت اللكمة من العنف بحيث هوى المخلّص على درجات المنصّة، وغمر الدم وجهه. وأغرق الحضور في الضحك والتصفيق والشتائم؛ ولم يتخلَّ الربّ، الذي أُنهض إنهاضًا وحشيًّا، عن سكونه ووقاره، وقال للمعتدي: "إن كنتُ أسأتُ القول، فبيّن لي موطن خطئي، وإلاّ فعلامَ تضربني؟". هدوء يسوع هذا أذكى غيظ حنّان، فدعا الحضور إلى سرد كلّ مآخذهم على المتّهم، فتعالت الصيحات والشتائم، وتوالت الاتّهامات من كلّ حدبٍ، وكلّ لونٍ: "قال إنّه ملك، وابن الله، ووصف الفرّيسيّين بالفسق". "إنّه يدعو الشعب إلى الفتنة، ويشفي، في أيّام السبت، بسلطة الشياطين"؛ "لقد أغوى سكّان بعض القرى فناصروه كالمجانين وأعلنوه نبيًّا ومخلّصًا"؛ " يدّعي أنّه رسول السماء وابن العليّ؛ يُنذر أورشليم بالويلات، ويخالف وصايا الصوم ويشارك موائد النجسين، والوثنيّين، والعشّارين والخطأة، ويعاشر الزواني"؛ "يضلّل الشعب بأقوالٍ مبهمةٍ؛ يبدّد أموال الآخرين؛ ويبهر السذّج بأقوالٍ باطلةٍ عن ملكوته"...

انصبّت على المخلّص هذه الاتّهامات دفعةً واحدةً، مصحوبةً بالشتائم، فيما

كان الجلاّدون يدفعونه يمنةً ويسارًا، قائلين: "ما ردّك؟" أمّا حنّان ومستشاروه فسألوه ببسمة ازدراءٍ: " أَهذا هو تعليمك العلنيّ الرائع الذي ملأت به البلاد، فبمَ تردّ؟ ألا تتفوّه بكلمة؟ لمَ لا تصدر أوامرك، أيّها الملك القدير؟ ويا رسول الله أين الدليل على رسالتك؟"

كان الإعياء قد بلغ بيسوع أن غدا يترنّح في وقفته، ومع ذلك لم يتورّع حنّان عن التمادي في تعييره، وازدرائه، واستفزازه، ثمّ أخذ بُرديًّا، ودوّن عليه كلّ التهم الموجّهة إلى المخلّص وعلّق البرديّ على قصبةٍ، وقال ليسوع: "هذا هو صولجانك الملكيّ المتضمّن كلّ ألقابك ومناصبك وحقوقك؛ احمله إلى رئيس الكهنة لعلّه يعترف برسالتك وملكوتك، ويعاملك بما تستأهل كرامتك الفائقة". وأمر بأن يُقيّد ويُساق إلى رئيس الكهنة.

وعلى هذا النحو سيق يسوع إلى قيافا، محاطًا بالسخريّة والشتائم، وإهانات الرعاع، وقد لقي الجنود مشقّةً في حمايته من هجمات الجموع التي كانت تُكرّر أقوال حنّان المهينة، مثيرةً فيها غرائز العنف البهيميّة؛ وشوهد جنودٌ يرشون المتبرّعين بالشهادة زورًا، ويردّون بعنفٍ المتعاطفين مع يسوع الضحيّة.

## يسوع أمام قيافا

بدا قيافا جادًّا، ولكنّ قسمات وجهه المكفهرّ فضحت ما كان يعصف في داخله من عنفٍ وقسوةٍ. كان يرتدي معطفًا طويلاً أحمر اللون موشّى بزهورٍ، وله أهدابٌ مذهّبةٌ، طال انتظاره وصول الموقوف، فضاق صبرًا، وانحدر بكامل زيّه مسرعًا نحو باب الردهة مستطلعًا، وعندما تبيّن اقتراب الموكب، هرع إلى استعادة موقعه.

اجتاز يسوع الدهليز المؤدّي إلى ردهة المحكمة وسط أمواج صيحات الرعاع وشتائمه. أمّا في الردهة فعبّر أعداؤه عن غيظهم بتمتماتٍ مكبوتةٍ؛ ولمح الربّ، وهو داخلٌ، وجهيْن حبيبيْن، وجهيْ بطرس ويوحنّا اللذين أفلحا في الاندساس في لجّة الحشد، ولكنّه تفادى التحديق إليهما مجنّبًا إيّاهما الإحراج والأذيّة.

وما إن مثل أمام المجلس حتّى صاح قيافا: "ها أنت ذا، يا عدوّ الله، يا من أفسد علينا حرمة هذه الليلة!" ثمّ انتُزعت منه القصبة التي كانت تحمل البرديّ المتضمّن بنود التهم المنسوبة إليه، وبعد أن اطّلع عليها قيافا، استرسل في سرد التهم الملفّقة، مرفقًا إيّاها بتعليقاته المهينة ولعناته، وبما أنّ المخلّص ظلّ هادئًا، صامتًا، راح الحرس ينخسونه بعصيٍّ حادّة الأطراف، كي يُكرهوه على الإجابة.

فاق قيافا حنّان في ملاحقة الربّ الماثل بين يديه بالأسئلة الماكرة الملحاحة. ولكنّ يسوع التزم الصمت، والصبر، ولم يلقِ على المدّعي حتّى لفتةً، فأمعن الحرس في ضربه ونخسه ودفعه.

وحان أوان الاستماع إلى الشهود، فتوالى على المنصّة رعاعٌ مرتشون لم يدلوا إلاّ بصيحاتٍ مبهمةٍ، وفرّيسيّون وصدّوقيّون موتورون، وكرّروا تهمًا ممجوجةً طالما فنّدها يسوع، مثل استعانته بالشياطين لشفاء الأمراض وطرد الأرواح الشرّيرة، وانتهاكه حرمة السبت، ومخالفة وصيّة الاغتسال، ومعاشرة العشّارين والخطأة، ووصفه الفرّيسيّين بالأفاعي، وادّعائه أنّه ابن الله... وكانوا حريصين على تزوير أقواله البريئة وتحويلها إلى مواضيع اتّهام. وغالبًا ما تعارضت الشهادات وناقض بعضها بعضًا. وبالإجمال لم تُقَدَّم أيّة تهمةٍ شرعيّةٍ، بل كان الشهود يشتمون ولا يشهَدون، أو كانوا يتجادلون ويبطل أحدهم أقوال الآخر؛ ويكتفي قيافا وبعض مستشاريه بشتم المخلّص، وتحدّيه. ولكنّ المخلّص لم يفُهْ بكلمة دفاعٍ، فقالوا له: "بما أنّك كلِفٌ بالصمت فلمَ لم تخرس آنفًا، وتوفّر على الشعب أكاذيبك وتخرّصاتك؟" وفي هذه الأثناء لم يكفّ الحرس عن التنكيل بالربّ، كي يُكرهوه على الكلام. وكان بعض الحضور يتغلّبون على خوفهم فينبرون للردّ على ادّعاءات باطلةٍ. إذ بلغت السفالة ببعض الشهود أن وصفوا يسوع بابن زنا، فلم يطِق حاضرون الصمت وشهدوا على طهر مريم واستقامة يوسف. وحاول قيافا التملّص من الحرج الذي أوقعه فيه تناقض الشهادات المتباينة تناقضًا سافرًا، بعزو هذا التناقض إلى فعل سحرٍ قام به يسوع، فأضاف إلى الحرج حرجًا، وإلى الفضيحة فضيحةً أدهى.

ودُعي نيقودمس إلى الشهادة على مخالفة يسوع الفصح والاحتفال به في غير أوانه، فجاء نيقودمس بكتاباتٍ تثبت حقّ الجليليّين بإقامة الفصح، يومًا قبل أوانه الرسميّ، تفاديًا لازدحام الهيكل وعجزه عن استيعاب جميع طالبي ذبح حملان العيد في يومٍ واحدٍ. شهادة نيقودمس أفحمت متّهمي يسوع، ولكنّها استجلبت على الشاهد نقمة أعدائه.

وتنامت تناقضات الشهادات في ما يتعلّق بما قاله يسوع عن نقض هيكل جسده وإقامته في اليوم الثالث. وضاق قيافا ذرعًا بهذه التناقضات وكلّ الاتّهامات الأخرى، والتزام يسوع بصمتٍ صامدٍ، رغم التنكيل والاضطهاد المتواصلين. وقد خضّت مهزلة الشهادات وصمت يسوع ضمائر عدد من الحضور وتسلّلت الريبة إلى نفوس شريحةٍ واسعةٍ من الممتعضين من مجرى المحاكمة، فآثر عشرة جنودٍ الانسحاب مدّعين الإعياء، وعند مرورهم بقرب بطرس ويوحنّا قالوا لهما: "إنّ صمت يسوع وسط تلك المساخر يمزّق قلوبنا. ويبدو أنّ الأرض ستنشقّ وتبتلعنا. فبربّكما قولا لنا أين نمضي!" وكان الرسولان مرتابين بصدق الجنود، ويخشيان افتضاح أمرهما وسط أعداء معلّمهما الضاجّين غيظًا ومقتًا، فرمقا الجند بنظرةٍ حزينةٍ، واكتفيا بالقول: "إذا كانت الحقيقة تدعوكم، فاستسلموا لدعوتها، ولا تأبهوا بأيّ أمرٍ آخر".

وضاق قيافا ذرعًا، فنهض ودنا من يسوع، وسأله بلهجةٍ قاسيةٍ: "ألا تجيب بشيءٍ على ما يتّهمونك به؟". وكان قيافا يموج غيظًا، ليس فقط بسبب صمت يسوع، بل أيضًا لإحجام الربّ عن رفع نظره إليه. وعقابًا له شدّ الحرس شعر يسوع إلى الوراء، ولكموه على ذقنه، ولكنّه لم يرفع عينيه. وحينئذٍ رفع قيافا يديه بعنفٍ، وهتف غاضبًا: "أستحلفك بالله الحيّ أن تقول لنا هل أنت المسيح، ابن الله المبارك؟" وساد صمتٌ سحيقٌ، وأعلن يسوع، بقدرةٍ إلهيّةٍ، وبصوتٍ طافحٍ جلالاً، صوت الكلمة الأزليّ، هزّ جميع المستمعين: "أنا هو، كما قلت، وإنّي أعلن لكم أنّكم سترون ابن الإنسان إلى يمين جلال الله، وقادمًا على غمام السماء". وقد رأته الأخت الرائية، حينئذٍ، متألّقًا، ورأت السماء تُشرَع فوق رأسه، والله الآب، كلّيّ القدرة، يطلّ

عليه، والملائكة والأبرار يصلّون ليسوع، وسمعت الرائية الكلمة يقول: "لو كان بوسعي أنا الإله أن أتألّم لتألّمت، ولكنّني بما أنّني رحيمٌ، فقد أردت أن أتجسّد، لكي يتألّم ابن البشر؛ وها إنّه يأخذ على ذاته خطايا جميع هؤلاء، وخطايا العالم أجمع".

وشهدت الأخت الرائية الجحيم يُفتَح تحت أقدام قيافا، مثل دائرة نارٍ قاتمةٍ تعجٍّ بأشكالٍ مريعةٍ. ورأت رئيس الكهنة نفسه يمتلئ بغيظ الجحيم، والقاعة كلّها تضجّ بأبالسةٍ يخرجون من تحت الأرض. ورأت الجحيم تترنّح تحت أقدامه، بغتةً، وتتقيّأ كلّ غيظها على ردهة المحكمة تلك.

أمّا قيافا، فعند سماعه جواب يسوع، مؤكّدًا كونه المسيح ابن الله، انتفض، وقصّ طرف معطفه بسكّينٍ، وصاح بصوتٍ جهيرٍ: "لقد جدّف! فما حاجتنا، بعدُ إلى شهودٍ؟!"، واستشهد بالحضور سائلاً: "بعد أن سمعتم تجديفه، ما تقولون؟" فهبّوا واقفين، وأجابوه بصيحةٍ هائلةٍ: "إنّه يستحقّ الموت!".

كان إبليس قد بثّ نشوة غيظه في قلوب أعداء الربّ، وأتباع الفرّيسيّين وخدّامهم، ولكأنّ الظلمات كانت تعلن انتصارها على النور. أمّا الذين احتفظت قلوبهم بجذوة خيرٍ فقد أخذ بهم الهول كلّ مأخذٍ فغطّى كثيرون منهم رؤوسهم، وانسلّوا خارجًا. والتفت قيافا إلى الحرس والجلاّدين وقال: "إنّي أُسلّمكم هذا الملك، فأَدّوا لهذا المجدّف ما يستأهله من تكريمٍ". ثمّ اختلى مع مستشاريه في حجرةٍ واقعةٍ خلف قاعة المحكمة.

هصر الألم قلب الرسولين بطرس ويوحنّا، وهما يشهدان كلّ ما أُنزل بمعلّمهما الحبيب من تنكيلٍ وإهاناتٍ وحيفٍ، ولم يُطيقا المكوث في المحكمة. وفي غمرة حزنه، شخص يوحنّا بفكره إلى أُمّ يسوع، وتوجّس خشيةً من أن تُبلَّغ نبأ الحكم على ابنها تبليغًا فجًّا، أو من قِبَل خصمٍ شامتٍ يتوخّى إيجاعها، فرمق الربّ بنظرةٍ، وكأنّه يقول له: "أنت تعلم لِما أنا ماضٍ"، وهرع إلى العذراء القدّيسة، ولكأنّه رسول ابنها. أمّا بطرس فكان الجزع والألم قد ذهبا بكلّ روعه، وكان يرتعد بردًا

بتأثير ما أصابه من إعياء، ونبا به المكان، غير أنّه لم يُطِق البعاد عن المعلّم، فدنا من الموقد الذي تحلّقت حوله ثلّةٌ من الرعاع ملتمسين الدفء. وليته نأى بنفسه عن مزالق التجربة!

وما إن غادر قيافا المحكمة حتّى انقضّت ثلّةٌ من السفلة على الربّ انقضاض جماعة زنابير، وبعد أن كانوا في أثناء المحكمة قد انتزعوا من رأسه ومن لحيته نتف شعرٍ، وأوسعوه لكمًا وصفعًا ووخزًا، وأمطروه وابلاً من البصاق، أطلقوا العنان لحنقهم المسعور، وأغدقوا عليه ألوان المهانة والسخريّة، فضفروا أكاليل من قشٍّ أو من لحاء أشجار، وراحوا يتوّجونه بها ثمّ ينتزعونها، وهم يشتمونه، ويضربون رأسه، مستهزئين، مقتبسين مقاطع من أَمثاله، التي يحوّلونها مواضع سخريّةٍ، فتارّةً يقولون: "هوذا ابن داود وتاج أبيه" وتارة "هوذا الأعظم من سليمان" أو "هوذا الملك المحتفل بعرس ابنه"... وكانوا يُتبعون أقوالهم الساخرة بلطماتٍ وضربات هراواتٍ، ويبصقون على وجهه... وجرّدوه من ثوبه وكتّافيّته، وألقوا على كتفيه معطفًا رثًّا، يكاد لا يصل حتّى ركبتيه؛ وطوّقوا عنقه بسلسلةٍ حديديّةٍ، تتدلّى منها حلقتان مزوّدتان بسنانٍ حادّةٍ، تجرح ركبتيه عند كلّ حركةٍ وكلّ خطوةٍ، وخاصّةً عندما يقع. وقيّدوا يديه إلى صدره، ودسّوا بينهما قصبةً، وغطّوا بشتّى ضروب الأقذار رأسه وصدره، والجزء الأعلى من معطف الهزء الذي ألبسوه إيّاه. وعصبوا عينيه بخرقةٍ قذرةٍ مقزّزةٍ، وانهالوا عليه ضربًا باليدين وبالعصيّ، مستفسرين: "أيّها النبيّ العظيم، قلْ لنا من ضربك!" أمّا هو فكان يكتفي بالتأوّه، ويصلّي، بصمتٍ، من أجل مضطهديه.

وبعد أن أشبعوه مهاناتٍ من كلّ لونٍ، جرّوه بسلسلةٍ إلى حيث كان قيافا ومستشاروه، كي يروهم كيف كرّموه، وأمامهم ابتدعوا نوبةً جديدةً من الإهانات،فغمروه بالبصاق ولطّخوه بالوحل قائلين: "ها إنّنا نمسحك ملكًا ونبيًّا"، ثمّ سألوه: "كيف لك أن تمثل أمام المجلس وأنت على هذا القدر من القذارة؟ لقد

حرصت على تطهير الجميع، وها أنت تفتقر إلى الطهر. ولكنّنا سنغسلك. وجاؤوا بطستٍ مليئًا ماءً وسخًا، وبخرقةٍ مقرفةٍ، وتظاهروا بتبليلها بالتحيّات وأمارات التكريم، ومرّوا بها على وجهه وكتفيه، فزادوها قذارةً، ثمّ صبّوا على رأسه كلّ محتوى الطست من الماء القذر، قائلين: "هذا هو العطر الفاخر، هذا هو الناردين الذي ابتعناه بثلاث مئة دينار، هذا هو عمادك في بركة حسدا..." وبقولهم هذا غرب عن بالهم أنّ حمل الفصح كان يرشّ بماءٍ من بركة بيت حسدا. ثمّ مرّوا به، وهو على هذه الحال، أمام أعضاء المجلس الذين أفاضوا عليه مقذع الأقوال. غير أنّه أُعطي للرائية، ولقلّةٍ من الحضور أن يروه متألّقًا بنورٍ يملأ نفوس سليمي النوايا إجلالاً، ويزيد عمى نفوس الناقمين قتامًا.

## إنكار بطرس

كان بطرس يجهد في تمالك نفسه ويقاوم ذرف الدموع وهو يسمع بذاءة الأقوال التي كان أزلام رئيس الكهنة يتناولون بها معلّمهم، غير أنّ حزنه السحيق كان ينعكس جليًّا على قسمات وجهه المتجهّم المكفهرّ، ويفضح تعاطفه مع الناصريّ، ولحظت ذلك بوّابة القصر التي انضمّت إلى المستدفئين، وقالت لبطرس: "أنت أيضًا كنت مع الجليليّ". فاضطرب الرسول، واستحوذ عليه خوفٌ شديدٌ، وخشي أن يصبّ عليه أولئك الأنذال جام غيظهم ونقمتهم، فأجاب: "يا امرأة، أنا لا أعرفه، ولا أفهم ما تقولينه"، وما لبث أن نهض، كي ينأى عن ذلك الجمع المزعج، الذي أضحى له مصدر خطرٍ، وفي تلك اللحظة طرقت مسامعه صيحة ديك... وفيما كان يتّجه نحو الباب لمحته خادمةٌ أُخرى، فقالت للموجودين: "هذا أيضًا كان مع يسوع الناصريّ" وسأله الحاضرون أيضًا: "أوَ لم تكُنْ، أنت، أحد تلاميذه؟" فاستحوذ عليه من الجزع ما جعله ينكر معرفته بيسوع، ويؤيّد إنكاره بقسمٍ، وانطلق سريعًا إلى فناءٍ خارجيٍّ بغية تحذير أصدقاء له؛ كانت مُقاساة يسوع قد أغرقته في غمٍّ كاد ينسيه إنكاره لسيّده، والتقى في ذلك الفناء نحو ستّة عشر من تلاميذ يسوع كانوا قد غامروا فانطلقوا من مخابئهم،

ووافوا يستطلعون مآل المخلّص، وكان بعضٌ منهم قد تسلّقوا جدران القصر وأسواره علّهم يقفون على حقيقة ما كان يجري في الداخل، وبينهم برتلماوس، ونثنائيل وزكّا، وسمعان، والأعمى منذ مولده الذي وهبه يسوع البصر، وآخرون. وكانت الدموع تزدحم في مآقي معظمهم، وبعبارةٍ مقتضبةٍ خافتةٍ حذّرهم بطرس من الخطر الداهم، ودعاهم إلى الانصراف.

غير أنّه، هو نفسه، لم يجد إلى الراحة سبيلاً، وأعاده حبّه ليسوع إلى الداخل، ولكنّه، في هذه النوبة لم يتّجه صوب موقد الاستدفاء، بل قصد، مباشرةً، القاعة الجاثمة خلف المحكمة، حيث كانوا آنذاك ما انفكّوا يجرّون يسوع ويُنـــزلون به أقذر ضروب التنكيل والمهانة، ولمحه المخلّص، فرمقه بنظرةٍ ثاقبةٍ اخترقت فؤاده، وأسالت فيه أوجع حزنٍ. وتساءل بعض الحضور تُرى من يكون هذا الرجل الذي توقّف عليه نظر يسوع، وران على الرسول مزيجٌ مرهقٌ من تعاطفٍ، وأسًى، ووجلٍ، كاد يطيح به. وإذ أضحى محطّ مراقبة الكثيرين، عاد إلى حيث تجمّع المستدفئون، ولكن ما لبث أن أحاقت به ثلّةٌ ممّن ساورهم بشأنه ريبةٌ. واستفاضوا في التجريح بيسوع وازدرائه. وقال له أحدهم: "من المؤكّد أنّك من قومه، فلهجتك الجليليّة خير دليل". وفيما كان بطرس جاهدًا في إبعاد الشبهة عن نفسه، ويهمّ بالبعاد، انبرى شقيقٌ لملكس، وواجهه: "ألم تكن في البستان معه؟ ألست أنت من صلم أُذن أخي؟".

فأخذ الارتباك ببطرس كلّ مأخذٍ، وبلا وعيٍ، راح يلعن، ويحلف، مؤكّدًا عدم معرفته ليسوع، وسارع إلى فناء آخر، حيث كان المخلّص يُساق إلى السجن الثاوي تحت المحكمة، وحينئذٍ أطلق الديك صيحةً ثانيةً، والتفت الربّ إلى رسوله، وصوّب نحوه نظرةً تطفح حزنًا ورأفةً، ذكّرته بقوله له: "قبل أن يصيح الديك مرّتين ستكون قد أنكرتني ثلاث مرّاتٍ". تحت تأثير الأحداث المأساويّة، كانت قد غربت عن بال بطرس، ادّعاءاته بإيثار الموت على إنكار الربّ، وانقضّت عليه نظرة يسوع، انقضاض صاعقةٍ، أسفرت عن جسامة خطيئة إنكاره معلّمه، وهو في

أسوأ حالات التخلّي والخَوَر، فهرع إلى الفناء الخارجيّ وأطلق لحزنه العنان، ولمآقيه سيل الدموع. حينئذٍ لم يعد يخالجه أيّ خوفٍ من سؤالٍ، ولو سُئل لأعلن جهارًا عن علاقته الحميمة بيسوع، ولاعترف بفداحة خطيئة إنكاره له.

ولا ريب أنّ ذكرى تلك الليلة المريعة قد انحفرت في أعماق نفسه حتّى مماته. وغرست في وجدانه يقين وهنه الذاتيّ بمنأى عن عون الربّ.

## العذراء في بيت قيافا

الوحدة الوثيقة التي كانت تربط العذراء بابنها جعلتها تشاركه كلّ آلامه، وعلى غراره كانت تصلّي من أجل جلاّديه. غير أنّ قلبها الأُموميّ كان يهتف نحو الله، ملتمسًا الحؤول دون تلك الجرائم المريعة، وإقصاء تلك الآلام الرهيبة عنه، كانت ترغب، بكلّ جوارحها، أن تكون إلى جانبه فيما كان يتجرّع تلك الكأس المريرة. هذه الرغبة عينها كانت تتأجّج في قلوب المجدليّة والنساء القدّيسات، وفي قلب يوحنّا الذي لم يكن قد انسلخ عن قرب معلّمه إلاّ تعاطفًا مع أُمّه العذراء التي كان يتلمّس حدّة آلامها، وتوقًا إلى مواساتها. وفي الحال انتظم موكبٌ ضمّ العذراء ويوحنّا والمجدليّة وسائر النساء القدّيسات. كانت الطرقات التي ينيرها القمر حافلةً بقومٍ عائدين إلى بيوتهم؛ ومع أنّ النسوة كنّ محجّبات، غير أنّ نشيج نحيبهنّ كان يلفت إليهنّ أنظار المارّة، وبلغت السفالة ببعضهم أن أخذوا يرشقون الفادي بأقسى عبارات الشتيمة، والتي كانت، في الواقع، سهامًا تصيب صميم قلوب أُمّه ورفيقاتها، وقلب يوحنّا. وكان الحزن يتخطّى أحيانًا قدرة العذراء على الاحتمال فيُغمى عليها، وتهوي بين أذرع مرافقاتها. واتّفق، ذات نوبةٍ، أن مرّ بها قومٌ ما برحت مشاعرهم الإنسانيّة تخفق في قلوبهم، وكانوا عائدين من بيت قيافا وقد رانت عليهم مشاعر الأسى والخيبة، ودنوا منها، وقالوا: "يا لكِ من أُمٍّ بائسةٍ، أُمّ جديرةٍ بالرثاء، أُمّ القدّيس الوجيعة!..." وحينئذٍ استعادت العذراء روعها، وشكرت لهم مواساتهم برقّةٍ تستعصي على الوصف. فقد كانت العذراء، رغم ألمها

القاتل، وشحوبها، وتهالك قواها، تشعّ بساطةً، وتواضعًا، وبراءةً. ومع أنّها كانت قد طافت، يومًا وليلةً، بموكب هواجسها وجزعها وأوجاعها، في وادي يوشافاط، وفي أزقّة أورشليم، لم تتخلَّ، لحظةً، عن وقارها ونظافتها، ولم تكن تشعّ إلاّ هيبةً وبراءةً، وقداسةً، وعذوبةً، ولم يُفقدها ألمها الهاصر رشدها وسجوّها وسكونها، وجمالها السماويّ الفائق الذي يفوح نقاءً وطهرًا وسموًّا.

واتّفق أن مرّ موكب العذراء بمكانٍ كان فيه عبيدٌ يُعدّون صليب المخلّص، تنفيذًا لأمر رؤساء الكهنة الذين كانوا يضجّون توقًا أثيمًا إلى رؤيته، فور تصديق بيلاطس لقرار إعدامه، معلّقًا على صليبٍ، وسط صليبَيْ مجرميْن كانت السلطات الرومانيّة قد أعدّتهما لهما. وكان العمّال الدائبون على هذه المهمّة يُرفقون كلّ ضربة فأسٍ في الخشب بشتيمةٍ يصوّبونها إلى يسوع الذي من أجله أُكرهوا على العمل ليلاً. وكانت لعناتهم تمزّق قلب العذراء، فتردّ عليها بالصلاة لأولئك العميان الذين يلعنون فاديهم والصليب الذي سيكون أداة خلاصهم.

ووقفت العذراء وصحبها أمام باب قصر قيافا، متحرّقةً إلى فتحِه، فذلك الباب كان هو الذي يفصلها عن منبع حياتها، وبغتةً فُتح الباب، واندفع منه بطرس مادًّا يديه إلى الأمام، مغطّيًا رأسه، ساكبًا كلّ ما انطوت عليه مآقيه من دموع، مترنّحًا، متهالكًا. ومثلما كانت نظرة الربّ قد هزّت كلّ كيانه، هزّته رؤيته أُمّ ربّه المفجوعة، ورفيقه يوحنّا، وانغمس سؤال العذراء في نفسه انغماس خنجر: "يا سمعان ما الذي حلّ بيسوع؟". وقع عليه هذا الاستفسار وقع زلزالٍ، ولم يُطق مواجهة نظر الأُمّ المفجوعة، ورفيق طريقه يوحنّا، وأعياه الجواب، فأشاح ببصره عنهما، فدنت منه العذراء وقالت بنبرةٍ تقطر أسًى: "ألا تجيبني، يا سمعان بن يونا؟" فهتف بطرس بلهجةٍ تفتّت الأكباد: "لا تكلّميني يا أُمّاه! آلام ابنك لا يحيط بها وصف. لا تكلّميني، هم حكموا عليه بالموت، وأنا أنكرته ثلاث مرّاتٍ إنكارًا مخزيًا". ودنا منه يوحنّا، مستوضحًا، ولكنّ حدّة حزن بطرس كانت قد أطاحت بكلّ روعه، فلاذ بالفرار، وجرى إلى مغارة بستان الزيتون حيث كان يسوع قد صلّى صلاة نزاعه.

سهمٌ جديدة أدمت قلب الأُمّ المفجوعة، لدى سماعها إنكار الرسول الذي كان أوّل المعترفين بابنها، ابنًا لله الحيّ، فارتمت على عتبة القصر، مغميًّا عليها. وما إن استعادت روعها، ورأت الباب مشرعًا، حتّى اندفعت إلى الداخل كي تكون أقرب ما يمكن من ابنها، الذي كانت على تواصلٍ روحيٍّ دائمٍ معه. كانت توّاقةً إلى سماع أنفاسه، فسمعتها ولكنّها سمعت معها العبارات المقذعة المهينة التي كانت تنهمر عليه من قبل جلاّديه، وحرّاس سجنه. وكان، في الخارج، آخرون ينافسون أولئك سفالةً، فتساءلوا، بصوتٍ عالٍ: "أليست هذه أُمّ الجليليّ؟ بلا شكٍّ سيُصلب ابنها، ربّما بعد العيد، ما لم يكن أكبر الأشرار!" فسارعت إلى الانسحاب بعيدًا، ولا سيّما أنّ نحيب المجدليّة الصاخب كان يستلفت جميع الأنظار. ثمّ جاءت العذراء وصحبها إلى حيث كان ابنها قد أعلن أنّه ابن الله، فردّ عليه أبناء إبليس: "إنّه يستحقّ الموت"، وهناك أُغمي عليها، أيضًا، فسارع يوحنّا والنسوة القدّيسات إلى حملها، وكأنّها ميتةٌ، وسط ذهول الحاضرين وصمتهم، إذ ساد شعورٌ بأنّ روحًا سماويًّا اجتاز جهنّم.

## يسوع في السجن

سُجن يسوع في كهفٍ ضيّقٍ ثاوٍ تحت محكمة قيافا، وكان يتعاقب على حراسته وتعذيبه، جلاّدان يُستبدلان بآخريْن بين فينةٍ وأُخرى، وكلُّ ثنائيٍّ قادمٍ يستنبط ألوانًا جديدةً من التنكيل والإهانة، ولا يدع للربّ الضحيّة فرصةً لالتقاط أنفاسه. كان ما زال مجرّدًا من ثيابه، متلفّعًا بمعطف السخريّة الذي لفّوه به استهزاءً، والملطّخ بالبصاق والأقذار. وفضلاً عن تقييد يديه، ربطوه إلى عمود، ولكن حظروا عليه إسناد ظهره عليه، كي يحرموه من إراحة رجليْه المتورّمتيْن الداميتيْن. وكان الحرّاس الجلاّدون يتنافسون على إلحاق أدهى صنوف الآلام والإهانات بالبراءة الوحيدة التي غشت البسيطة يومًا.

وكان يسوع، في غمرة تلك المحنة، يحتمل كلّ تلك العذابات والإهانات بصبرٍ من أجل خلاصنا، سائلاً أباه أن يتقبّل كلّ ما عاناه وما سيعانيه، ضحيّةً تكفيريّةً

عن جلاّديه، وعن جميع الذين، في العالم، سيُعذّبون ويُهانون، ولكنّهم لا يقوون على الصبر، وكبت الغيظ والحقد.

وتعلّق الرائية على تلك الفظائع قائلةً باسم كلٍّ منّا: "أنا أيضًا خاطئة (أو خاطئ)، وبسببي ومن أجلي تألّم يسوع. في يوم الدينونة سينجلي كلّ خفيٍّ، وسيتبيّن كلٌّ منّا مدى مساهمته في إسامة ابن الله العذاب، من خلال الخطايا التي لا نكفّ عن ارتكابها، والتي هي، في الواقع ضربٌ من الموافقة على الإهانات التي أنزلها أولئك الأوغاد بمخلّصنا، وعن المشاركة فيها. وعندما ستترسّخ فينا هذه القناعة، سنقول بحرارةٍ وتصميمٍ: "إنّي أوثر الموت، يا ربّ، على ارتكاب خطيئةٍ تهينك".

بُعيْد الفجر كان الإعياء قد نال من الجلاّدين، فأفسحوا للضحيّة هدنةً واستسلموا لإغفاءةٍ، وحينئذٍ أسند يسوع ظهره إلى العمود، ولّما تسلّل شعاعٌ من نور الشمس المشرقة إلى ضنك سجنه، رفع صوب أبيه يديه المثقلتين بالأغلال، وشكر له إشراقة ذلك اليوم الذي ما انفكّ يصبو إليه منذ حلّ على أرض البشر، يوم تحقيق رسالة تجسّده، رسالة خلاص الجنس البشريّ، وفتح أبواب السماء له.

في هذه الأثناء كان يهوذا يجوس في جوار المحكمة، وكيس ثمن خيانته متدلٍّ من خصره، مستفسرًا عمّا حلّ بالناصريّ، وأحيط علمًا بأنّ حكمًا صدر بإعدامه، وتنامت إليه تفاصيل عن ألوان التعذيب الوحشيّ الذي أُنزل به، وعن صمت الربّ، وصبره، وسكونه، فاستولى عليه القنوط. واتفقّ له أن رأى كيف كان يُعدّ الصليب الذي أَوصلت خيانته يسوع إليه، فاستولى عليه الهلع، وجرى بحثًا عن مخبأ يودع فيه عاره ويأسه.

## المحكمة الصباحيّة

بما أنّ المحاكمة الليليّة افتقرت إلى الشرعيّة، وإلى حقّ إصدار حكمٍ، فقد عُدَّت مجرّد جلسة استماع شهود، وعادت إلى الالتئام صباحًا من أجل إضفاء طابع الشرعيّة عليها، وإصدار الحكم رسميًّا وشرعيًّا. وكان نيقودمس ويوسف الأريماثيّ

من أبرز المعارضين، الذين تشبّثوا بحجّة تناقض شهادات الشهود، ومن ثمّ طالبوا بإرجاء إصدار الحكم إلى ما بعد الفصح. فثارت ثائرة سائر الحكّام الذين اتّهموا المعترضين بتبنّي تعاليم الناصريّ، وباعتبار إدانته إدانةً لهم. ونشطت محاولتهم لإقصاء جميع المعترضين عن المحكمة، فآثر نيقودمس ويوسف الأريماثيّ الانسحاب والنأي بنفسيهما عن تلك المهزلة المجرمة، والتنصّل من تبعاتها الشرعيّة والأخلاقيّة، فيما لاذ آخرون بالهيكل.

وحينئذٍ أمر قيافا بإحضار يسوع إلى المحكمة، تمهيدًا لاقتياده إلى بيلاطس، عقب إصدار الحكم عليه. وتدافع الجنود، صاخبين إلى السجن، ففكّوا قيود يدي يسوع، ونزعوا عنه معطف السخريّة، وألبسوه، عنوةً، ثوبه الطويل الذي كانوا قد لطّخوه بقذاراتهم، ثمّ ربطوا خصره بحبلٍ وجرّوه إلى خارج السجن، بعد أن أفرغوا عليه كلّ مخزون وحشيّتهم من شتائم وتنكيل. ولّما شهد الجنود المنتظمون أمام المحكمة، يسوع مارًّا وسطهم بمعطفه الملطّخ، وتبيّنوا إعياءه وحالته الزريّةً، تحوّل حقدهم إلى اشمئزازٍ، إذ لم تكن الرأفة تعرف سبيلاً إلى قلوب أولئك اليهود الحجريّة.

وكان قيافا يفيض غيظًا وازدراءً، لّما مثل يسوع أمامه، وهو على ما آل إليه من وضعٍ زريٍّ، فبادره بالسؤال: "إن كنت أنت مسيح الله، فأعلن ذلك!..." ورفع يسوع رأسه، وأعلن في أناةٍ وجلالٍ:"إن قلت لك ذلك، لن تصدّقني، وإن سألتك فلن تجيبني، ولن تدعني أمضي في سبيلي. ولكن، بعد الآن، سيكون ابن الإنسان جالسًا إلى يمين قدرة الله". حينئذٍ تبادل القضاة النظرات، وقالوا بلهجةٍ مزجت السخريّة بالازدراء: "أنت، إذن، ابن الله!" فأجاب لسان الحقيقة الأبديّة الخالدة: "أنتم قلتم. أنا هو!" فهتفوا جميعهم: "ما حاجتنا بعدُ إلى دليل؟ لقد سمعنا من فمه". واستفاضوا في شتم ذلك المتشرّد، البائس، المتسوّل، وضيع المنشأ، الذي ادّعى أنّه المسيح الجالس إلى يمين الآب. وأمروا جنودهم بوضع أغلالٍ حول عنقه، بصفته محكومًا بالإعدام، واقتادوه إلى بنطس بيلاطس، الذي كانوا قد أنذروه بالتأهّب لمحاكمة مجرمٍ خطيرٍ، محاكمةً صباحيّةً سريعةً، بسبب اقتراب الفصح، وتلافيًا

لإظهار حكمهم بمظهر الحكم الدينيّ الصرف، حرصوا على إلصاق بيسوع تهمة العداء للإمبراطور تبريرًا للحكم عليه بالموت.

وتقدّم رؤساء الكهنة الموكب المتّجه إلى قصر بيلاطس، يتبعهم يسوع مقيّدًا ومحاطًا بالحرس، ويليهم حشدٌ كثيفٌ من الرعاع والفضوليّين، فيما آثرت ثلّةٌ من الكهنة الشخوص إلى الهيكل، ومباشرة الإعداد لطقوس الفصح، وأيّ فصح!

## قنوط يهوذا

فيما كان يهوذا يجوس في جوار محكمة قيافا، كانت تتنامى إلى مسامعه أقوال المارّة مردّدةً: "لقد حكم عليه السنهدرين بالموت، وسيُصلب. إنّ ما ألحقوه به من تعذيبٍ لكفيلٌ بالقضاء عليه. إنّ صبره لَصبرُ القدّيسين. لم يقلْ سوى أنّه المسيح، وأنّه سيجلس على يمين الله؛ ولذلك سيصلبونه، ولو لم يقل ذلك لما أُعدم. إنّ الشقيّ الذي باعه، كان تلميذًا له، وكان قد تناول الفصح معه، لحظاتٍ قبل خيانته له... هذا الشقيّ يستحقّ الشنق، حقًّا".

لدى سماعه هذه العبارات اجتاحت نفس الرسول الخائن أمواج الجزع، والندم، والقنوط، فراح يجري كالمجنون، وقِطَع الفضّة المعلّقة بخصره تتلاطم، ويفعل فيه رنينها فعل منخسٍ جهنّميٍّ. وليته جرى صوب معلّمه الوديع، الرحوم، واعترف له بخطيئته، والتمس صفحه، وعبّر عن رغبته في الموت عنه أو معه. ولكنّه جرى إلى الهيكل آملاً أن يتخفّف هناك من وقر جريمته. وفي الهيكل كان قد احتشد عددٌ من الأحبار والكهنة بعد أن اطمأنّوا إلى صدور قرار الحكم بالموت على مَنْ طالما فضح رياءهم، وسفّه فتاواهم. ربّما فاجأهم مجيء الخائن مكفهرًّا، متهاويًا تحت وقر الندم وتبكيت الضمير، واليأس، ولكنّهم رمقوه ببسمةٍ ساخرةٍ زاخرةٍ بالازدراء. واستلّ يهوذا من خصره همیان نقود الخيانة، وقدّمه لهم باضطرابٍ صارخٍ، معترفًا: "استردّوا هذا المال الذي أغويتموني به لكي أُسلّم لكم البارّ. استعيدوا مالكم، وأطلقوا سراح يسوع؛ إنّي أنقض عهدي معكم، فلقد ارتكبت جريمةً جسيمةً بتسليمكم دمًا بريئًا".

ولكنّ الكهنة أبوا أن يمسّوا بأيديهم ثمن الخيانة لكيلا يتنجّسوا به، وأجابوه متهكّمين: "وما شأننا نحن؟ إن ظننت أنّك بعتنا دمًا بريئًا، فهذا هو شأنك. أمّا نحن فقد اشتريناه، ووجدناه يستحقّ الموت. أبقِ مالَك معك، فنحن لا نريده...". قالوا ذلك وأداروا له ظهورهم. هذا الازدراء ذهب بلبّ يهوذا، وملأه غيظًا ويأسًا. فتناول كيس النقود ومزّقه بيديه كلتيهما، وقذفه على أرض الهيكل، وفرّ خارجًا.

وراح يجري فاقد الوعي، وإبليس يجري معه مالئًا نفسه بأسباب القنوط، ملحًّا في تذكيره باللعنات التي انصبّت على الخونة منذ قايين وأبشالوم، الذين لبستهم اللعنة كالثوب، وتسلّلت إلى عظامهم، وأحاقت بهم إحاقة حزام. وانتهى به الجري إلى مستنقعٍ مليءٍ بالأقذار في ضواحي أورشليم المقفرة. وحينئذٍ همس إبليس في أذنه: "ها إنّ معلّمك الذي بعته يُقتاد إلى الموت، والشريعة تقول إنّ مَنْ يبيع حياة أخيه ويقبض ثمنها يجب أن يموت. فضعْ، في الحال نهايةً لحياتك". وكان القنوط قد أخذ بالخائن كلّ مأخذٍ، فانتزع زنّاره، وتعلّق به على غصن شجرةٍ، وشنق نفسه وانكسر الغصن، فهوى يهوذا على الأرض وانشقّ بطنه، واندلعت أمعاؤه.

## يسوع أمام بيلاطس

اقتادوا يسوع إلى قصر بيلاطس، عبر أكثر أزقّة أورشليم ازدحامًا بالمارّة، والغرباء، والحجّاج القادمين للاحتفال بالفصح. وفي طليعة الموكب سار قيافا وحنّان وكبار السنهدرين متسربلين بثياب العيد الاحتفالية، تتبعهم أفواج شهود الزور، وعددٌ غفيرٌ من الكتبة والفرّيسيّين الذين تميّزوا بتكالبهم على إدانة الربّ، ومن ورائهم سار يسوع الذي كان الجلاّدون يشدّونه بحبال، محاطًا بالجنود والحرّاس الذين أشرفوا على اعتقاله. وكانت الحشود تتدفّق من كلّ صوبٍ، وتلتحق بالموكب مطلقةً الصيحات والشتائم، والفضوليّون يتراصّون على امتداد الطريق.

لم يكن يسوع يرتدي سوى ثوبه الملطّخ بالأقذار، ومن عنقه تتدلّى سلسلةٌ ثقيلةٌ طويلةٌ تمزّق ركبتيه، كلّما جرّه الجلاّدون بالحبال المعلّقة بخصره. كان منظره مريعًا،

من جرّاء ما أحدثته فيه إهانات الليل من تشويهٍ، وشعّثت شعر رأسه ولحيته. وجعلت وجهه شاحبًا، متورّمًا، مرضّضًا. كانوا يدفعونه إلى الأمام دفعًا، ويوسعونه ضربًا وتنكيلاً. وكان أعداؤه قد ألّبوا شرذمةً من الرعاع لتمثيل دخوله إلى أورشليم، يوم أحد الشعانين، تمثيلاً ساخرًا، فراحوا ينادون به ملكًا، مناداةً مستهزئةً، ويلقون تحت أقدامه حجارة، وعصيًّا، وأثمالاً باليةً مقزّزةً، والجلاّدون يكرهونه على السير فوق تلك القذارات.

على مقربةٍ من قصر بيلاطس كانت قد اختبأت في زاوية أحد الأبنية، أمّ يسوع القدّيسة، بصحبة يوحنّا والمجدليّة، تنتظر وصول الموكب. فمع أنّها كانت، في كلّ لحظةٍ، على تواصلٍ روحيٍّ مع ابنها، لم يُتحْ لها حبّها له تفويت سانحة الاقتراب منه جسديًّا. وكانت، عقب زيارتها الليليّة إلى محكمة قيافا، قد أمضت وقتًا قصيرًا في العلّيّة، غارقةً في ألمٍ صامتٍ. ولكن ما إن أُخرج يسوع من السجن، كي يُقتاد إلى قصر بيلاطس، حتّى هبّت واقفةً، وتدثّرت بمعطفها، وتلفّعت بحجاب، وأهابت بيوحنّا والمجدليّة: "فلنواكب ابني إلى بيلاطس، فأنا أريد مشاهدته بعينيّ". وسلكوا دربًا جانبيًّا كي يسبقوا الموكب، ويترقّبوا وصوله.

بفضل اتّصالها الروحيّ الدائم بابنها، كانت مطّلعةً على ما آل إليه من وضعٍ مزرٍ، غير أنّ حياتها الروحيّة لم تكن تمكّنها من مشاهدة ما انتهى إليه واقعيًّا من تشويهٍ وإعياءٍ. إذ إنّها في لجّة العذابات المريعة التي كانت تسومه إيّاها قسوة البشر، كانت تراه، دائمًا، محاطًا بهالة قداسةٍ وحبٍّ، وبصبرٍ يستعصي على الوصف يجعل منه ضحيّةً طوعيّةً. وإذ بها تصطدم بالواقع المخزي، المريع. وها هم أمام عينها أعداء يسوع المنتفخون صلفًا وكراهيّةً، وكهنة الله المزدانون بحليّ العيد ونفوسهم طافحةٌ خداعًا وكذبًا، ومكرًا، ونوايا إجراميّةً. إنّه لمريعٌ منظر كهنة الله وقد تحوّلوا كهنةً لإبليس. وفي إثرهم شهود الزور، وجميع أعداء الربّ المتكالبون عليه بشراسةٍ، والرعاع الذين يتبعونه بصياحهم. وها هو، أخيرًا، يسوع، ابن الله، مشوّهًا مثخنًا بالجراح، مقيّدًا بالأغلال، منهكًا بالضربات، غائصًا في لجّة الشتائم واللعنات.

لو لم يكن هو الأشدّ بؤسًا وإثارةً للشفقة، والوحيد الساكن الساجي، المصلّي، وسط تلك العاصفة الجهنّميّة الهوجاء، لما تعرّفته أُمُّه، بسبب جسامة التشويه الذي لحق به. ولدى رؤيته، أطلقت صيحةً مفجوعةً: "آه! أهذا هو ابني؟ هوذا ابني، يسوعي!". ومرّ الموكب من أمامها فرنا إليها يسوع بنظرةٍ تقطر حزنًا وتأثّرًا، فأُغمي عليها. فهرع يوحنّا والمجدليّة إلى مساندتها. ولكنّها ما كادت تستعيد روعها حتّى طلبت من يوحنّا أن يقتادها إلى قصر بيلاطس.

على درب الآلام هذا خبر يسوع تخلّي الأصدقاء في وقت المحنة. فحتّى الذين كانوا من أكثر الموالين إعجابًا به، والتماسًا لمعوناته، لّما شهدوا ما آل إليه من نهايةٍ، ارتجّ إيمانهم، وشقّ عليهم الإيمان بأن ينتهي إلى هذا المآل الوخيم مَنْ طالما عدّوه ملكًا، ومسيحًا، وابن الله، وزادهم حرجًا إغداق الشماتة والسخريّة، من قِبَل الفرّيسيّين بقولهم لهم: "هذا هو مليككم الشهير المرموق، فحيّوه. نراكم تتأفّفون الآن، وهو ماضٍ إلى تتويجه، واعتلاء عرشه! لقد أُطيح بمعجزاته، وأنساه رئيس الكهنة خزعبلاته وتعاويذ سحره". حقًّا أفلح رؤساء الكهنة وأعضاء السنهدرين، أئمّة البلاد المبجّلون في ضعضعة إيمان أولئك القوم المساكين بمن أغدق عليهم نعمه وصنائعه، وكان حسبهم لبلوغ هذا الهدف إظهار يسوع في مظهر المهانة والعجز... وحينئذٍ انسحب الطيّبون من أصدقاء الناصريّ يلوكون الأسى والخيبة والريبة؛ فيما انضمّ آخرون إلى الموكب المسعور، بحدود ما أتاح لهم الفرّيسيّون الذين اتّخذوا تدابير حيطةٍ مشدّدةٍ اتّقاءً لثورةٍ شعبيّةٍ.

كانت الساعة تشارف السادسة، صباحًا، عندما وصل الموكب إلى مقرّ بيلاطس. وكان الكهنة قد رسموا خطًّا خارج المقرّ يتعرّض كلّ مَنْ يتخطّاه إلى نجاسةٍ تفسد فصحه. ووقف زعماؤهم وكهنتهم وراء هذا الخطّ، وخاطبهم بيلاطس من شرفته بلهجةٍ تقطر امتعاضًا وازدراءً، فقال: "ما الذي جئتم لأجله، في هذا الوقت المبكّر؟ وما الذي فعلتموه حتّى أوصلتم هذا الرجل، إلى هذه الحال؟

أهل من عاداتكم البدء باكرًا بسلخ ضحاياكم وذبحها؟" فأجابوه: "بل اسمع شكاوانا على هذا المجرم، إذ يتعذّر علينا الدخول إلى مقرّك لكيلا نتنجّس".

وحينئذٍ انبرى رجلٌ مديد القامة، وقور المظهر، وهتف: "أجل، من المحقّق أنّكم لا تستطيعون الدخول إلى هذا المقرّ الذي قدّسته دماء الأبرياء. ولا يجوز أن يدخله سوى هذا الرجل (يسوع) الطاهر الوحيد بين اليهود، طهرَ الأبرياء الذين قُتلوا في هذا المكان". تفوّه بهذه العبارات بصوتٍ جهيرٍ، وبنبرةٍ تختلج تأثّرًا، وانصرف. ذلك الرجل، هو سيراخ المدعوّ صادُق، زوج ڤـــيرونيكا، وكان اثنان من أبنائه قد قُتلا، ظلمًا، في ذلك المقرّ عينه، بأمرٍ من هيرودس. ولمّا تنامى إليه أنّ يسوع قد سيق ظلمًا إلى ذلك المستنقع عينه، إرواءً لنقمة زعماء اليهود، استيقظت في مكامن قلبه، ذكريات مقتل ابنيه، فهرع كي يعبّر عن تضامنه مع البريء الذي يواجه مثل مصير ابنيه. غير أنّ زعماء اليهود كانوا، آنذاك، منهمكين في مواجهة ازدراء بيلاطس لهم، فلم يكترثوا لأقواله.

كان بيلاطس قد سمع الكثير عن يسوع الناصريّ، ولمّا شاهد ما انتهى إليه من تشويهٍ مريعٍ، ومن آثار التنكيل الوحشيّة، وتبيّن، مع ذلك، احتفاظه بمسحة جلالٍ ومهابةٍ راسخةٍ، تنامى ازدراؤه واحتقاره لرؤساء الكهنة ولأعضاء السنهدرين الذين جاؤوه بالناصريّ على أنّه مجرمٌ خطيرٌ لا بدّ من إعدامه، فأوضح لهم أنّه لن يؤيّد حكمهم عليه، إلاّ بعد التثبّت من بنود الاتّهام، وسألهم بلهجةٍ متعاليةٍ: "بمَ تتهمون هذا الرجل؟" فأجابوه، حانقين: "لو لم يكن شرّيرًا لما جئناك به". فقال: "خذوه، إذن، وحاكموه بموجب شريعتكم". فردّوا: "ولكنّه محظورٌ علينا إعدام أيّ إنسانٍ". كان الحَنَق يجيش في صدورهم، ويلحّ عليهم الاستعجال بالقضاء على يسوع قبل الاحتفال، كي ينعموا بتناول لحم الفصح مرتاحي البال، وقد غرب عن بالهم أنّ الحمل الفصحيّ الحقّ هو ذاك الذي ساقوه إلى مقرّ الوالي الوثنيّ، الذي أبوا اجتياز عتبته اتّقاءً للنجاسة.

وعندما طلب منهم إبراز بنود ادّعائهم عليه، جهدوا في الإدلاء بشهاداتٍ سياسيّةٍ زائفةٍ من شأنها إقناع الوالي الرومانيّ، فزعموا أنّ يسوع قد طالما أعلن عداءه للإمبراطور الرومانيّ، وأنّه يدعو الشعب إلى الفتنة والشغب، وإلى الإحجام عن دفع الضرائب، وإلى التمرّد على السلطة المحتلّة، ولكنّ هذه الادّعاءات الكاذبة لم تجد سبيلها إلى قناعة الوالي الذي دحضها بقوله: "كلّ هذه الإدّعاءات فريةٌ كبرى، فلو كانت تستند إلى واقعٍ لكنت أوّل المطّلعين عليها".

أُحرج المدّعون فراحوا يسوقون شكاوى شرعيّةً، مثل خرقه حرمة السبت وإجراء أشفيةٍ فيها، فأجابهم بيلاطس ساخرًا: "يبدو أنّكم لا تشكون من علّةٍ، وإلاّ لما كانت الأشفية قد أثارت غيظكم". ومضوا قُدمًا في اتّهاماتهم فقالوا: "إنّه يغوي الشعب بتعاليم منفّرة، مؤكّدًا أنّ من لا يأكل جسده ويشرب دمه، لا يحظى بالحياة الأبديّة". فعلّق بيلاطس على هذه التهمة بسخريّةٍ جارحةٍ، قائلاً: "يبدو أنّكم ميّالون إلى اعتناق تعليمه لكي تنعموا بالحياة الأبديّة، ولذلك أنتم مستعجلون بأكل جسده، وتجرّع دمه!".

وحينئذٍ أبرز أعداء المخلّص ما عدّوه شديد التأثير على قناعة الوالي، فقالوا: "مع أنّ هذا الرجل وضيع المحتد، وملتبس النسب، غير أنّه ألّب من حوله حزبًا كبيرًا، وأنذر أورشليم بالويلات، وسرد أمثالاً مبهمة المعاني تتعلّق بملكٍ يُعدّ عرس ابنه. وذات يومٍ أرادت الجموع المحتشدة من حوله إعلانه ملكًا، ولكنّه ارتأى أنّ الأوان لم يَحِنْ بعدُ، فتوارى. ولكنّه في الأيّام الأخيرة تنامت جرأته، فدخل إلى أورشليم دخولاً صاخبًا، وسط صيحات الترحيب والتعظيم بابن داود القادم باسم الربّ لبسط ملكوته على إسرائيل، وقوبل بأمجادٍ ملكيّةٍ، لأنّه كان قد علّم أنّه مسيح الله، وملك اليهود الموعود. وقد تقاطر الشهود لتأكيد هذه الوقائع".

عند سماع بيلاطس ادّعاء يسوع أنّه ملك اليهود، انتابه شيءٌ من القلق، فغادر شرفته إلى قاعة المحكمة، وفي طريقه إليها حدّق إلى يسوع بانتباهٍ، ثمّ أمر الحرّاس بأن يأتوه به. وكان بيلاطس وثنيًّا متطيّرًا، متردّدًا، متقلّبًا، ولا يقوم سلوكه على مبادئ راسخة.

كانت تسكنه عقيدةٌ ساذجةٌ، بأنّ أبناء آلهةٍ قد سكنوا على الأرض؛ ولم يكن يجهل أنّ أنبياء اليهود كانوا قد أعلنوا منذ زمنٍ طويلٍ، مجيء مسيح الربّ، مخلّصًا، فاديًا، ملكًا. وكان معظم اليهود ينتظرون مجيئه، وقد تنامى إلى علمه أنّ ملوكًا كانوا قد قدموا من المشرق، بحثًا عن ملكٍ وليدٍ، كانوا يبتغون عبادته، وأنّ هيرودس، عقب هذا الحدث، كان قد أمر بقتل طغماتٍ من الأطفال. ومع أنّ وثنيّة بيلاطس لم تكن تقيم أيّ وزنٍ لنبوءات اليهود، غير أنّه، على غرار الهيرودسيّين وفئاتٍ عريضةٍ من اليهود، كان يتخيّل أنّ أيّ ملكٍ يأتي لتأسيس مملكة اليهود سيكون عاهلاً سلطويًّا محاربًا منتصرًا. وانطلاقًا من هذا اليقين عدّ من السخافة اتّهام رجلٍ على هذا القدر من الانهيار والبؤس اللّذين تجلّيا على يسوع، بادّعاء كونه ملكًا ومسيح الله. ولكن بما أنّ اليهود اتّهموه بجريمة التعدّي على الذات الملكيّة، ارتأى أن يستدعيه ويستجوبه. وألقى على المتّهم نظرة استغراب، وسأله: "أحقًّا أنت ملك اليهود؟". فأجابه المخلّص: "أمن عندك هذا القول، أَمْ آخرون أوحوا به لك؟". فامتعض بيلاطس بسبب ما انتابه من شعورٍ بأنّ يسوع يستخفّ حكمه لمجرّد طرحه هذا السؤال، وأجاب بازدراءٍ: "أوَيهوديٌّ أنا؟ إنّ أُمّتك وأحبارها سلّموك إليّ، فما الذي اقترفته؟" وبنبرةٍ وقورٍ أجاب يسوع: "ليست مملكتي من هذا العالم. وإلاّ لكان لي خدّامٌ يقاتلون حؤولاً دون وقوعي بين أيدي اليهود. الحقّ أقول: ليس ملكوتي على هذه الأرض". هذه الأقوال الجادّة زرعت الحيرة والتساؤلات في ذهن بيلاطس، الذي سأل: "إذن أنت ملك؟" وأجاب يسوع: "أنت قلت. أجل أنا ملكٌ. ومن أجل ذلك وُلدتُ، وجئتُ إلى العالم، لكي أشهد للحقّ، وكلّ مَن يحيا في الحقّ يصغي إليّ". فهبّ بيلاطس واقفًا، متمتمًا: "وما هو الحقّ؟" وعاد إلى شرفته كي يواجه اليهود.

لم يستطع فهم حقيقة يسوع، ولكنّه كان موقنًا أنّ يسوع ليس ملكًا خصمًا للإمبراطور، وأنّه غير ساعٍ إلى تأسيس مملكةٍ أرضيّةٍ، والإمبراطور يسخر من كلّ مملكةٍ خارج هذا العالم. ومن أعلى شرفته أعلن بيلاطس لزعماء اليهود: "لست

أجد فيه علّةً تبرّر إعدامه". وثارت ثائرة أعداء يسوع فاستبحروا في إفاضة سيل اتّهاماتهم عليه، فيما التزم المخلّص الصمت، مصلّيًا من أجلهم. وحينئذٍ التفت إليه بيلاطس سائلاً: "ألا ردّ لديك؟ ألا تسمع كلّ ما يتّهمونك به؟" وظلّ يسوع صامتًا، مثيرًا استغراب بيلاطس الذي استأنف القول: "إنّي أرى أنّهم يفترون عليك". وازداد اليهود هياجًا، وصاحوا: "كيف لا تجد عليه علّة إدانة، مع أنّه يثير الفتنة في الشعب بدءًا بالجليل حتّى اليهوديّة كلّها؟" ولدى سماع بيلاطس كلمة "الجليل" التمعت فكرة حلٍّ في ذهنه وسأل: "هل هذا الرجل جليليّ وخاضعٌ لهيرودس؟" فأجابوا: "أجل. ذووه كانوا يقطنون الناصرة، وهو الآن يسكن في كفرناحوم". فقال لهم بيلاطس: "بما أنّه خاضعٌ لسلطة هيرودس خذوه إليه كي يصدر حكمه فيه، فهو هنا بمناسبة العيد". وحينئذٍ أعاد بيلاطس يسوع إلى أعدائه، وكلّف أحد ضبّاطه بإعلام هيرودس أنّه يرسل له يسوع الناصريّ، الخاضع لسلطته كي يقوم بمحاكمته. ذلك الحلّ أراح بيلاطس من ورطةٍ كانت تؤرّقه، ووفّرت له فرصةً لفضّ خلافٍ بينه وبين هيرودس، ومصالحته من خلال هذه المبادرة، ولا سيّما أنّ هيرودس كانت تراوده رغبةٌ مقيمةٌ في تعرّف يسوع عن كثب.

لم يَرُقْ لزعماء اليهود أن يُسَفّهوا على هذا النحو، وعلى مرأى الشعب كلّه، فانتقموا لأنفسهم بصبّ نقمتهم على الربّ الذي كبّلوه تكبيلاً همجيًّا، وانهالوا عليه ضربًا، واقتادوه سريعًا إلى قصر هيرودس، بمواكبة جنودٍ رومانيّين، فيما كانت كلودا زوجة بيلاطس تراقب، من إحدى شرفات القصر، بحزنٍ هاصرٍ، هذا المشهد البربريّ.

## بيلاطس وزوجته

فيما كان اليهود يجرّون يسوع إلى قصر هيرودس، كانت زوجة الوالي، واسمها "كلودا بيروكلا" مستبحرةً في حديثٍ مستفيضٍ معه. كانت امرأةً جميلةً فارعة القامة، ولكنّها بدت، آنذاك شاحبةً، مضطربةً، تحت وطأة تأثّرٍ شديدٍ. وقد استحلفت زوجها بكلّ مقدّسٍ لديه ألاّ يمسّ بأذىً يسوع، النبيّ، قدّيس القدّيسين، وروت له الحلم

الرائع الذي رأته في تلك الليلة، حيث خطرت لها مشاهد من بشارة العذراء، وولادة يسوع العجيبة، وتكريم الرعاة وملوك المشرق له، ورأت مشاهد أُخرى من حياته العامّة الحافلة بالخير والإحسان، وبالتعاليم السامية، والأشفية المعجزة. في كلّ تلك الحالات كانت ترى يسوع متّشحًا بالنور، فيما ظهر أعداؤه في أشكالٍ مريعةٍ. رأت آلامه الرهيبة، وصبره وحبّه اللامحدودين، كما رأت قداسة أُمّه وآلامها. هذه المشاهد أدخلت إلى نفسها سيلاً من القلق والأسى. وقد ضاعفت اضطرابها مآسٍ مثل مجزرة الأطفال التي أمر بها هيرودس، ورأت تحقّق نبوءة سمعان الشيخ عند عتبة قصرها. ولكم هالها أن ترى، في ذلك الصباح، بطل تلك الرؤى البارّ، وقد اقتيد إلى محكمة زوجها، وقد أُوسع تنكيلاً وإهاناتٍ من كلّ لون! وكانت تتوسّل زوجها حماية ذلك البارّ من حَنَق أعدائه اليهود ومكرهم وخبثهم. ووعد بيلاطس زوجته بالاستجابة لملتمسها. ولا سيّما بعد أن تبيّن تطابق ما روته عن حلمها وما كان قد جرى أمامه. ووطّن العزم على عدم الإساءة إلى يسوع، والإحجام عن تلبية مطلب اليهود المسعورين، بعد أن تيقّن من مكرهم وكذبهم، وبعد مشاهدته صمت يسوع، وسماع أجوبته المحفوفة بالأسرار، وبعد أن تبيّن نزاهته من كلّ ما نسب إليه.

غير أنّ بيلاطس كان فاسدًا، متقلّبًا، معقّدًا، قارنًا الكبرياء بالحقارة، ولم يكن يتورّع عن أبشع المخازي إذا وجد في ارتكابها مصلحةً ذاتيّةً. وفي الآن عينه كان شديد التطيّر، ويلجأ، كلّما اصطدم بعقبةٍ، إلى أسخف الخرافات والخزعبلات. وكان إبليس يوسوس له بأمرٍ، ثمّ لا يلبث أن يوسوس له بأمرٍ مناقضٍ، فيقع في تشوّش الفكر، وفوضى الحكم. وكان تارةً، يعزم على تبرئة يسوع، الذي تيقّن من براءته، ثمّ لا يلبث أن تساوره مخاوف من انتقام آلهته الخاصّة، بسبب إفراجه عن منافسٍ لهم، ولا سيّما أنّ ملوكًا من المشرق كانوا قد قَدِموا وقدّموا له فرائض العبادة. وحينئذٍ كان يرى في إعدامه انتصارًا لآلهته؛ ولكن سرعان ما يذكر وعده لزوجته، فيذهب حكمه في منحًى آخر. وبالإجمال كانت تراوده رغبةٌ في الحكم بالعدل، ولكنّه لا يجرؤ ولا يقوى على ذلك.

وفي هذه الأثناء كانت حشود الجموع المتوافدة من كلّ أنحاء فلسطين لا تنفكّ تتراصّ أمام قصر هيرودس، والفرّيسيّون يطوفون بين صفوفهم ويحرّضونهم على المطالبة بإعدام نبيّ الناصرة.

## يسوع أمام هيرودس

كان هيرودس قد سمع الكثير عن يسوع ورغب في معرفته عن كثب. وكان ينتظره باهتمامٍ، متربّعًا على عرشه في قاعةٍ فسيحةٍ محاطًا بجلسائه المحالفين وجنوده. وكان ممتنًّا لمبادرة بيلاطس الذي أرسله إليه كي يحاكمه، معلّلاً نفسه باستجوابٍ مستفيضٍ، يُثبت ،من خلاله، مدى براعته وإطّلاعه على كلّ شيءٍ، متمنّيًا حملَ يسوع على صنع معجزةٍ يُدهش بها الحضور ويسلّيهم. ولكنّه لّما شهده ماثلاً أمامه، في حالةٍ مزريةٍ، تغشاه الجراح، متّسخ الثياب، مشعّث الشعر، اعتراه مزيجٌ من شفقةٍ ونفورٍ، وصاح في الحرس: "كيف تجرؤون على المجيء به إليّ، وهو على هذه القذارة المقزّزة؟ خذوه ونظّفوه ثمّ أعيدوه". وكانت تلك سانحةً جديدةً لأولئك الحرّاس الأنذال كي يمعنوا في تعذيب ابن الله، وبذريعة تنظيف جراحه كانوا يوغلون في إثارة أوجاعه. وفي هذه الأثناء، أنحى هيرودس على رؤساء الكهنة بأقسى عبارات اللوم والاستهزاء، آخذًا عليهم وحشيّتهم قائلاً: "واضحٌ أنّ هذا الرجل قد وقع بين أيدي جزّارين، وواضحٌ أنّكم باشرتم العمل في مسلخكم باكرًا جدًّا..."

ولّما عاد يسوع إلى القاعة تظاهر هيرودس بالتعاطف معه، فقدّم له كأس نبيذ لعلّه يستعيد بها شيئًا من قواه، ولكنّ المخلّص رفض مسّها. ثمّ أسهب هيرودس في سرد ما يعرفه عن يسوع، وطلب منه الردّ على اتّهامات اليهود له، فلم يُجِب بكلمة. وعاد يجهد في جرّه إلى الكلام، معلنًا: "لطالما حدّثوني عن حكمة تعاليمك، وبلاغة خطاباتك، وإنّي لراغبٌ في سماع ما تردّ به على متّهميك. أصحيحٌ أنّك ملك اليهود، ومن أنت حقًّا؟ يقال إنّك صنعت معجزاتٍ مدهشةً، فهل لك أن تتحفنا الآن ببعضٍ منها؟". وحيال اعتصام يسوع بصمتٍ مطبقٍ، استأنف هيرودس

محاولاته، قائلاً: "من صالحك أن تستجيب لطلبي! فلديّ سلطة تبرئتك وإطلاق سراحك. وهل أنت من أقام لعازر من القبر، ومن أشبع ببضعة أرغفةٍ آلاف الجياع، ووهب البصر لمن وُلدوا عميانًا؟ وهل أنت من وافى ملوك المشرق إلى والدي مستعينين به على رؤية ملك اليهود الوليد؟ هل كنت أنت ذلك الطفل، وكيف نجوت من الموت الذي أذاقه والدي للعديد من أطفال ذلك العهد؟ أرجوك، ثانيةً، أن تصنع معجزةً، أَمْ لعلّك فقدت قدراتك الخارقة. أنا لست أجد فيك أيّة علامةٍ ملكيّةٍ. ومع ذلك اقتادك الشعب إلى الهيكل، حديثًا، في موكبٍ ملكيٍّ، فلمَ هذا الانقلاب؟!"

على كلّ هذا السيل من الأسئلة لم يلقَ هيرودس أيّ جوابٍ من يسوع. واستغلّ رؤساء الكهنة موقف يسوع السلبيّ من هيرودس كي يمعنوا في إيغار صدره على الناصريّ، فذكّروه بأنّه وصفه بالثعلب، وسعى إلى الإطاحة بمكانة أُسرته، ناسين أنّ هيرودس كان ناقمًا عليهم، أيضًا، من جرّاء إدانتهم اقترانه بزوجة أخيه. ولذلك لم تكن لديه رغبةٌ في الاستجابة لمطلبهم، وإدانة يسوع، ولا سيّما أنّ بيلاطس نفسه قد أعلن براءته، ولم يشأ تسفيهه. وكان هيرودس، في دخيلة نفسه، يؤنس رهبةً أمام يسوع، وكان كابوس جريمته بحقّ المعمدان لا ينفكّ يطارده، فضلاً عن مقته لرؤساء الكهنة؛ فاكتفى بتحقير المخلّص، والتنفيس عن خيبة أمله، ونفاد صبره، فأمر حرّاسه: "خذوا هذا المجنون، وأدّوا لهذا الملك المضحك ما يستأهله من تكريم. إنّه ليس مجرمًا، بل هو فاقد العقل".

واقتيد يسوع إلى فناء القصر حيث أطلق الحرّاس والجنود العنان لما طفحت به نفوسهم من حقارةٍ ووحشيّةٍ، مستجيبين لإيعاز هيرودس، في حين كان ما زال حنّان وقيافا يبذلان الجهود الأخيرة، ويتوسّلان هيرودس أن يصدر أمر إعدام الناصريّ، ويُحسَم الأمر. ولكنّهم إزاء رفضه القاطع، أوفدوا أزلامهم إلى فرّيسيّي الجوار، من أجل استنفارهم للاحتشاد حول بيلاطس، والسخاء في توزيع الرُشى

على الرعاع، كي يجأروا عاليًا مطالبين بصلب يسوع. واندسّوا بين الجموع دائبين على إرهابهم نفسيًّا بإيهامهم أنّ غضب الله سيحلّ عليهم وعلى بنيهم وذريّتهم، ما لم يُقْضَ على ذلك المجدّف الملعون، ومصوّرين لهم أنّ الناصريّ، إن لم يُعْدَم، سيلجأ إلى التحالف مع الرومانيّين بغية إبادة اليهود، وإقامة المملكة التي طالما بشّر بها. وفضلاً عن ذلك كانوا يغدقون الأَموال على الجنود كي يمعنوا في تعذيبه لعلَّه يلفظ أنفاسه قبل وصوله إلى قصر بيلاطس.

وفي فناء قصر هيرودس، كان نحو مئتين من جنوده، يتنافسون على إثبات ولائهم لسيّدهم، وتلبية رغبته في إذلال يسوع، فراحوا يتبارون في ابتداع أساليب تنكيلٍ جديدةٍ، متنافسين في الخسّة والوحشيّة. فجاء أَحدهم بكيسٍ كبيرٍ أبيض، وأَحدث فيه ثغرةً، وألبسه ليسوع، وجاء آخر بخرقةٍ حمراء لفّها حول عنقه، وراحوا يسجدون له، وسط قهقهاتٍ مجلجلةٍ، ويدفعونه يمنةً ويسارًا، وينادونه بأقذع الأوصاف، ويلطمونه، ويبصقون عليه، عقابًا على إحجامه عن الردّ على أسئلة سيّدهم، ويلطّخونه بالوحل، ويحاولون إكراهه على الرقص، ويجرّونه فوق ساقيةٍ كانت تجري في حواشي القصر، ويصدمون رأسه بالعواميد والزوايا. وفي نشوة اندفاعهم المجنون كان يدفع بعضهم بعضًا، في صخبٍ مدوٍّ. وبدافع الرشوة التي تلقّوها من الفرّيسيّين أهوى أنفارٌ منهم بهراواتٍ قاتلةٍ على رأس المخلّص، الذي هوى ثلاث مرّاتٍ تحت الضربات، ومع ذلك كان يرمق ضاربيه بنظرة شفقةٍ. وإذ كانت قسوة الضربات تنتزع منه تأوّهاتٍ وتنهّداتٍ، كان أنذالٌ يقلّدونها، إيغالاً في الاستهزاء. وكانت كلّ إهانةٍ تلحق به تستثير قهقهاتهم الوقحة. كان الدم يضرّج رأسه وينساب على محيّاه. وتقول الرائية إنّها رأت ملائكةً، حينئذٍ، يحيطون به ويداوون جراحه، وأُوحي لها أنّه لولا سند الملائكة، لكانت ضربات الهراوات قد أودت بحياته...

وفي هذه الأثناء ما انفكّ الفرّيسيّون يبذلون مساعي يائسةً لانتزاع حكمٍ من هيرودس بإعدام يسوع، وحسم القضيّة، ولكنّ هيرودس كان أشدّ حرصًا على تمتين

علاقته المستجدّة مع بيلاطس من حرصه على إرضاء رؤساء الكهنة، وعندما أُسقط في يدهم، واصطدمت كلّ مساعيهم برفضٍ لا يتزعزع، لم يعُدْ لهم من وسيلةٍ سوى العودة إلى بيلاطس بيسوع في زيّ السخريّة الذي أضفاه عليه أزلام هيرودس.

## عودة إلى بيلاطس

زعماء اليهود، أعداء يسوع، عادوا به إلى بيلاطس وهم يتميّزون غيظًا وخزيًا، من جرّاء إخفاقهم في حسم قضيّة إعدامه، وما قابلهم به هيرودس من ازدراءٍ. فاتّأروا لأنفسهم باقتياد ضحيّتهم عبر طريقٍ مختلفٍ عن الذي جاؤوا به، أشدّ توعّرًا ووعثاءً، بُغيةَ الإيغال في إنهاكه، وعرض مهانته على أوسع جمهورٍ من الشامتين. وابتغوا، أيضًا، من وراء ذلك، إفساح مزيدٍ من الوقت لأزلامهم وأعوانهم من أجل حشد الرعاع وتعبئتهم على عدوّهم البريء. ولم يكفّوا، على امتداد الطريق، عن تحريض الجلاّدين على التمادي في إيساعه تنكيلاً وإهانةً.

وكان المخلّص يتعثّر بالكيس الطويل الذي ألبسه إيّاه رعاع هيرودس، فسقط مرَّةً إثر مرّةٍ، وفي كلّ مرّةٍ كانوا يُنهضونه برفسه وبضربات الهراوات على رأسه. وقد انصبّ عليه وابلٌ من الإهانات سواءٌ من الحرس أو من يهودٍ مسعورين أَفرغوا فيه رواسب عدائيّتهم. وطوال تلك المحن كان يسوع يسأل أباه أن يبقيه حيًّا حتّى يتمّم مهمّة الفداء كاملةً.

أمام قصر بيلاطس كان الحشد كثيفًا، والفرّيسيّون دائبين على الطواف بين صفوفه، موغرين صدورهم على ضحيّتهم. أمّا بيلاطس فكان قد تحصّن، تحسّبًا لكلّ انفلاتٍ شعبيٍّ محتملٍ، وشدّد الحراسة على محكمته، فيما كانت جماعةٌ من نحو عشرين شخصًا تضمّ العذراء، وأُختها الكبرى مريم، ونسيباتها والمجدليّة، ويوحنّا، يقفون جانبًا، في مرتفعٍ يتيح لهم مراقبة وسماع كلّ شيءٍ.

وكان أعداء يسوع قد حشدوا كلّ ما في أورشليم من حثالة المجتمع وشذّاذ الآفاق. وحرّضوهم على التقيّؤ بأقذر الشتائم على المخلّص. وفي هذه الأثناء كان

هيرودس قد أوفد إلى بيلاطس رسولاً يشكر له مبادرته، ويبلّغه أنّه، هو أيضًا، لم يجد في يسوع مجرمًا، بل مأفونًا لا غير. ومنذ ذلك اليوم عقد الرجلان ألوية المصالحة، ناسيَين أو متناسيَين خلافاتهما.

أصعد الحرس المخلّص على السلّم المؤدّي إلى محكمة بيلاطس بوحشيّتهم المعهودة، وهنا أيضًا، تعثّر الربّ بالكيس الطويل الذي ألبسوه إيّاه، استهزاءً به، فوقع، وأثارت كبوته ضحك الجمهور الصاخب، وسارع الحرّاس إلى إنهاضه بسيلٍ من الرفسات.

وتقدّم بيلاطس حتّى واجهة شرفة قصره، وخاطب المدّعين قائلاً: "سلّمتموني هذا الرجل على أنّه مثير فتنةٍ شعبيّةٍ. وقد استنطقته أمامكم، فلم أجد فيه ما تتّهمونه به. وهيرودس، أيضًا، لم يجده مجرمًا في شيءٍ... ولذلك سأكتفي بجلده وإطلاق سراحه". فتفجّرت صيحات الاعتراض والاستنكار، من قبل من نالوا رشوة الفرّيسيّين. ولكنّ بيلاطس قابلها بازدراءٍ، وردّ على مطلقيها ردًّا قاسيًا، متسائلاً: "ألم يكفكم، اليوم، ما سفكتموه من دماء ضحيّتكم البريئة؟".

وخُيّل إلى بيلاطس أنّ تقليد العفو عن مجرمٍ مدانٍ، بمناسبة الفصح قد يوفّر له مخرجًا من ورطته. فسأل الجموع عمّن يختارون الإفراج عنه بين يسوع الذي وصفه بملك اليهود، ومجرمٍ عتيٍّ يُدعى باراباس، يمقته الشعب من جرّاء ما ارتكبه من جرائم مريعة. وكان بيلاطس، في قرارة نفسه يظنّ أنّ الشعب، منطقيًّا، سيميل إلى اختيار الإفراج عن يسوع الذي أغدق عليهم الأشفية والإحسانات. غير أنّ عاملَيْن تضافرا على تخييب ظنّه: فمن جانبٍ الأموال التي اشترى بها الفرّيسيّون ذمم الناس وإرادتهم، والضغوط التي مارسها الكهنة ورؤساءهم عليهم، ومن الجانب الآخر، الخطأ الذي ارتكبه بيلاطس، عن لاوعيٍ، عندما وصف يسوع بملك اليهود، وهو في حال منكرةٍ من المهانة والإذلال، فأيقظ جذوةً من كرامة اليهود الزائفة التي تأبى ملكًا من هذا النمط.

وفيما كان بيلاطس ينتظر قرار الشعب، أوفدت إليه زوجته خادمًا يذكّره بالوعد الذي قطعه لها، متعهّدًا بتجنّب إدانة يسوع. وفي الآن عينه ما انفكّ رؤساء الكهنة يضاعفون ضغوطهم، بشتّى الأساليب، لحمل الجموع على ترجيح كفّة المجرم باراباس. ومع أنّه، في وهلةٍ أولى، لم ترتفع سوى أصواتٍ قليلةٍ مطالبةٍ بالعفو عن المجرم، إلاّ أنّ هذه المطالبة ما لبثت أن أضحت طاغيةً، شاملةً. ووقع بيلاطس في الفخّ الذي نصبه بنفسه، وحار بين واجب العدالة والوعد الذي قطعه لزوجته، وتعنّت اليهود المخالف لكلّ منطقٍ سليمٍ، فسألهم ثانيةً: "ماذا عليّ أن أفعل، إذن، بيسوع المدعوّ المسيح، ملك اليهود؟" وجاء الجواب كالرعد: "فليُصلب!". ولكنّ بيلاطس اعترض: "بأيّ جرمٍ آمر بصلبه؟ أنا لا أجد عليه حجّةً تبرّر إعدامه. ولذلك سآمر بجلده ثمّ أدعه يمضي في سبيله". فتعالت صيحاتٌ جهنّميّةٌ مردّدةً: "اصلبه، اصلبه!". وبلغ هياج رؤساء الكهنة وأزلامهم ذروته. فاستسلم جبن بيلاطس لطغيان الكراهيّة والجور، وأطلق سراح باراباس، وأمر بجلد يسوع، وفقًا للعرف الرومانيّ المسرف في الوحشيّة، آملاً به تليين قلوب الشعب المتحجّرة. واقتاد الجند الضحيّة بعنفٍ إلى الساحة العامّة حيث يوجد عمود الجَلْد، وسط لجج الجموع المسعورة. وجيء بستّة جلاّدين، سمر البشرة، مجعّدي الشعر، كان قد جيء بهم من الحدود المصريّة، ودُرّبوا على الجلد الوحشيّ، ففقدوا كلّ شعورٍ إنسانيٍّ، وباتوا كالأبالسة.

وكانت العذراء وأُختها ونسيباتها ومرافقاتها ويوحنّا يشهدون ويسمعون ما يجري مرتعدين، ومنتحبين. لم تكن العذراء تجهل أنّ آلام ابنها وصلبه هي الوسيلة الوحيدة لخلاص الورى، ولكنّها ما زالت أُمًّا، وتتمنّى، بكلّ جوارحها، ألاّ يصاب ابنها بأذًى. ومثلما تجسّد الربّ طوعًا وارتضى الآلام والمهانة والموت على الصليب، وقاسى كلّ أَهوال البريء المعذّب ظلمًا، كذلك قاست أُمّه كلّ ما يمكن أن تكابده أُمّ رجلٍ قدّيسٍ وقع بين براثن شعبٍ جاحدٍ هائجٍ. أَمّا النساء القدّيسات فكنّ ما زلنَ، يأملن نجاة البريء.

وكان يوحنّا يبعد عنهنّ، بين فينةٍ وأُخرى، لعلّه يلتقط نبأً سارًّا، ولا سيّما أنّه لمس لدى بيلاطس رغبةً في تبرئة يسوع. وعلى مقربةٍ من أقرباء يسوع، كان يقف معارف له من كفرناحوم، كانوا قد نعموا بآلائه وصنائعه وأشفيته، ولكنّهم تظاهروا بجهله وجهل ذويه.

وفيما كان الجلاّدون يدفعون ضحيّتهم بعنفٍ همجيٍّ، ويعرّونه تعريةً كاملةً، وهو يرتجف بكلّ فرائصه ألمًا، ويصلّي من أجل جلاّديه، حانت منه التفاتةٌ إلى أُمّه، فأُغمي عليها، وهوت بين أَذرع مرافقاتها.

ومع أنّ يسوع لم يُبدِ أَيّة مقاومةٍ، إلاّ أنّ الجلاّدين ما انفكّوا يدفعونه بعنفٍ وحشيٍّ، ثمّ قيّدوه إلى حلقةٍ حديديّةٍ مثبتةٍ في أعلى عمود الجلد، وهم يمطرونه بالشتائم، وكانت قدماه، المقيّدتان أيضًا، تكادان لا تلامسان الأرض. وانهال عليه اثنان من الجلاّدين بسياطهما، وكأنّهما ثملان يتلظّيان قَرَمًا إلى الدماء. وكانت أدوات الجلد تبدو، حينًا، من خيزرانٍ أبيض، وتارةً أُخرى من جلد بقرٍ جافٍّ قاسٍ. وكانت الضربات الوحشيّة تنهمر على المخلّص من رأسه حتّى قدميه.

وكان ابن الله يتلوّى تلوّي دودةٍ تحت الجلدات البربريّة، وتأوّهاته وتنهّداته الرقيقة تتصاعد مثل صلاةٍ خاشعةٍ ومؤثّرةٍ، وجيعةٍ ودافقةٍ رحمةً، وسط أزيز السياط المتلاحق. ولا تلبث أن تطغى عليها هتافات الفرّيسيّين والجموع المرتشية، الداعية إلى صلب البريء وإماتته.

وكان بيلاطس عاكفًا على مفاوضة اليهود لعلّهم يتحوّلون عن قرارهم الكيديّ، ولكنّه لا يلقى من جوابٍ سوى هتاف: "اصلبه، اصلبه"، وكانت تتعالى أصداء ضربات الجلاّدين وصيحاتٍ أزلام رؤساء الكهنة المتدفّقة حقدًا وغلاًّ، في حين تمتزج صلوات يسوع بثغاء حملان الفصح التي كانت تساق إلى الهيكل.

وكان شبّانٌ يروحون ويجيئون ويقدّمون للجلاّدين خيزراناتٍ جديدةً، وآخرون يأتونهم بأشواكٍ، وجنودٌ يأتونهم بمبالغ مالٍ كي يسعّروا شراستهم، وبجرار خمرةٍ رخيصةٍ تزيدهم سكرًا، وتطيح بما تبقّى لديهم من وعيٍ. وبعد انقضاء ربع ساعةٍ

استُبدل الجلاّدان بآخريْن، وكان جسد المخلّص قد أمسى مغطّى بآثار الكدمات والجراح السوداء، والزرقاء والحمراء، وكانت دماؤه تنثال بغزارةٍ، والشتائم تنهمر عليه من كلّ صوبٍ.

اتّسمت تلك الليلة ببردٍ شديدٍ، وبجوٍّ مكفهرٍّ، وبتساقط برَدٍ أدهش الجميع.

وانهال الجلاّدان الجديدان على الضحيّة الإلهيّة، بهمّةٍ بكرٍ، وبوحشيّةٍ متمرّسةٍ، وبغيظٍ مستعرٍ، مستخدمين ضربًا من الأغصان الشائكة، مزّقا بها جسد يسوع، الذي تفجّرت منه الدماء، وطفرت طفرًا، حتّى لطّخت أيدي الجلاّدين. وقد هال منظر ما كان يحدث الغرباء العابرين، ولا سيّما الذين منهم كانوا قد تعمّدوا على يد المعمدان، والذين استمعوا إلى بعض مواعظ يسوع.

ثمّ تولّى الجلدَ رجلان آخران يفوقان سابقيهما شراسةً، استخدما سيورًا جلديّةً مزوّدةً، في أطرافها، بكلاّباتٍ حديديّةٍ معقوفةٍ، كانت تنغرس، مع كلّ ضربةٍ، في جسد الضحيّة، وتنتزع منه نُتَف لحمٍ. ولكنّ هذه الوحشيّة لم تكن كافيةً لإرواء قَرَم الجلاّدين إلى الدماء، فغيّرا وضع المخلّص، وقيّدا ظهره الممزّق بالعمود، معرّضين صدره ووجهه للضرب، ولكي لا يهوي أرضًا، ربطا جذعه بحبالٍ طوّقا بها أيضًا ذراعيه وركبتيه، وأوثقا يديْه بالعمود. كان كلّ جسده، الذي انتشرت عليه الجراح، ولطّخته الدماء، يختلج. ومع ذلك انهال عليه الجلاّدان انهيال كلابٍ مسعورةٍ، فيما كان هو يرنو إليهما بعينين وديعتين كادت الدماء تطمسهما. ولكنّ تلك النظرات لم تجد سبيلاً إلى مكامن الرحمة في نفسيهما، وكان رؤساء الكهنة لا ينفكّون يزوّدون الجلاّدين بمشروبٍ أحمر مسكرٍ، يطيح بما قد يكون تبقّى في نفوسهما من إنسانيّةٍ، وفي عقليهما من رشدٍ.

كانت قد انقضت ثلاثة أرباع الساعة على بدء تلك المجزرة، عندما انقضّ رجلٌ غريبٌ قريبٌ لأعمى كان يسوع قد وهبه نعمة البصر، وبيده ما يشبه منجلاً، أَعمل به على الحبال تقطيعًا وهو يصيح غاضبًا: "كفاكم تنكيلاً بهذا البريء، فقد أَشرف على الموت". وتوقّف الجلاّدان عن مهمّتهما الهمجيّة، وأكمل الغريب

تقطيع الحبال، وحينئذٍ، هوى يسوع أَرضًا، فوق بركة دمائه، حيث تركه الجلاّدان، وانصرفا إلى تجرّع المزيد من الشراب المسكر. واتّفق أن مرَّت بالمكان حينذاك فتياتٌ ماجناتٌ وقحاتٌ، فدنيْنَ من الربّ الملقيّ الغارق في دمائه، ورمقنَه بنظرات اشمئزازٍ ضاعفت آلامه، ولكنّه رنا إليهنّ بنظرة شفقةٍ، فيما كان الجند يقهقهون، ويغازلون الفتيات غزَلاً بذيئًا.

وتقول الرائية: "أثناء الجلد، رأيت مرّاتٍ عديدةً، ملائكةً يحيقون بيسوع باكين، وسمعتُه يصلّي من أجل غفران خطايانا، مخاطبًا أباه وسط وابل الضربات النازلة به. وفيما كان ملقيًّا أرضًا، غائصًا في دمه، رأيتُ ملاكًا يناوله شيئًا مضيئًا، رمّم قواه".

عاد إليه الجنود وأوسعوه رفسًا بأقدامهم، وأمروه بالنهوض لأنّ عقابه لم ينتهِ بعدُ. وحاول الربّ التقاط مئزره، كي يستر به عريه المدمّى، ولكنّ أولئك المجرمين دفعوه بأرجلهم من كلّ صوبٍ، فاضطرّ إلى الزحف بمشقّة، مثل دودةٍ مداسةٍ. ثمّ أنهضوه على ساقيه المتهالكتين، ولم يتيحا له ارتداء مئزره، بل ألقوا به فوق كتفيه العاريتين، فمسح به الدماء المنثالة على محيّاه. واقتادوه على عجلٍ إلى مركز الحراسة مارّين بمكانٍ كان رؤساء الكهنة والفرّيسيّون قد التأموا فيه، ولكنّ هؤلاء أشاحوا بأنظارهم عنه تقزّزًا وازدراءً، وأَلحّوا في المطالبة بإزالته عن وجه الأرض. واقتاده الجند إلى فناء القصر المزدحم بالحرس والعبيد والأنذال المرتشين، والفضوليّين. وكان بيلاطس، تحسّبًا لهياجٍ شعبيٍّ، وفرضًا للنظام، قد أحاط نفسه بنحو ألف جنديّ.

أثناء فترة الجلد كلّها، كانت العذراء في انخطافٍ، ترى آلامه، وتشاركه إيّاها، وعيناها مضرّجتان بالدم، ومن شفتيها تُفلت، بين فينةٍ وأُخرى، تأوّهاتٌ خافتةٌ. كانت ثاويةً بين ذراعي أُختها الكبرى "مريم هيلي" وابنة أُختها مريم ابنة كليوباس، فيما النساء القدّيسات وصديقات الأُسرة ونسيباتها، متراصّاتٌ، مرتجفاتٌ ألمًا وجزعًا، ولكأنّهنّ محكومٌ عليهنّ، أيضًا، بالإعدام، والذهول آخذٌ بالمجدليّة كلّ مأخذٍ. أمّا زوجة بيلاطس، كلودا بروكلا، فقد أرسلت إلى أُمّ المخلّص رزمةً كبيرةً

من الأنسجة، كي تُستخدم في تضميد جراح المخلّص، في حال الإفراج عنه، الذي كانت ما تزال تتوقّعه.

انتهت عمليّة الجلد في نحو الساعة التاسعة، ومرّ الجنود بيسوع، أمام أُمّه. فأفاقت من انخطافها، ورأته بين أيدي جلاّديه ممزّق الجسد، خائر القوى، ولكنّه مسح عن عينيه الدماء الجافّة كي يرنو إليها، فمدّت ذراعيها نحوه، وواكبت بأنظارها آثار خطواته الدامية على الأرض.

وما إن انصرف الشعب عن موقع الجلد، حتّى اندفعت إليه المجدليّة وبعضٌ من النسوة القدّيسات، وعكفنَ على مسح دمائه بالأقمشة التي أرسلتها "كلودا بروكلا".
وجديرٌ بالتنويه أنّ الأُخت الرائية "أنّا كاتارينا" ظلّت ترى مشاهد الآلام هذه منذ ٨ شباط حتّى ٨ آذار عشيّة أُسبوع الصوم الرابع. وسحابة هذه الفترة عانت من الآلام الجسديّة والنفسيّة أضراها، وهي غائبةٌ عن كلّ ما يجري من حولها وفي الخارج. وكانت، بلا انقطاعٍ، تنتحب، وتتأوّه، وترتجف، وتتلوّى فوق مضجعها، ومن رأسها وجبينها ينثال عرقٌ ممزوجٌ بدمٍ، غاسلاً وجنتيْها وعنقها، ومبلّلاً ثيابها وسريرها. وكانت تتلظّى ظمأً، وقد جفّ فمها، وتقلّص لسانها، وغدت تستعين بإيماءاتٍ وبألفاظٍ مبهمةٍ للتعبير عمّا كانت ترغب في قوله. وقد اقتضى منها سرد رؤاها جهدًا مضنيًا، ووقتًا متماديًا، فجاء متقطّعًا، مقسّطًا، لاهثًا، ولازمتها، طيلة هذه الفترة، حمّى حارقة.

ولكنّها ظلّت ترى العذراء، مع آلامها المضنية، ساجيةً، وقورًا، حسنة الهندام، وكلّ ثنيةٍ من ثنايا ثيابها النظيفة المبلّلة بالدموع تنضح قداسةً، وكلّ شيءٍ فيها يتنفّس بساطةً، وجلالاً، وطهرًا، وبراءةً.

وعلى نقيضها كانت المجدليّة التي ذهب الحزن برشدها وجمالها. ومع أنّها أرفع قامةً وأَمتن بنيةً، وأكثر بروزًا في شخصها وسلوكها من العذراء، فقد دمّرت التوبة والآلام جمالها، فأصبحت مريعة المنظر، وشوّهها عنف الخيبة والقنوط. وانتشرت

على ثيابها آثار البلل والأوحال، فاتّسخت، وتناثر شعرها المبلّل المشعّث تناثرًا فوضويًّا مريعًا. لم يكن يشغلها سوى ألمها، وبدت عليها مناظر الجنون والشرود، واتّفق أن شاهدها، على هذه الحال، أفرادٌ من مدينة مجدلا مطّلعون على ماضيها الماجن، الباذخ، المترف، فانهالوا عليها بوابل الشتائم والشماتة، وقذفوها بالأقذار، ولكنّها لم تلوِ على شيءٍ من هذه الإهانات، لأنّ الألم كان آخذًا بكلّ كيانها، وطاغيًا على كلّ مشاعرها.

## إكليل الشوك

عبثًا حاول بيلاطس مقاومة مطالب اليهود، وفي إحدى النوبات ردّ على مطلبهم الملحّ بإعدام يسوع: "سيتحتّم إعدامه، عندما ستتبيّنون أنّنا نستحقّ جميعنا الإعدام". ولكنّ رؤساء الكهنة والفرّيسيّين أجابوا حانقين: "لا بدّ من إزالته عن وجه الأرض حتّى إن أدّى ذلك إلى زوالنا جميعًا". ولم ينفكّوا يدفعون إليه أرتال الرعاع، رتلاً إثر رتلٍ، وهم يصيحون: "أعدمه، أعدمه!". ولّما ضاق بيلاطس ذرعًا اختلى كي يستوضح مشورة أصنامه، ويقدّم لها البخور.

وفي هذه الأثناء، كان الجلاّدون دائبين على استنباط وسائل تعذيبٍ ومهانةٍ جديدةٍ جهنّميّةٍ، فأعدّوا إكليلاً من شوكٍ، صفيقًا كثيفًا، مكوّنًا من ثلاثة أنواعٍ من النباتات الشائكة المضفورة بعنايةٍ، وقد وُجّهتْ أَشواكها نحو الداخل. ثمّ أَجلسوا المخلّص، عنوةً، على مقعدٍ واطئٍ بسطوا فوقه حجارةً صغيرةً مسنّنةً، وقطعًا من خزف مكسَّر، ونزعوا ثوبه عن جسده الذي حرثته السياط، واستبدلوه بمعطفٍ أحمر قصيرٍ لا يتجاوز ركبتيه، ولا يستر عريه، كانوا يُلبسونه للمجرمين بعد جلدهم استهزاءً بهم. ودسّوا بين يديه عصًا غليظةً، وأنزلوا إكليل الشوك في رأسه، متصنّعين الجدّ والتجلّة وكأنّهم يكلّلون ملكًا، إمعانًا في الاستهزاء؛ ثمّ تناولوا العصا من يديه وانهالوا بها على إكليل الشوك، كي يغرسوا الشوك عميقًا في رأسه، فتساكب الدم وغطّى عينيه. ثمّ راحوا يركعون أمامه، ويصفعونه، ويبصقون في

وجهه، قائلين: "سلامٌ يا ملك اليهود!"، ويتناوبون على إلقائه أرضًا، وإعادة إجلاسه بعنفٍ، مقهقهين.

وألهبت الجراح التي أثخنت جسد المخلّص حمّى حارقة، وظمأ مريرًا، فالتصق لسانه بحنكه، وأشاعت في كلّ فرائصه رعدةً متواصلةً. وكانت بعض جراحه من العمق بحيث أسفرت عن عظامه، ومع ذلك كان الجنود والحرّاس المتحلّقون من حوله يقهقهون ساخرين، بقحةٍ دنيئةٍ.

## هذا هو الرجل

أُعيد يسوع، ثانيةً، إلى بيلاطس، مشوَّهًا يتعذّر تعرّفه، مقيّد اليدين حيث دُسَّت عصا تمثّل صولجان الملك، استهزاءً به، ومتدثّرًا المعطف الأحمر القصير. كان يسير مطويًّا على نفسه كي يستر عريه، متهالكًا إعياءً ووجعًا. كان جسده قد تحوّل جرحًا كبيرًا، بتأثير الجلد الوحشيّ، والدم لايني ينثال من كلّ أعضائه، ويتدفّق، خاصّةً، من جبينه ورأسه، حيث غُرِست أصلب الأشواك، ويصبغ باللون القاني شعره، ولحيته، ووجنتيه، وكلّ جسده.

ولّما شاهده بيلاطس على هذه الحال، أَخذ به الهول، مع ما عُهِد عنه من قسوةٍ، وكاد يهوي أرضًا لو لم يتداركه أحد ضبّاطه، ويسانده، وصاح في وجه اليهود: "إذا كان شيطانكم في مثل فظاظتكم، لما استسغت الإقامة معه، حتّى في جهنّم". وصعد المخلّص متثاقلاً، متهافتًا، إلى المنصّة، بحيث تراه الجموع المتراصّة، ودنا منه بيلاطس، وخاطب رؤساء الكهنة وزعماء اليهود: "ها قد جئت به أمامكم، مرَّةً أُخرى، كي تعلموا أنّني لا أجد فيه جرمًا من أيّ نوعٍ".

للوهلة الأولى أثار منظر المخلّص موجة هولٍ وشفقةٍ، تلاها صمتٌ كئيبٌ، ولا سيّما أنّ يسوع، مع كلّ ما سيم به من تنكيلٍ ومهانةٍ، لم تكن عيناه المطرقتان الشاخصتان إلى الجموع، والتي غطّتهما الدماء، تبوحان إلاّ بالحبّ والرحمة. وكانت الحملان التي تُغسَل على مقربةٍ، استعدادًا للفصح، تواسيه بثغائها الرقيق

الحزين، شاهدةً على البراءة والحقيقة اللاطيتين في صمته الوقور. وحينئذٍ اقترب منه بيلاطس، وأشار إليه بسبّابته، وقال لليهود: "هوذا الرجل!".

وكان الغيظ والحنق يعصفان بالكهنة وأعضاء السنهدرين، حيال مشهد يسوع الذي كان منظر ما انتهى إليه يعكس لهم صورة ضمائرهم الفاسدة والمجرمة. ومع ذلك ما انفكّوا يجأرون: "اصلبه، اصلبه!" وردّ بيلاطس عليهم قائلاً: "أما كفاكم؟ لقد أُذيق من المهانة ما بدّد كلّ رغبةٍ لديه في الملك!". ولكنّ زعماء اليهود والرعاع الذين استنفروهم ورشوهم ما انفكّوا يصيحون: "فليُزَلْ عن وجه الأرض، وليُصلب!". وحينئذٍ، أعلن بيلاطس: "خذوه أنتم، إذن، واصلبوه، فأنا لا أجد فيه علّةً تستوجب إعدامه"، وردّ عليه اليهود: "إنّ لنا شريعةً تقضي بإعدامه، لأنّه ادّعى أنّه ابن الله". فأجابهم بيلاطس: "إن كانت شريعتكم تقضي بإعدام هذا الرجل، فلا يشرّفني أن أكون يهوديًّا".

غير أنّ قولهم أنّ يسوع أعلن نفسه ابنًا للّه، أيقظ في نفس الوالي نزعته التطيّريّة، وسرّب إلى صدره الخوف، وأخذته الخشية من أن يكون يسوع، حقًّا، إلهًا كفيلاً بالانتقام منه، فانتحى به وسأله: "من أين أنت؟". ولكنّ يسوع لم يُدْلِ بأيّ جوابٍ، فحذّره بيلاطس: "ألا تجيب؟ أفَتجهل أنّي أملك سلطة صلبك، وسلطة إطلاق سراحك؟". حينئذٍ أجابه يسوع: "ما كنتَ لتمتلك أيّة سلطةٍ عليّ، ما لم تُعطَها من فوق. ولذلك فالذي أسلمني إليك هو الذي اقترف الخطيئة الكبرى".

تردُّدُ بيلاطس، وتأرجحُ أحكامه أقلقا زوجته كلودا، فأوفدت إليه من يذكّره بوعوده، ولكنّه أعاد رسول زوجته بجوابٍ مبهمٍ يعني أنّه ملتزمٌ بما ستلهمه آلهته. وتسرّب نبأ مداخلة "كلودا" إلى علم اليهود فهبّوا، يوهمون الجموع أنّ أنصار يسوع قد أغووا زوجة الوالي، وأنّ من شأن إطلاق الناصريّ، عقد اتّفاقٍ بينهم وبين الرومان على إبادة اليهود قاطبةً.

في هذه الأثناء كان بيلاطس شارد الذهن، حائرًا، متنازَعًا بين آراء متضاربةٍ،

عاجزًا عن الرسوّ على قرارٍ ثابتٍ. كان ممزّقًا بين إصرار اليهود على صلب يسوع، وتحذيرات زوجته من الاستسلام لمطلبهم، وخوفه من أن يكون يسوع، حقًّا، إلهًا قادرًا على الانتقام منه. فعاد إليه، آملاً الوقوف على يقين حقيقة هويّته. وحدّق في ذلك الوجه المدمّى المغلّف بالأسرار، وتساءل في قرارة نفسه: "أيُعقل أن يكون هذا البائس إلهًا؟" واستحلفه بالإفصاح عن حقيقته، وهل هو إلهٌ أو إنسانٌ، وهل هو الملك الموعود، وما هو حجم مملكته، وما هو موقعه بين الآلهة. وأجابه المخلّص، بوقارٍ ومهابةٍ، فأوضح له طبيعة مملكته، وأماط النقاب عن وضع بيلاطس النفسيّ، وعن المخازي التي ارتكبها في حياته، وتبعات جبنه في التزام العدالة، وعن مستقبل النفي والتخلّي الذي سينتهي إليه، وعن الحكم العادل والرهيب الذي يُعرّض له ذاته.

أقوال يسوع هذه أنزلت في نفس بيلاطس مزيجًا من رهبةٍ وامتعاضٍ، فعاد وأعلن لزعماء اليهود عن عزمه إطلاق سراح سجينه، وحينئذٍ أطلق اليهود التهديد الذي احتفظوا به ملاذًا أخيرًا: "إن أطلقته تكون قد أعلنتَ عداءَك لقيصر، فكلّ مدّعٍ للملك هو عدوٌّ مؤكّدٌ لقيصر". وأمعنوا في مطالبتهم بحسم الأمر في الحال، لأنّ ساعاتٍ معدوداتٍ كانت ما زالت تفصلهم عن البدء بطقوس الفصح. ومثل رعدٍ تعالت، مجدّدًا، صيحاتٌ مدوّيةٌ، صاخبةٌ، مريعةٌ. انطلقت من كلّ صوبٍ، وحتّى من أسطحة المنازل التي غصّت بيهودٍ مرتشين، أخذ بهم الهياج كلّ مأخذٍ، وراحوا يجأرون مطالبين بصلب الناصريّ.

وخشي بيلاطس من انفجار ثورةٍ شعبيّةٍ تودي به وبوظيفته، فجلس، وأمر أحد خدّامه بسكب الماء على يديه، ثمّ أعلن: "إنّي بريءٌ من دم هذا الصدّيق. فافعلوا به ما ترون". ودوّى، ردًّا على قوله، هتاف اليهود: "فليكن دمه علينا وعلى أبنائنا!".

ولتخطّت استجابة الله لهذا الدعاء، في هولها، كلّ تخيّلٍ، لولا أنّ يسوع وأُمّه كانا يلتمسان الرحمة للجلاّدين، ولليهود الذين عصفت بهم هيستيريا الحقد والجنون.

## الحكم على يسوع بالصلب

لم تكن معرفة الحقيقة من أولويّات بيلاطس، بل كان أقصى ما يتطلّع إليه العثور على مخرجٍ من ورطته، وعلى وسيلةٍ يتملّص بها من مسؤوليّاته، ويقي مركزه. كان يتخبّط في بُحرانٍ من الحيرة: فضميره يؤكّد له براءة يسوع، وزوجته تؤكّد قداسته، وتطيّره يوحي له أنّ الناصريّ عدوٌّ لآلهته، وجبنه يوسوس له أنّه إلهٌ، قد ينتقم منه. لقد عجز عن النفاذ إلى هويّة المدّعى عليه الماثل بين يديه، الذي، مع غرقه في لجج آلامه ومهانته، تمكّن من التسلّل إلى مكامن أسراره الدفينة، ومع أنّه لم يتفوّه بكلمةٍ، دفاعًا عن نفسه، لم يخشَ من تذكيره بمخازي ماضيه، ومن إنبائه ببؤس مآله، وتعاسة مستقبله، ومن التنديد بجبنه في ممارسة العدالة. لقد شقّ على بيلاطس أن يحطّم كبرياءه، ذاك الذي أوسعه جلدًا، والذي يملك، هو، سلطة الحكم عليه بالصلب. أقوال يسوع سرّبت الجزع إلى ذهن الحاكم الزئبقيّ، العاجز عن الرسوّ على قرارٍ واحدٍ ثابتٍ. كان قد جهد في إعتاقه من براثن أعدائه، غير أنّ تهديد أولئك الأعداء بشكايته إلى القيصر غلّبت خوفه من سلطةٍ أرضيّةٍ على خوفه من ملك السماء والأرض. وآثر فقدان نفسه وكرامته على فقدان مركزه، وتوهّم أنّ موت البريء، سيدفن معه كلّ ما كان يعرفه عنه، وكلّ ما تنبّأ به حول مآله التعيس، وأفضى به كلّ ذلك إلى تسليم دم المخلّص إلى اليهود، وزعم غسل ضميره بقليلٍ من الماء يُصَبّ على يديه. وغرب عن باله أن لا قِبَل للماء على غسل جريمةٍ نكراء راسيةٍ على ضميرٍ ملطّخٍ بدم القداسة.

أمر بيلاطس، إذن، بإعداد إجراءات النطق بالحكم، فارتدى ملابسه الاحتفاليّة، واعتمر تاجًا تتلألأ فيه جواهر وأحجارٌ كريمةٌ، وتدثّر بمعطفٍ رسميٍّ، وانطلق في موكبٍ ضمّ أعضاء محكمته، وكتبةً يحملون اللفائف، وعلى وقع بوقٍ يعلن مجيئه، قصد قصره حيث كان قوسٌ مرتفعٌ تعلن من فوقه الأحكام، يشبه شرفةً مستديرةً يُصار إليها بأدراجٍ من جهاتٍ مختلفةٍ. وجيء بيسوع وهو ما برح مقيّد اليدين،

متدثّرًا بمعطف الهزء الأحمر، متوّجًا بإكليل الشوك، وسط هتافات الشعب المعادية، وأُوقف بين لصّين، وحينئذٍ خاطب بيلاطس الشعب:

_ "هوذا ملككم"

_ "أزله عن الأرض، اصلبه!"

_ "أأصلب ملككم؟"

وحينئذٍ أجاب الأحبار ورؤساء الكهنة:

_ "لا مَلِك لنا سوى قيصر".

كان حكم الصلب قد صدر آنفًا بحقّ اللصّين، ولكنّ زعماء اليهود كانوا قد طالبوا بإرجاء تنفيذه كي يُشركوا عدوّهم يسوع بنفس المهانة والعقاب عينه.

وكانت العذراء قد نأت عن الساحة عقب جلد ابنها. ولكنّها هرعت مجدّدًا مع مرافقاتها، لسماع الحكم، الذي استخدم بيلاطس، في تلاوته لهجة غضبٍ جبانٍ، مسفرًا عن كلّ ما انطوت عليه نفسه من حقارةٍ وازدواجيّةٍ.

ولكم كان مرهقًا ذلك المشهد الذي أظهر، جنبًا إلى جنبٍ، الوالي الحقير المنتفخ وهمًا بعظمة شأنه، والفرّيسيّين والأحبار القرمين إلى دماء الأبرياء، والمنتفخين تباهيًا بالنصر، ورثاثة حال المخلّص وآلامه، والقلق والجزع المستحوذين على العذراء والنسوة القدّيسات، ولهفة اليهود للإيقاع بفريستهم، وقحة الجنود، فضلاً عن جوقات الشياطين المريعين الذي كانت الرائية تراهم يجوسون بين الجموع!

وقد حفل خطاب بيلاطس بأدلّةٍ فاضحةٍ على ريائه وازدواجيّته، فقد استفاض في إغداق الألقاب الفخمة على القيصر، والإطناب بعظمته، ثمّ نوّه بشكوى اليهود ممّن دعا نفسه ابن الله وملك اليهود، وامتهن الشريعة، وأثار الشغب، والذي طالب إجماع الشعب بصلبه. وأقرّ بيلاطس أنّه وجد هذا العقاب متوافقًا مع أصول العدالة – مع أنّه لم يكفّ لحظةً عن تأكيد قناعته ببراءة يسوع – وخلص إلى إعلان: "إنّي أحكم بصلب يسوع الناصريّ، ملك اليهود". وأمر الجند أن يأتوا بصليبه.

لدى سماع أُمّ الفادي هذا الحكم، هوت مغميًّا عليها، وكأنّها فقدت الروح. وسارع يوحنّا والنسوة المرافقات لها إلى إبعادها خوفًا من أن تصعّد وقاحة الجموع ووحشيّتها فداحة الجريمة، وتُجرِّع أُمّ الضحيّة مزيدًا من كؤوس السمّ والمرارة. وما إن أفاقت العذراء من صدمتها حتّى أعربت عن رغبتها في اقتفاء خطى آلام ابنها، وتعقُّب كلّ المطارح التي شهدت عذاباته وإهاناته، مشاركةً آلامه الفدائيّة، روحيًّا وصوفيًّا، مجتازةً، مرّةً أُخرى، كلّ درب آلامه، الذي روته بدموعها، وقدّسته إلى الأبد، مكرّسةً أمومتها لجميع المخلَّصين بدم ابنها، حتّى نهاية الدهور.

ودوّن بيلاطس نصّ قراره على رقعةٍ نسَخَها معاونوه نسَخًا عديدةً، وأرسلوها في اتّجاهاتٍ شتّى، وكان نصّ هذا القرار مناقضًا لذلك الذي قرأه على مسامع اليهود، جاء فيه: "تحت ضغوط رؤساء الكهنة والسنهدرين، والشعب المعبّأ المتحفّز للثورة، ومطالبتهم بإعدام يسوع الناصريّ بتهمة الإخلال بالأمن والسلم، وبانتهاك شريعتهم، والاستخفاف بها، أسلمتهم إيّاه كي يصلبوه، مع أنّ تهمهم لم تكن واضحةً ولا مقنعةً، وذلك حؤولاً دون اتّهامي لدى الإمبراطور بتشجيع الثورة، وبإغاظة اليهود من جرّاء امتناعي عن إدانته. وقد سلّمتهم إيّاه مع مجرمَيْن آخريْن كانا قد أُدينا سابقًا، وأُرجئ تنفيذ الحكم فيهما بسبب حرص اليهود على أن يُصلب يسوع معهما". ثمّ دوّن الوالي اسم المحكوم عليه، على رقعةٍ قاتمةٍ، وعلى ثلاثة أسطر، وباللّغات الثلاث: الرومانيّة واليونانيّة والعبريّة، كالتالي: "يسوع الناصريّ ملك اليهود".

واعترض زعماء اليهود على هذا النصّ الذي عدّوه مسيئًا لهم، ولا سيّما أنّ كتابة الرقعة على ثلاثة أسطر كانت تقتضي إضافة خشبة إلى الصليب تثبّت عليها تلك الرقعة، فيصبح صليب يسوع أعلى من صليبَيْ اللصّين ومتميّزًا عنهما، فطالب اليهود بيلاطس بتصحيح الكتابة بحيث تقول: "يسوع الناصريّ المدّعي أنّه ملك اليهود". غير أنّ بيلاطس الذي بلغ منه الضيق والتوتّر مبلغًا قصيًّا، والذي ضاق ذرعًا بمماحكات اليهود، ردّ عليهم بامتعاض: "ما كُتِب، قد كُتب!"

عقب إعلان الحكم، وفيما كان زعماء اليهود يناقشون بيلاطس، انقضّ الجنود على يسوع انقضاضهم على فريسةٍ، متحرّرين من الهدوء الذي التزموه داخل المحكمة، ومطلقين العنان لبهيميّتهم. وجريًا على التقليد أعادوا للمُدان ثيابه التي نُزعت عنه في قصر قيافا، وفكّوا قيود يديه من أجل إلباسه إيّاها، ونُزِع عنه، بفظاظةٍ، المعطف الأحمر الذي أُسبل عليه استهزاءً به، والذي كان قد التصق بجراحه المنتشرة على مساحة جسده، فكان انتزاعه مثار آلامٍ مريعةٍ. ومن أجل تسهيل ارتدائه ثيابه انتزعوا إكليل الشوك المغروس عميقًا في رأسه، فتفجّرت الدماء من عشرات الجراح التي أحدثتها الأشواك. ثمّ أُلبس الثوب البنّي الذي حاكته له أُمّه، قطعةً واحدةً، ورداءه الصوفيّ الأبيض وحزامه العريض ومعطفه. وعندئذٍ أُثبتت في وسطه سلسلةٌ حديديّةٌ مزوّدةٌ بحلقاتٍ أُدخلت فيها حبالٌ تُستخدم لجرّه، وقد تمّ كلّ ذلك بفظاظةٍ همجيّةٍ، مرفقةٍ بالشتائم المقذعة.

وسار يسوع بين اللصّين. أحدهما كان هادئًا ساهمًا، أمّا الآخر فكان جلفًا فظًّا يشارك الجنود شتم يسوع، الذي كان يرنو إلى كليهما بنظرة عطفٍ وشفقةٍ، ويصلّي من أجلهما، ويقدّم آلامه لخلاصهما. لقد بدا الفادي منهكًا ألمًا، ولكن مفعمًا حبًّا وعزيمةً على حمل خطايا البشريّة الجاحدة، مكفّرًا عنها بسكب دمه من كأس جسده المثخن بالجراح.

أمّا حنّان وقيافا فقد استلم كلٌّ منهما نسخةً عن الحكم، وهرعا إلى الهيكل، خشية التأخّر عن طقوس الاحتفال بالفصح. لقد نأيا عن الحمل الفصحيّ الحقّ الذي أَوكلا إلى جلاّديهما سوقه إلى مذبح الصليب، فيما كانا ما برحا يجيشان رغبةً في الإمعان بإهانته، والانتقام منه، وسارعا إلى التهام الفصح المادّيّ الرمزيّ. كانا قد تحصّنا بكلّ الاحتياطات التي تقيهما من النجاسة الخارجيّة، فيما كانت نفسهما تعجّ بجرائم الحقد، والظلم، والنفاق، والقتل. وبقولهما: "فليرتدّ دمه علينا وعلى أبنائنا"، كانا قد كرّسا الفصل بين طريقين: أحدهما يفضي إلى مذبح الشريعة، وآخر إلى

مذبح النعمة والخلاص. وبين هذين الطريقين سلك بيلاطس المتعجرف، المتذبذب، الذي آثر مداهنة القيصر على التزام الحقّ والعدل، طريق قصره وهلاكه وخيبته. ففي هذه الأثناء كانت زوجته "كلودا"، فور إصداره حكم إعدام يسوع، قد أعادت له عربون قسمه بإنقاذ البريء من براثن اليهود، وهجرت قصره خلسةً، ولجأت إلى أَصدقاء المخلّص الذين أخبأوها في قبوٍ ببيت لعازر. ولاحقًا اعتنقت المسيحيّة، وغدت من مرافقي الرسول بولس ومن خدّامه في حقل الرسالة.

## يسوع يحمل صليبه

فور مغادرة بيلاطس قاعة المحكمة، هرع إلى الساحة العامّة، ثمانٍ وعشرون مسلّحًا فرّيسيًّا، وكان بينهم الستّة الأشدّ عداءً للمخلّص، والذين أسهموا في القبض عليه في بستان الزيتون. وافوا ممتطين جيادًا كي يواكبوه إلى موقع الصلب. وجاءت ثلّةٌ من الخدّام بأخشاب الصليب التي كانت قد جُمعت ورُبطت بحبال، وبالأخشاب المعدّة لدعم القسم العموديّ من الصلب، وبالقطعة الإضافيّة التي قُرِّر إلصاقها إلى أعلى الصليب كي تثبّت عليها علّة الصلب. كلّ هذه الأخشاب أُلقيت بعنفٍ عند قدمي المخلّص، محدثةً ضجّةً مرعبةً. وجثا المخلّص أمام صليبه وغمره بذراعيه، وقبّله ثلاثًا، رافعًا إلى الآب شكرًا مؤثّرًا عن بدء عمليّة فداء العالم. ثمّ ألقى الجنود بعنفٍ الصليب على متن المخلّص، فران بكلّ وقره عليه، وأسنده الفادي بمشقّةٍ على كتفه اليمنى، ولولا طغمةٌ من الملائكة لما قوي على ذلك. وتلبّث، هنيهةً، راكعًا، مخاطبًا أباه، فدنا منه فرّيسيٌّ ممتطٍ فرسًا، وقال له بصلَفٍ: "لقد ولّى زمن الخطابات الجميلة، هيّوا بنا". وأطلقت خيّالة بيلاطس أبواق الانطلاق، وأنهض الجنود يسوع بعنفٍ، وانطلقت مسيرة ملك الملوك الفدائيّة محفوفةً بمهانة الأرض ومجد السماء.

كان أسفل الجزء العموديّ من الصليب قد رُبط بحبلين يشدّهما جنديّان إلى أعلى لكيلا يقع أرضًا. وكانت أطراف معطف يسوع قد رُفعت ودُسّت داخل

حزامه. وحرص الحاكم نفسه على تقدّم الموكب تحسُّبًا لأيّة فوضى مفاجئة، تتبعه ثلّةٌ من الفرسان، تليها كتيبة مشاةٍ مؤلّفةٌ من ثلاث مئة نفرٍ، وأمام الموكب كان يسير نافخ بوقٍ يعلن حكم الإعدام، في مختلف جوانب الطريق. واختتمت الموكب جماعةٌ من خدمٍ وجلاّدين ومأجورين يحملون سلالاً ملأى حبالاً، ومسامير، ومطارق، وأدواتٍ أُخرى، يليهم جلاّدون شديدو المراس يحملون سلالم، وأجزاء صليبَيْ اللصّين، يتبعهم فرّيسيّون على متن خيولٍ، وبينهم يسير شابٌّ أثبت علّة الحكم على صدره ورفع على عصا إكليل الشوك الذي نُزع عن رأس يسوع لكيلا يعيق مسيرته إلى الجلجلة. وخلف الجميع كان يسوع يسير متعثّرًا، مضرّجًا بدمه، حافي القدمين، محنيًّا تحت وقر صليبه، مترنّحًا، ممزّقًا، وقد هدّه الجوع والعطش والسهر منذ عشائه الأخير مع تلاميذه، وقد أعياه نزيف دمه، والتهمته الحمّى، وأضنته الآلام النفسيّة اللامتناهية.

بيده اليمنى كان يسند الصليب الملقى على كتفه، وبيسراه المنهكة كان يحاول لمّ أطراف ثوبه التي كانت تتعثّر بها قدماه. وكان الجنود الأربعة الذين لا يكفّون يشدّونه يمنةً ويسارًا، والجنديّان اللذان يرفعان طرف صليبه، يؤرجحونه، مع كلّ خطوةٍ، ويحولون دون تسديد خطواته، وكان ارتطام الصليب على جسده، من جرّاء هذه الأرجحات يوري نيران آلام جراحه.

يداه كانتا مقرَّحتيْن متورّمتين من جرّاء القسوة التي قُيّدتا بها، ووجهه كان ملطّخًا بالدماء التي صبغت أيضًا لحيته. وكان ثقل الصليب، وضغط القيود يُلصقان ثوبه الصوفيّ بجراحه، ويُسبّبان نزفها الدائم. كان محاطًا بالقسوة، والعنف، والفظاظة، والهزء، والشماتة، وكان منظره مريعًا ومثار شفقةٍ، ومع ذلك ما كانت شفتاه تتحرّكان إلاّ بالصلاة، ولا كانت عيناه توحيان إلاّ بالحبّ والغفران. وكانت ثلّةٌ من الجنود المسلّحين بحرابٍ يُحيقون بالموكب من كلّ جانبٍ، ومن خلف يسوع كان يسير اللصّان مشدودَيْن، هما أيضًا، بحبالٍ، ويختم الموكب فرّيسيّون ممتطين خيلاً.

منعًا لعرقلة اليهود المتوافدين إلى الهيكل، ولإعاقة حركة بيلاطس الذي كان يجوس أرجاء المدينة، اقتيد يسوع عبر زقاقٍ ضيّقٍ خالٍ من المارّة، متعرّجٍ خلف المنازل، ومزدحمٍ بالأقذار. وفيما خفّ اليهود إلى منازلهم لاستكمال استعدادات الفصح، احتشد غرباء فضوليّون ومتفرّجون، استوقفهم موكب الصلب. وبما أنّ الجنود كانوا دائبين على إبعادهم عن الزقاق الضيّق، راحوا يجرون كي يسبقوا الموكب إلى الجلجلة. فيما كان رعاعٌ يشتمون يسوع من نوافذ بيوتهم، وعبيدٌ يرشقونه بالوحل والقمامة، وأشرارٌ يصبّون عليه مادّةً مائعةً سوداء اللون، كريهة الرائحة، وعصابةٌ من الأولاد يجمعون حجارة الطريق وينشرونها تحت قدميه، ويشتمونه، غافلين عن أنّه نصير الطفولة الأوّل الذي طالما رحّب بالأطفال، وذاد عن حياضهم، ودعاهم إلى اللطو بين ذراعيه.

## سقطات يسوع تحت الصليب

انتهى الموكب إلى موقعٍ من الطريق فيه هوّةٌ مليئةٌ ماءً، وقد وُضعَ في وسطها حجرٌ لتسهيل العبور. وإذ كان الجنود لا يكفّون يجرّون يسوع بعنفٍ، ويدفعونه بفظاظةٍ، هوى تحت وقر الصليب على هذا الحجر ووقع صليبه إلى جانبه، وانهال الجند عليه وأوسعوه شتمًا، وشدًّا، وركلاً بأقدامهم، وتوقّف الموكب، وعلت الجلبة. وعبثًا مدّ المخلّص يده مستغيثًا، لعلّ من يقيله من عثاره ويُنهضه، وهو يتمتم: "لن يطول بي الأمر"، ويصلّي من أجل جلاّديه. وتدخّل الفرّيسيّون وأمروا بإنهاضه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. وبعونٍ سماويٍّ نهض ابن الله، واغتنم أبناء جهنّم، الوحوش البشريّة، هذه السانحة، مسفرين عمّا انطوت عليه نفوسهم من نذالةٍ، فما كاد الربّ يرفع رأسه، حتّى سارعوا إلى إثبات إكليل الشوك فيه، وإلقاء الصليب على منكبه، ما ضاعف مشقّة حمله الصليب الذي غدا يضغط على الشوك، مع كلّ خطوةٍ. وبهذا المزيد من التنكيل واصل يسوع تصعيده على طريق الموت الفادي.

وكانت مريم العذراء، الرازحة تحت وقر صليبٍ نفسيٍّ قاتلٍ، مذ أُطلق بوق

انطلاق موكب الفداء، وقد طلبت من يوحنّا أن يمضي بها إلى حيث يتسنّى لها رؤية محيّا ابنها، ومواكبة لحظاته الأخيرة على أرض البشر. كانت شاحبةً، مرتجفةً، متهافتةً، موجَعةً، لا تقوى على الوقوف إلاّ بمشقّةٍ بالغةٍ. وقد انتقعت عيناها بلون الدم، وبلغ بها الاضطراب أن استوضحت يوحنّا هل عليها المكوث ومشاهدة المنظر المفجع، أَمْ خيرٌ لها البعاد، وهل ستقوى على الاحتمال. وأوضح لها يوحنّا أنّها قد تلوم نفسها، حتّى اللحظة الأخيرة من حياتها، إن لم تصمد حتّى نهاية المأساة. فلبثا في مكانهما كي يرقبا الموكب الذي مرَّ على مسافة بضعة أقدامٍ منهما.

كان القوم يتدافعون كي يظفروا بمكانٍ يسعهم منه مراقبة الحدث. ولّما اقترب حاملو أدوات الصلب يضجّون قحةً وتباهيًا، أَخذت بالعذراء الرعدة، وتفجّرت الأنّات من صدرها، فاستوضح أحد أولئك الأشقياء عمّن تكون المرأة المنتحبة، وعندما أُحيط علمًا بأنّها أُمّ الناصريّ أَمطرها السفلة بسخريّاتهم، وراحوا يشيرون إليها بأصابعهم، وبلغت القحة بأحدهم أن لوّح أمام عينيها بالمسامير التي ستخترق يدي ابنها ورجليه، وهو يضجّ شماتةً وصلَفًا.

ومرّ الفادي أمام العذراء، فرنت إليه ضامّةً يديْها، مُحطَّمة القلب، وقد اصطبغ وجهها بشحوب الموت، وازرقّت شفتاها. وكادت تهوي أرضًا لو لم تستند إلى حائطٍ. ولكَمْ شقّ عليها أن تشهد ابن الله، ابنها، رازحًا تحت وقر صليبه، متهالكًا، مترنّحًا، والدماء تنثال من رأسه الذي غُرست فيه الأشواك، شاحب الوجه، مضرّجًا بالدم الذي تجمّد بعضه على شعر لحيته! وفيما كان هو يوجّه لأُمّه الوجيعة، من عينيه الناعستين الداميتين، نظرة تعاطفٍ وأسًى، سقط، ثانيةً، على ركبتيه وراحتيه. وما عادت الأُمّ المفجوعة ترى من الدنيا سوى فلذة كبدها وحاله التي تفطّر حتّى القلوب الصمّاء، فجرت إليه، غير حافلةٍ بالجنود والجلاّدين، وارتمت راكعةً أمامه، وطوّقته بذراعيها، وتُبودلت، حينئذٍ، لفظتان، أنّتان، تختزلان كلّ أحزان الوجود: "بنيَّ!"، "أُمّاه!".

هذا المشهد لم يوحِ إلى الجنود وحرَّاس قيافا سوى كيل الشتائم للأُمّ المفجوعة، وقد قال لها أَحدهم: "ماذا جئت تفعلين هنا يا امرأة؟ فلو أنّك أحسنت تربية ابنك لما وصل إلى أَيدينا!". ودنوا منها وأَبعدوها بفظاظةٍ، ولكن لم يمسّها أحدٌ بأذًى، لا بل بدا التعاطف والتأثّر على بعض الجنود. وشوهدت، وسط الجموع الشامتة الشتّامة، نساءٌ محجّباتٌ ينتحبنَ.

وعند مفترق طرقٍ، كان على يسوع تخطّي حجرٍ كبيرٍ ثاوٍ وسط الطريق، غير أنّ ما انتهى إليه من وهنٍ وثقل الصليب حالا دون قدرته على تخطّيه، فتعثّر وكبا وسقط صليبه معه. وبات عاجزًا عن النهوض. ورآه، على هذه الحال، مارٌّ ماضٍ إلى الهيكل، فهتف: "إنّ الرجل يحتضر"، وسادت الفوضى. وتبيّن الفرّيسيّون عجز يسوع عن النهوض، وأوضحوا للجنود تعذّر إيصاله، حيًّا، إلى الجلجلة، وأَمروهم بإكراه آخر على حمل صليبه. واتّفق أن مرّ من هناك رجلٌ عائدٌ مع أبنائه الثلاثة من العمل، يدلّ زيّه على أنّه وثنيٌّ. كان اسمه سمعان القيريني، وكان قد اعتاد القدوم إلى أورشليم في مثل هذا الفصل من السنة، للعمل في تشذيب الأشجار والكروم، لقاء بعض مالٍ. فأوقفه الجند، وكلّفوه بحمل صليب الجليليّ. للوهلة الأولى رفض الرجل، بعد أن هاله حال المدان الزريّ، ومشقّة السخرة بعد ساعاتٍ من العمل. ولكنّ يسوع رمقه بنظرةٍ دافقةٍ توسّلاً، رقّ لها قلبه، فتطوّع لحمل الجزء العموديّ من الصليب وسار خلف يسوع. ومن المعروف أنّ اثنين من أبنائه، روفوس وإسكندر، قد أصبحا، لاحقًا، من تلاميذ يسوع، وورد اسمهما في إحدى رسائل الرسول بولس.

## ڤيرونيكا

كان الموكب قد اجتاز نحو مئتي قدم، مذ حمل سمعان صليب يسوع، عندما اندفعت من بيتٍ فخمٍ امرأةٌ فارعة القامة، جليلة المنظر، أَسبلت على وجهها حجابًا، وعلى منكبها وشاحًا، ممسكةً بيد طفلةٍ في نحو التاسعة من العمر،

واخترقت الموكب، مقاومةً الحرس والجنود الذين حاولوا دفعها وإبعادها. وعندما وصلت إلى يسوع جثت أمامه قائلةً: "اسمح لي أن أَمسح محيّا ربّي". وقدّمت له وشاحها فتناوله بيده اليسرى، ومرّ به على وجهه الملطّخ بالدم ثمّ قرّبه من يده اليمنى التي كانت ممسكةً بالصليب، ودعَكه بيديه كلتيهما، وأعاده شاكرًا للمرأة، التي أَخرجت له، حينئذٍ، إناءً ملأته مزيجًا من خمرةٍ وأَعشابٍ عطريّةٍ، كانت قد أعدّته له كي يروي به ظمأه ويعيد له شيئًا من قواه المنهارة، ولكن ما إن لمح الجند هذا الإناء حتّى انقضّوا عليها ومنعوها من إيصاله إليه. وكان هذا الحدث قد أدّى إلى توقّف الموكب مدى دقيقتين، وأغضب الفرّيسيّين فانهالوا على المخلّص ضربًا وتنكيلاً، ولاسيّما أنّ تكريمه على هذا النحو العلنيّ أثار حفيظتهم. أَمّا المرأة، فقد قبّلت الوشاح ودسّته طيّ معطفها، وأسرعت عائدةً إلى بيتها.

كان اسم تلك المرأة "سيرافيا"، وكانت زوجة "سيراخ"، أحد أعضاء السنهدرين، وسُمِّيَت، لاحقًا، "ڤـــيرونيكا" نسبةً إلى وشاحها الذي طبع عليه الفادي وجهه المتألّم الملطّخ بدماء الفداء، والذي أصبح "إيقونةً حقّةً". عادت، إذن، "سيرافيا" إلى بيتها، وبسطت الوشاح على منضدةٍ، وجثت أمامه، فانتابها الإغماء، وجثت ابنتها الطفلة إلى جانبها منتحبةً. وفي هذه الأثناء دخل بيتها زائرٌ، فلقيهما على هذه الحال، وذُهل لرؤية الوشاح وقد ارتسم عليه وجه المخلّص المتألّم رسمًا عجيبًا. فأيقظ المرأة من غيبوبتها، وأراها الوشاح، فسجدت أَمامه باكيةً، هاتفةً: "الآن أبتغي هجر كلّ شيءٍ، بعد أن أعطاني الربّ هذه الذكرى".

كان الوشاح محاكًا من صوفٍ ناعمٍ، وطوله يعادل ثلاثة أَضعاف عرضه، وكان من المألوف لفّه حول العنق بمناسبة زيارة مفجوعين أو مرضى، وتمسح به وجوههم، دلالةً على التعاطف معهم. ومنذئذٍ علّقت "سيرافيا" ذلك الشال فوق سريرها، وعقب موتها، جاءت به النساء القدّيسات إلى أُمّ الله العذراء، التي أَودعته في الكنيسة.

كانت تربط "سيرافيا" علاقة قربى بيوحنّا المعمدان، إذ إنّ أباها وزكريّا والد يوحنّا كانا ابني عمّ. وكانت تكبر العذراء بنحو خمس سنواتٍ، وشهدت زواجها من يوسف. وكانت تربطها، أيضًا، قرابةٌ بسمعان الشيخ الذي تقبّل تقدمة يسوع إلى الهيكل، وتنبّأ بالسيف الذي سيخترق قلب أُمّه، وجمعتها علاقةٌ وثيقةٌ بأبنائه الذين كانوا يتحرّقون توقًا إلى مجيء المسيح، وتشاركهم هذا التوق.

وعندما تلبّث يسوع، ابن الثانية عشرة، في الهيكل، على غير علم ذويه، كانت ترسل له الطعام في النـــزل الصغير الذي كان يقيم فيه، عقب عودته من الهيكل. وكان هذا النـــزل الذي يخصّ أسّينيّين، مُعَدًّا لإيواء الفقراء، وأَلِف يسوع أن يحلَّ فيه مع رسله كلّما قدم إلى أورشليم، وكانت "سيرافيا" هي التي ترسل لهم الطعام، في الأيّام الأَخيرة التي قضوها في أورشليم، قبل صلب المخلّص.

زوج سيرافيا "سيراخ"، كان عضوًا في السنهدرين، وعلى نقيض زوجته، عادى يسوع، بادئ الأمر، وكان تناقض موقفيهما من الربّ، مثار خلافات بينهما، غير أنّ تأثير صديقَيْ سيراخ، نيقودمس ويوسف الأريماثيّ، جعلاه ينحاز إلى يسوع، وينفصل، معهما، عن السنهدرين، ويتيح لزوجته اتّباع تعاليم المخلّص.

وجديرٌ بالتنويه أنّ "سيرافيا"، يوم دخول يسوع المنتصر إلى أورشليم، كانت قد ألقت وشاحها على الطريق الذي سلكه موكب المخلّص، ثمّ مسح الفادي وجهه المضرّج بدماء الفداء، بهذا الوشاح عينه، الذي أمسى موضع تكريم المسيحيّين.

## سقوط يسوع الرابع

في مكانٍ موحلٍ من الطريق شدّ الجند يسوع بعنفٍ، فارتمى على وجهه، وكاد سمعان يُسقط الصليب. وتمتم يسوع بأنّةٍ وجيعةٍ، ولكن بصوتٍ واضحٍ: "الويل لكِ يا أورشليم؟ فلكم أحببتك، ورغبت في جمع بنيك مثلما تجمع الدجاجة صغارها تحت جناحيها. وها أنت تطردينني بقسوةٍ خارج أبوابك!". قال ذلك بحزنٍ سحيقٍ،

وسمعه فرّيسيّون، فانهمرت عليه شتائمهم، وانهالوا عليه ضربًا، وهم يدمدمون: "ما زال المشاغب غير راضٍ، وما انفكّ يهذي"، وجرّوه بضراوةٍ كي ينشلوه من الموحلة. واستنكر سمعان القيرينيّ هذا السلوك الهمجيّ، فصاح: "إن لم تضعوا حدًّا لهذه التصرّفات المشينة، فسألقي الصليب أرضًا، حتّى إن قتلتموني!"

وعند مفترق طرقاتٍ تعثّر يسوع للمرّة الخامسة، وكاد يهوي لو لم يتداركه سمعان حائلاً دون سقوطه على الأرض. وكانت هناك ثلّةٌ من نساءٍ وفتياتٍ أَلِفنَ غوث المدانين. وهالهنّ ما انتهى إليه الناصريّ من تشويهٍ، وخورٍ وحالٍ مريعةٍ فانفجرنَ بالعويل وقدّمنَ له مناشف ليمسح بها دماءه. فالتفت صوبهنّ، وقال لهنّ: "يا بنات أورشليم لا تبكينَ عليَّ، بل ابكينَ عليكنّ وعلى أبنائكنّ، فستأتي أيّامٌ يقال فيها: "طوبى للعواقر، وللأرحام التي لم تلد، وللثديّ التي لم ترضع! ويناشد الرجال الجبال أن تنهدّ عليهم، والآكام أن تواريهم. فإن كان هذا ما يفعلونه بالغصن الأخضر فما عساهم يفعلون بالغصن الجافّ!" وبعباراتٍ تقطر رقّةً، شكر لهنّ تعاطفهنّ، وأنبأهنّ بأنهنّ سيسلكن طرقًا جديدة.

وتوقّف الموكب، برهةً، وتقدّم حاملو أدوات الصلب، يواكبهم جنودٌ رومانيّون، مسارعين إلى الجلجلة، وعاد بيلاطس إلى المدينة، بعد أن راقب الموكب عن بُعد. واستؤنفت المسيرة، متسلّقةً الدرب الشاقّ المتعرّج شمالاً بين أسوار المدينة وتلّة الجلجلة. وكانت قوى يسوع قد خارت، تحت عبء أجزاء الصليب التي ما برحت ثاويةً على منكبيه، فهوى للمرّة السادسة، وكان سقوطه هذا الأشدّ إيلامًا. ومع ذلك، انهال عليه الجلاّدون ركلاً، موغلين في العنف والتنكيل، حتّى انتهوا به إلى تلّة الجلجلة حيث سقط للمرّة السابعة. رقّ سمعان لحاله، ورغم ما لحقه من نَصَبٍ وإهاناتٍ انفجر غيظًا واستنكارًا لهمجيّة الجلاّدين، وهبّ لغوث المخلّص، ولكنّ الجند والحرس أغدقوا عليه الشتائم وطردوه، ولم يلبث أن التحق بتلاميذ يسوع. وسرعان ما وصل الفرّيسيّون إلى موقع الصلب المكوّن من صخرةٍ

مستديرة الشكل، على صهوات خيولهم عبر طرقاتٍ سهلةٍ من جانب التلّة الغربيّ، وهم يضجّون بهجةً وتباهيًا بالانتصار.

أنهض الجلاّدون يسوع، بعنفٍ وفظاظةٍ، من سقطته الأخيرة، ورموا أرضًا أجزاء صليبه، ووقف الفادي وسطها شاحبًا شحوب الموت، مهشّمًا، مضرّجًا بدمه. ولم يلبث الجلاّدون أن ألقوه أرضًا، قائلين، مستهزئين: "تعالَ، أيُّها الملك العظيم، كي نأخذ مقاسات عرشك!". وسارع الربّ إلى الاطّراح، طوعًا، فوق صليبه، فمدّدوه كي يحدّدوا أماكن يديه ورجليه من الصليب، ومواقع المسامير التي ستدقّ فيها، فيما الفرّيسيّون ما انفكّوا يغرقونه بالشتائم والسخريّة. ثمّ ساقوه مسافة نحو ستّين قدمًا صوب الجنوب، حيث نُحتت في الصخر حفرةٌ تشبه حوضًا، ودفعوه إليها بعنفٍ وحشيٍّ كان كفيلاً بتحطم ركبتيه لولا وقاية السماء، ولكنّه تأوّه تأوّهًا يفطّر الأكباد. وفي تلك الصخرة كانت قد حُفرت الثقوب التي ستثبّت فيها الصلبان الثلاثة، وخصّصت الحفرة الوسطى لصليب يسوع الذي كان أعلى طولاً من صليبيْ اللصّين.

## درب الصليب

فيما كان يسوع يُقتاد إلى منقع العذاب والموت، كانت أُمّه القدّيسة المفجوعة، والمجدليّة، ويوحنّا، يراقبون في زوايا الطرقات، فتقرع آذانهم وقلوبهم صيحات الرعاع، وشتائم زعماء اليهود، والحزن يمزّق قلوبهم. ثمّ اجتازوا كلّ درب الآلام، مرورًا بقصر قيافا، وقصر حنّان، وبستان الزيتون والجتسمانيّ، وكانوا يتوقّفون في كلّ بقعةٍ كبا فيها يسوع، وكابد آلامًا مبرّحةً، ويسكبون وابل الدموع، متّحدين بعذاباته. وغالبًا ما كانت العذراء تخرّ أرضًا، وتقبّل الأماكن التي شهدت سقطاته. وبهذه المسيرة استهلّ ذلك الموكب المفجوع درب الصليب الذي روته الأُمّ القدّيسة بدموعها، وقدّست كلّ محطّةٍ من محطّاته بقبلاتها وحزنها، والذي أَضحى، لأجيالٍ عديدةٍ، موضع تأمّلٍ وعبادةٍ، وتوبةٍ. ومن قلب زهرة البشريّة العذراء، انبثقت طقوس تكريم آلام المخلّص.

كم كانت آلام الأمّ القدّيسة جسيمةً وقاتلةً، وكم كان وجيعًا اختراق السيف لقلبها! لقد شاركت ابن الله وابنها الذي حضنته في أحشائها، وأرضعته من لبنها، وأنشأته بأرقّ عنايةٍ وحنانٍ، وشاركته آلامه ورغبته الحارقة في افتداء البشر بموته!

واستولى الألم، أيضًا، على كلّ جوارح المجدليّة. حبّها المقدّس الطاهر له كان جسيمًا، وكانت تتمنّى بذل كلّ نفسها تحت قدميه، مثلما سبق لها أن سكبت الناردين على رأسه، ولكنّ هوّةً سحيقةً كانت تفصلهما. فندمها على خطاياها كان يضاهي عرفانها بجميل غفرانه لها؛ وفيما كانت تصبو إلى رفع حبّها له بخور شكرٍ، كانت تشهد يسوع مهانًا مسامًا آلامًا مريعةً، بسبب آثامها التي أَخذها على عاتقه، وكان هذا المشهد يملؤها رعدةً، فتغوص، أعمق فأعمق، في هوّة ندمها التي لا تقوى على ردمها. ومن ثمّ كانت نفسها ممزّقةً بين الحبّ والندم، بين عرفان الجميل وهول ما كان يلحقه جحود اليهود بفاديهم. وكانت كلّ حركاتها، وأقوالها، وقسَماتها تعبّر عن هذه المشاعر التي تجيش في نفسها.

وكان يوحنّا يشارك معلّمه كلّ آلامه، وفيما كان يقتفي، مع أُمّ الله، آثار درب الصليب، كان يتراءى لعينيه مستقبل الكنيسة.

## مريم ومرافقاتها في الجلجلة

إثر لقاء العذراء بابنها مقِلاًّ صليبه، والإغماء الذي انتابها، عادت بها حنّة زوجة شوزا، وسوسن وصالومة، بمعاونة ابن أخي يوسف الأريماثيّ، إلى المنـــزل الذي كانت قد لجأت إليه، وأوصدوا الباب دون فلذة كبدها. غير أنّها ما إن استعادت وعيها حتّى هاجها الشوق إليه، واستولت عليها رغبةٌ جامحةٌ في اللحاق به، ومواكبته، ومشاركته كلّ آلامه، ولكأنّ طاقةً خارقةً علويّةً قد حلّت عليها. فاتّجهت إلى بيت لعازر، حيث كانت النساء القدّيسات الأُخريات ينُحْنَ وينتحبنَ مع المجدليّة، ومرتا؛ ومن هناك انطلقنَ جميعهنّ، وقد بلغ عددهنّ سبع عشرة امرأةً، مقتفياتٍ آثار آلام يسوع الفدائيّة. كنّ وقوراتٍ، هادئاتٍ، محجّباتٍ، غير عابئاتٍ

بشتائم الرعاع، يقبّلن بورع الأرض التي اجتازها المخلّص حاملاً صليبه، ويُكرِّمنَ كلّ موقعٍ اشتدّت فيه آلامه. وكان نورٌ داخليٌّ ينير العذراء التي واكبت، روحيًّا، كلّ مسيرة آلام ابنها، ويرشدها إلى مواقع الآلام، ومراحلها، على الأرض. لقد دُوِّن درب الصليب في صميم قلب أُمّ الفادي، بالسيف الذي تنبّأ به سمعان الشيخ. وهي ورّثته لأبنائها في كلّ جيلٍ كي يواكبهم حبّ المخلّص، وآثار فدائه، حتّى نهاية الأزمنة. وتوقّف موكب النسوة في منـــزل ڤـــيرونيكا، حيث تأمّلن، برهبةٍ وذهولٍ، إيقونة وجه الفادي المتألّم. وأخذنَ معهنّ إناء الشراب الذي كانت قد أعدّته تلك المرأة الفاضلة، بغية تخفيف معاناة المصلوب، وقصدنَ باب الجلجلة، وكان موكبهنّ لا يني يتضخّم بانضمام أبرارٍ موالين للمخلّص.

وكانت المجدليّة سكرى بآلامٍ وخواطر قاتلةٍ، تتقاذفها المشاعر، متقلّبةً من صمتٍ مذهولٍ، إلى نحيبٍ صارخٍ، ومن ثورةٍ إلى قنوطٍ. ورفيقاتها لا يكففنَ يساندنَها، ويشددنَ أزرها، ويجهدنَ في تهدئة روعها، ويخفينها، بين فينةٍ وفينةٍ، عن أنظار الجماهير.

عند الجلجلة انشطرنَ إلى ثلاث مجموعاتٍ، المجموعة الأولى ضمّت العذراء وابنة أُختها مريم ابنة كليوبا، وصالومة، ويوحنّا، وقد وقفوا عند أقرب مسافةٍ من موقع الصلب، وعلى مقربةٍ منهم وقفت المجدليّة ومرتا، وڤـــيرونيكا، وحنّة زوجة شوزا، وسوسن، ومريم أُمّ مرقس. وغير بعيدٍ عن هؤلاء وقف سبعةٌ من النساء القدّيسات، وموالون ليسوع.

مشهد موقع الصلب، والصليب المريع، وأدوات الصلب من مطارق ومسامير، وحبالٍ، والجلاّدين المخيفين، نصف عراة، وقد أخذ السكر بكلّ مشاعرهم الإنسانيّة، وما كانوا يتقيّأونه من شتائم، كان يمزّق قلب الأمّ العذراء؛ ويضاعف آلامها غياب يسوع عن عينيها. كانت تعلم أنّه ما زال حيًّا، ويتنازعها التوق إلى رؤيته، والجزع من مشاهدة آلامه.

وكان هطول البَرَد قد استمرّ طيلة الصباح، ثمّ انقشع الجوّ، ولكن عند الظهيرة غطّت غيومٌ حمراء وجه الشمس.

## تعرية يسوع وتعليقه على الصليب

ريثما تُستكمَل تدابير الصلب كان الجلاّدون قد حبسوا المخلّص في مغارةٍ قريبةٍ من الجلجلة، فانتهز الربّ هذه الخلوة كي يلتمس من أبيه القدر الكافي من قدرة الاحتمال حتّى يمضي في مهمّته الخلاصيّة حتّى نهاية الشوط، وكي يقدّم آلامه تكفيرًا عن خطايا أعدائه. أمّا الجلاّدون فاستغلّوا الخطوات المعدودات التي اجتازها إلى موقع الصلب كي يفرغوا جعبة إهاناتهم وشتائمهم، ولكماتهم. وقاسمتهم النذالة أجواق الرعاع المتفرِّجين، فيما التزم الجنود الرومانيّون موقف اللامبالاة، وحصروا اهتمامهم بحفظ النظام.

وما إن رأت النساء القدّيسات يسوع مقبلاً حتّى أَعطينَ رجلاً مالاً وإناء المشروب الذي كانت قد أَعدّته "ڤـــيرونيكا"، كي يرشي الجنود فيسقوا يسوع من ذلك المشروب، ولكنّ الجنود احتفظوا به لأنفسهم وقدّموا للمصلوب مشروبًا مرًّا كانوا يسقون به المصلوبين كي يفقدوا الرشد والإحساس. التفّ حول صليب يسوع ثمانية عشر جلاّدًا، هم ستّةٌ كانوا قد جلدوه، وأربعةٌ جرّوه على درب آلامه، واثنان رفعا طرف صليبه، وستّةٌ مكلّفون بإنجاز عمليّة الصلب، وهم مرتزقون غرباء، قصيرو القامة، متينو البنية، نصف عراة، مجعّدو الشعر، يستأجرهم اليهود والرومان على السواء لتنفيذ المهامّ الأثيمة اللاإنسانيّة.

وعكف الجنود على تعريته، فنـــزعوا معطفه، والسلسلة الحديديّة التي كانوا يشدّونه بها، ونطاقه الجلديّ، ثمّ أخذوا ينتزعون الغلالة الصوفيّة البيضاء التي كانت أُمّه قد حاكتها له. وبما أنّ إِكليل الشوك كان يعيق انتزاعها، اقتلعوا هذا الإكليل بعنفٍ وحشيٍّ، مفجّرين منابع الدماء في رأسه. وأخيرًا انتزعوا كتّافيّته الصوفيّة التي كانت قد التصقت بجراح ظهره، فأثار انتزاعها أوجاعًا ممضّةً. وتجلّى للعيان ما انتهى إليه ذلك الجسد المقدّس، من تورّمٍ، وتمزّقٍ، وكدماتٍ، وجراحٍ، ومن آثار السياط التي حرثت كلّ جسده، وحفرت فيه أثلامًا نازفةً.

حينئذٍ خارت قوى المخلّص وغدا عاجزًا عن الوقوف، فأجلسوه على حجرٍ،

وقدّموا له، ثانيةً، شرابًا مرًّا، فأبى ارتشافه، وأدار وجهه صامتًا. وحينئذٍ أكرهوه على الوقوف. وشرعوا بانتزاع المئزر الذي يستر به حقويه، والذي كان ستره الأخير. فانحنى على ذاته، وستر عريه بيديه، وتعالت صيحات الاستنكار من جميع الحاضرين الذين احتفظوا بجذوة حياءٍ وإنسانيّة. ولم تُطِق أُمّه أن يظهر ابن الله على هذا النحو، وهمّت باختراق صفوف الحرس، كي تعطيه حجابها سترًا. وتوسّلت الله إيجاد مخرجٍ لها ولابنها، وإذ برجلٍ مفتول العضلات، يضجّ جرأةً وإقدامًا، يخترق الجمع، مهدّدًا الحرس بقبضته، ويجري صوب المخلّص، لاهثًا، صائحًا: "دعوا هذا المسكين يستتر!"، وأعطاه منشفةً تناولها يسوع، شاكرًا، ولفّها حول حقويه. ذلك الرجل الشهم، واسمه "جوناداب"، كان أحد أبناء أخٍ للقدّيس يوسف، يقطن بيت لحم. وكان أثناء إعداد يسوع للصلب يصلّي في الهيكل. ولحظة عُرّيَ المخلّص دفعته قوّةٌ لا تُقَاوَم صوب الجلجلة لإنقاذ يسوع وأُمّه من الحرج. وكانت تلك هي استجابة الله لتوسّلات الأُمّ العذراء.

وحينئذٍ مدّد الجلاّدون على الصليب الإنسان الذي أصبح ألَمًا فاديًا، وأثبتوا يده فوق الثقب المعدّ في عارضة الصليب، وربطوها بإحكام. ثمّ أَسند أحدهم ركبته فوق صدر المخلّص، لكي يُبقي يده مبسوطةً، تلك اليد التي طالما أغدقت البركات والأشفية والإحسان، والتي كان الوجع وشدّة الضغط ينـــزعان بها إلى الانكماش، ولكي يُتيح لجلاّدٍ آخر أن يدقّ فيها، بمطرقةٍ حديديّة، مسمارًا طويلاً غليظًا، مثلّث الزوايا، يعادل عرضه عرض أبهام اليد، مسنّن أحد الطرفين، أمّا طرفه الآخر فمبسَّطٌ ويحاكي حجم درهمٍ معدنيٍّ. وكان الجلاّد يدقّ المسمار بكلّ قواه ولا يكفّ حتّى يرى طرفه المسنّن قد تخطّى الخشب وبرز منه. وكان الدم الزكيّ يتفجّر ويضرّج حتّى يدي الجلاّد وذراعيه، فيما كان الألم ينتزع من الحمل الإلهيّ أنّاتٍ رقيقةً، وجيعةً.

وكانت الأُمّ العذراء تجهد في كتمان تأوّهاتها، وتختزن كلّ آلام الدنيا في قلبها.

وبعد أن أثبتوا يد المخلّص اليُمنى على خشبة الصلب تبيّنوا أنّ يده اليُسرى أَقصر من أن تبلغ مكان الثقب الذي أُعِدّ لها في الخشبة، فتكاتفوا على شدّها حتّى كادوا

يخلعونها من الكتف؛ وبعد لأيٍ تمكّنوا من إيصال راحة يده إلى الثقب، وأثبتوها فيه بالمسامير، وكان المخلّص يعبّر عن أوجاعه القاتلة بصيحاتٍ تفطّر القلوب.

وغدت العذراء التي تشارك ابنها كلّ آلامه بكلّ أوتار كيانها، والتي اعتراها شحوبٌ يُحاكي شحوب الموت، لا تقوى على كبت تأوّهاتها ونشيج انتحابها، فيردّ عليها الفرّيسيّون بالسخريّة وبالشتائم المقذعة، فاضطرّ مرافقوها إلى إبعادها إلى حيث كانت سائر النساء القدّيسات واقفاتٍ. أمّا المجدليّة فقد ذهب الألم برشدها، فمزّقت وجنتيْها بأظافرها، وغشت الدماء وجهها وعينيها.

وكانت قد أُثبتت في الثلث الأسفل من الصليب خشبةٌ كي تسند عليها قدما المصلوب تفاديًا لخلع كتفيه، وسقوط جسده، وتسهيلاً لإثبات قدميه، بالمسامير، على الصليب، وفي هذه الخشبة كان قد أُحدث ثقبٌ للمسمار. غير أنّ الجلاّدين كانوا قد شدّوا ذراعي الفادي شدًّا عنيفًا إلى الأعلى، وأحكموا ربطهما، فتقوّست ركبتاه، ونأت قدماه عن مكان إثباتهما بالصليب. هذا الإشكال الطارئ، غير المتوقّع، أغاظ الجلاّدين، فراحوا يتبادلون التهم والشتائم. وارتأى بعضٌ منهم فكّ يدي المصلوب، وإثباتهما في أماكن أدنى تتيح هبوط جسمه، والتمكين في إثبات القدمين في المكان المعدّ لهما. ولكنّ آخرين آثروا وسيلةً أسرع وأشدّ إيلامًا تمثّلت في بسط ركبتيه عنوةً، فربطوا ساقيه بحبالٍ، وشدّوهما إلى أسفل بعنفٍ أَدّى إلى خلعهما وتحطيم عظام صدره، وانتزع من المخلّص صيحة استغاثةٍ: "إلهي! إلهي!".

واتّقاءً لتمزّق القدمين في حال إثبات كلٍّ منهما على حدة إلى الصليب، جُمعتا معًا، الواحدة فوق الأُخرى، وثُقبتا بمثقبٍ، تسهيلاً لإدخال مسمارٍ مفرط الضخامة والطول فيهما، اخترقهما، واخترق خشب الصليب، وبرز منه. وكانت تلك من أقسى مراحل الصلب إيلامًا للمصلوب، وإثارةً لأكثر تأوّهاته هصرًا للقلوب، وتعبيرًا عن الاستشهاد، وفي الآن عينه، مشقّةً للجلاّدين الذين ما انفكّوا يواكبون جهدهم بالمسبّات الوقحة.

ولم تُطِق العذراء المكوث بعيدًا عن وحيدها الذي كان يتجرّع من المهانة أشدّ كؤوسها مرارةً، ويكابد من الآلام أَقساها وأدهاها. فعادت إلى موقع الصليب. ولكنّها لّما سمعت انقصاف عظام ابنها، وتأوّهاته المفجعة، اعتراها الإغماء، وارتمت بين أذرع مرافقاتها، وبلغت القحة والوحشيّة بالفرّيسيّين الممتطين خيلاً أن هرعوا إليها وأمطروها بأقذر ما انطوت عليه نفوسهم من حقارةٍ وخسّةٍ وشماتةٍ. واضطرّ مرافقوها إلى إبعادها ثانيةً.

في هذه الأثناء، لم تُخلْ تأوّهات المخلّص الرقيقة دون مواصلته الصلاة، وتلاوة المزامير والنبوءات التي كانت تتحقّق في تلك اللحظات عينها.

وكان الجنود الرومانيّون يتبادلون عبارات السخريّة كلّما وقعت أبصارهم على علّة الصلب المثبّتة في أعلى صليب يسوع، واصفةً إيّاه بملك اليهود، في حين كان ذلك اللقب عينه يوري نيران الحنق في نفوس الفرّيسيّين وكهنة اليهود.

كان الوقت ظهرًا عندما نُصب صليب يسوع، وفي تلك اللحظة ذاتها، دوّت أبواق الهيكل معلنةً بدء التضحية بالحمل الفصحيّ. وتذكّرت قلوبٌ كثيرة قول المعمدان: "هذا هو حمل الله الذي يزيل خطيئة العالم".

## رفع الصليب

بعد أن ثُبِّت يسوع على الصليب تكاتف الجلاّدون على رفعه وشدِّه إلى أعلى بحبال، ثمّ دفعوه نحو الحفرة المعدّة له في الصخر، وأسقطوه فيها سقوطًا عنيفًا مدوّيًا، انتزعت من يسوع صرخة ألمٍ مروّعةً، إذ كانت عظامه تتلاطم وتتصادم. وإثر لحظات تأرجحٍ في الهواء، استقرّ الصليب في حفرته، وثُبّت بدعائم.

وتباينت ردّات الفعل، فمن جانبٍ، شتائم الفرّيسيّين والجلاّدين والرعاع المتفرّج، ومن جانبٍ آخر تأوّهات تعاطفٍ، منبعثةٌ من أقدس أفواه العالم، فم أُمّ الله، وأفواه مرافقاتها القدّيسات، ومن كلّ القلوب الطاهرة؛ واستنكار فئةٍ من اليهود الذين ما برحت جذوة الحقّ متّقدةً في حنايا نفوسهم، فأصدت لتأوّهات كلمة الله

المتجسّد المعلّق على الصليب. وكم من أيدٍ مرتجفةٍ امتدّت لغوث قدّيس القدّيسين، وقرين النفوس النقيّة.

الضجّة الرهيبة التي أحدثها سقوط الصليب في حفرته، أعقبها صمتٌ مقدَّس رهيبٌ، وإحساسٌ جديدٌ غير مألوف. فنفوس قدامى الأموات الذين كانوا ما برحوا ينتظرون الخلاص، أحسّت أنّ المحرّر قد جاء قارعًا باب سجنها. والجحيم ارتعدت من جرّاء اصطدام الصليب بالأرض. وبدا الصليب شجرة حياةٍ مغروسةً وسط العالم، وتجلّت جراح المخلّص ينابيعَ تتدفّق على الأرض، وتطهّرها من اللعنة القديمة، وتحوّلها إلى فردوسٍ جديد.

وجه المصلوب كان موجَّهًا جهة الجنوب الغربيّ، صوب روما، مركز العقيدة. وكان ارتفاع الصليب عن سطح الأرض لا يتعدّى قدمين. ويتيح لأصدقاء المصلوب تقبيل قدميه.

وبعد أن اطمأنّ الجلاّدون إلى صلب يسوع التفتوا إلى اللصّين اللذين كانا ملقَيَيْن أرضًا، وكلٌّ منهما مربوطٌ بعارضة صليبه. وكان الجزء العموديّ من صليب كلٍّ منهما مغروسًا ومثبّتًا في الأرض، فرفعوهما وأثبتوا عارضة كلّ مصلوب بجزئه العموديّ، بحبالٍ شدّوها شدًّا من القسوة بحيث طقطقت عظامهما، وفجّرت شرايينهما. وحينئذٍ قال اللصّ التائب: "لو أنّكم عاملتمونا بمثل الوحشيّة التي عاملتم بها الناصريّ المسكين، لما اضطررتم إلى رفعنا على الصليب!".

كان ذانك اللصّان عضوين في عصابةٍ خطيرةٍ، وسبق لهما أن ارتكبا جريمة قتل امرأةٍ مسافرةٍ وأبنائها. أكبرهما كان مجرمًا متمرّسًا، وهو الذي أغوى رفيقه وجرّه إلى ميدان الجريمة. ولا بدّ من التنويه بأنّ هذا الأخير كان ابن أُسرة لصوصٍ استضافت الأسرة المقدّسة، في أثناء هروبها إلى مصر. وكان ذلك اللصّ حينذاك طفلاً مصابًا بالبرص وغسلته أُمّه بالماء الذي كانت العذراء قد غسلت به ابنها يسوع، فشفي من برصه. وها إنّ فرصةً جديدةً تتاح له كي يردّ له الربّ جميل والديه.

عقب صلب يسوع انصرف الجلاّدون إلى اقتسام ثيابه التي جعلوا منها أربع حصص، وأخذ كلٌّ منهم قسطه منها. ولكنّهم اختلفوا حول ثوبه الصوفيّ المحاك قطعةً واحدةً، والذي لو مُزِّق لما كان لأيّ جزءٍ منه فائدةٌ أو ثمنٌ، فلجأوا إلى الاقتراع عليه. ولكن فيما كانوا عاكفين على هذه القسمة، جاءهم رسولٌ من قبل نيقودمس ويوسف الأريماثيّ ناصحًا بالاحتفاظ بكلّ ثياب يسوع كما هي، إذ إنّ هناك، في أسفل التلّة، من ينتظرهم كي يدفع لهم ثمنًا مجزيًا لقاءها كلّها، فجمعوها وباعوها، دفعةً واحدةً، لقاء مبلغٍ ما كانوا قطّ ليحلموا به. وهكذا غنموا هم مالاً، وغنم محبّو يسوع ذخائر لا تثمَّن بمالٍ.

من جرّاء نصب الصليب اهتزّ إكليل الشوك بعنف مفجّرًا من هامة المصلوب ينابيع دماء، وكان الجلاّدون قد ربطوا جذع الفادي إلى الصليب بحبالٍ ربطًا شديدًا، تفاديًا لهبوط جسده من جرّاء تمزّق يديه، وكانت الحبال المشدودة قد أعاقت مؤقّتًا سريان الدم في شرايينه، حين كان جسده في وضعٍ أُفقيٍّ، ولكن بعد أن ارتفع الصليب، اعتلى الجلاّدون سلالم وفكّوا الحبال، فتدفّق الدم بغزارةٍ من رأسه ومن كلّ جسمه، فأُغمي على المصلوب، وهوى رأسه على صدره، وبدا، خلال بضع دقائق، وكأنّه قد فقد الحياة.

وهنا تقول الرائية: "برعدةٍ وتعاطفٍ، رمقتُ يسوع، خلاصي وخلاص العالم، غائب الوعي، ولكأنّه ميتٌ، وخُيّل إليّ أنّني، أنا أيضًا، سألفظ أنفاسي الأخيرة. كان قلبي يطفح مرارةً، وألًما، وحبًّا، وكان رأسي مطوّقًا بإكليل شوكٍ، يكاد يذهب برشدي. يداي ورجلاي كانت تحاكي أتونًا ملتهبًا، واجتاحت آلامٌ، يتعذّر وصفها، أعضائي وأحشائي، وعروقي، وأعصابي، وتشابكت، مثيرةً فيّ أوجاعًا تندّ عن الوصف. غير أنّ الحبّ كان يطغي على الألم. وفي لجّة ذلك الليل الدامس، لم أكن أرى سوى خطيبي معلّقًا على الصليب، موفّرًا العزاء للنفوس جمعاء".

كان الدم يخضّب شعر رأسه ولحيته، ويغشى عينيه، وفمه الفاغر. كان رأسه المثقل بإكليل الشوك المريع متّكئًا على صدره. كتفاه، ومرفقاه، ومعصماه،

وفخذاه وساقاه، كانت مخلّعةً، مفكّكةً، وكان ما أصاب جسمه من توتّرٍ وعضلاته من تمزّقٍ يمكّن من إحصاء عظامه كلّها (مزمور ٢١ : ١٧–١٨).

وعلى كلّ جسده انتشرت كدماتٌ مريعةٌ من كلّ لونٍ: قاتمة، وزرقاء وصفراء، وكان الدم المنثال من يديه ورجليه يضرّج كلّ شجرة الصليب، متحوّلاً، شيئًا فشيئًا، من اللون القرمزيّ إلى لونٍ شاحبٍ. وكان لون جسده لا يني يزداد شحوبًا، محاكيًا جثّةً أُفرغت من دمها، ومع ذلك ما انفكّ يوحي بجلالٍ مهيبٍ. فابن الله، الحبّ الأبديّ، المقدَّم ضحيّةً، في الزمن، ظلّ جميلاً، رائع الطهر والقداسة، حتّى في جسد ذلك الحمل الفصحيّ المضحَّى به عن خطايا البشر أجمعين".

كان ليسوع صدرٌ عالٍ وعريضٌ، قليل الشعر، وكتفان واسعتان، وذراعان بارزتا العضل، وركبتان منيعتان، ركبتا مَنْ أَلِفَ السير الطويل، والركوع المتمادي للصلاة؛ وكان له قدمان جميلتا الشكل، اخشوشنتا من جرّاء سيره حافيًا، ويدان جميلتان تزيّنهما أصابع رشيقةٌ، ولكن على غير نحافة، ولا خشونةٍ. وكانت عنقه طويلةً، منيعةً، مكتنـــزة العصب. وكان رأسه متناسقًا، وجبينه عاليًا منفتحًا. وجهه كان بيضاويّ الشكل، ناصع النقاء. وكانت بشرته بيضاء، متّشحةً بألوانٍ خفيفةٍ، تحاكي بشرة أُمّه العذراء. غير أنّ أتعاب السنوات وأسفارها الأخيرة قد خضّبت وجنتيه بالسمرة. وكان شعره الأشقر الكثيف مفروقًا في أعلى جبينه، ومرسلاً على كتفيه. وكانت لحيته قصيرةً دقيقةً، مفروقةً فوق ذقنه.

أمّا صليبه فكان مستدير الظهر، مسطّح الجانب الأماميّ، وكان عرضه يساوي سماكته، والأخشاب التي تؤلّفه متباينة الألوان، يجاور فيها البنّي الأصفر، فيما كان الجذع داكنًا.

صليبا اللصّين كانا أسوأ صنعًا، وأقصر طولاً، وكانا متقابليْن بحيث يرى كلٌّ منهما الآخر. أحدهما كان يصلّي، معبّرًا عن توبته، فيما الآخر كان ثملاً، لا يتفوّه إلاّ بالشتيمة والتجديف. وكان منظرهما مريعًا، فقد اكفهرّ وجههما من الألم، وشحبا، وجحظت عيناهما المضرّجتان بلون الدم، واسودّت شفاههما.

## أقوال يسوع على الصليب

فرغ الجلاّدون من مهمّة الصلب، وانصرفوا، وفي إثرهم انصرف الفرّيسيّون الممتطون خيولاً، بعد أن أفرغ هؤلاء وأولئك ما حفلت به نذالتهم من شتائم. واستُبدل الجند الرومانيّون المئة بكتيبةٍ من خمسين جنديًّا يقودها ضابطٌ عربيّ المحتد يُدعى "أبينادر"، دان بالمسيحيّة لاحقًا، وتعمّد معتنقًا اسم "كتيزيفون". وكان معاونه رومانيًّا مكلّفًا بخدمة بيلاطس، يُدعى "كاسيوس"، اعتنق هو أيضًا المسيحيّة، وكان اسم عماده "لونجن".

ومرَّت جماعةٌ من زعماء اليهود للاطمئنان على تنفيذ جريمتهم، ضمّت اثني عشر صدّوقيًّا، واثني عشر فرّيسيًّا، واثني عشر كاتبًا. وكان بينهم أولئك الذين طالبوا بيلاطس بتغيير علّة الحكم التي وصفت الناصريّ بأنّه "ملك اليهود"، وانتقامًا لأنفسهم من ازدراء بيلاطس لهم ورفض الاستجابة لمطلبهم، انقضّوا على العذراء، وكالوا لها أقذر الأوصاف، وطردوها من مسرح الصلب، فسارع يوحنّا إلى النأي بها إلى حيث كانت النساء القدّيسات، ففتحت لها شقيقتا لعازر، مرتا والمجدليّة، ذراعيهما وقلبيهما. وبعد أن جال أولئك اليهود الموتورون في ساحة جريمتهم، توقّفوا أمام الفادي المصلوب، وأمطروه بعبارات الشماتة والتحقير، قائلين: "أنت يا من يدمّر هيكل الله ويعيد بناءه في ثلاثة أيّام، خلّص نفسك! وإن كنت ابن الله، انزل عن الصليب. لقد أنقذ آخرين، وها هو عاجزٌ عن إنقاذ نفسه. إن كان ملك إسرائيل، فلينـــزل الآن عن الصليب فنؤمن به!".

وكان الجنود، أيضًا، يشتمون المخلّص شامتين. وكذلك فعل لصّ اليسار الشرّير، فلمّا رأى المخلّص مغميًّا عليه قال: "ها قد هجره شيطانه". وحينئذٍ وضع جنديٌّ أسفنجةً مشبعةً خلاًّ على طرف قصبةٍ، ورفعها إلى شفتي يسوع الذي تظاهر بتذوّقها، ولكنّه أشاح عنها، ورفع رأسه قليلاً، وخاطب الآب قائلاً: "يا أبتِ اغفر لهم، فهم لا يعرفون ما يفعلون".

وحده اللصّ التائب تأثّر، لدى سماعه يسوع المصلوب يسأل الغفران لأعدائه وقتلته. ولّما سمعت العذراء صوت ابنها يخاطب الآب السماويّ، تخلّت عن كلّ تحفّظٍ وهرعت نحو الصليب، وأحجم قائد المئة عن ردّها، فلحق بها، في الحال، يوحنّا، وصالومة، ومريم أُختها الكبرى؛ وأفعمت النعمة نفس اللصّ التائب لدى مشاهدته لوعة العذراء، فخاطب اليهود بصوتٍ جهوريٍّ جليٍّ: "كيف يسعكم شتم هذا البارّ وهو يصلّي لأجلكم! لقد احتمل، صامتًا، كلّ إهاناتكم. إنّه نبيٌّ، وهو ملكنا وابن الله!". فتعالت هتافات الاستنكار وسادت الفوضى، وشرع رعاعٌ يجمعون حجارةً كي يرجموه، ولكنّ قائد المئة، "أبينادر" ردعهم وطردهم. والتفت اللصّ التائب إلى رفيقه بالقول: "ألا تخاف الله، وأنت محكومٌ بنفس العقاب! أمّا نحن، فقد أُدِنّا بحقٍّ، وإنّنا نؤدّي العقاب الذي استحقّته جرائمنا. ولكنّ هذا لم يرتكب شرًّا، فلا تغفل عن ساعتك الأخيرة، وارعوِ!". كان يفيض تأثّرًا، مستنير النفس، واعترف ليسوع بخطاياه، قائلاً: "إذا أنت أدنتني، يا ربّ، فستكون إدانتك عادلةً، ولكن ارحمني". فأجابه يسوع: "ستشعر برحمتي"، فغشت نفسه مشاعر توبةٍ صادقةٍ.

وحينئذٍ جرت، في الطبيعة، علاماتٌ خارقةٌ ألقت الرهبة في قلوب الحاضرين، وأدَّت إلى تحوُّلٍ جوهريٍّ في مواقف معظمهم. فبعد انهمار البَرَد في الصباح، أشرقت الشمس، ثمّ غشت السماء سحبٌ حمراء، وبغتةً، بُعَيْد الظهر، ساد ظلامٌ مشبعٌ رعدةً، وجالت في الأجواء أجسام حمراء غريبةٌ، وتحرّك القمر تحرّكاتٍ غير مألوفة، وكسفته جبالٌ سوداء، واصطبغت النجوم بلون الدم، واعترى الذعر البشر والحيوانات، وأطلقت المواشي والحيوانات الأليفة صيحاتٍ منكرةً، وهامت الطيور باحثةً عن ملجأ آمن، حتّى بين أيدي البشر. واستولى الذعر حتّى على الفرّيسيّين الذين توقّفوا عن شتم المصلوب، وعبثًا حاولوا تفسير ما يحدث بعوامل طبيعيّة، ولكنّهم في دخيلة نفسهم، كانوا يرتجفون جزعًا. وكانت كلّ العيون شاخصةً إلى السماء، وشوهد كثيرون يقرعون صدورهم، ويفركون أيديهم قائلين:

"دمه على قاتليه". وارتمى كثيرون على ركبهم ملتمسين الغفران. وكان المصلوب، في غمرة آلامه، يرنو إليهم بنظرات عطفٍ ورأفةٍ.

وفيما كانت الظلمة تتكاثف، والقوم ينأون، شيئًا فشيئًا، عن موقع الصليب، الذي كاد يخلو إلاّ من أُمّ المصلوب، ومن الأوفياء لها ولابنها، فاض قلب اللصّ التائب تأثّرًا وندمًا ورجاءً، وبتواضعٍ سحيقٍ رفع ناظريه إلى يسوع قائلاً: "يا سيّد اذكرني عندما ستصير إلى ملكوتك!". وفي الحال أجابه المخلّص: "الحقّ أقول لك، في هذا اليوم عينه ستكون معي في الفردوس".

في هذه الأثناء لبثت العذراء، وأُختها مريم زوجة كليوبا، والمجدليّة، ويوحنّا واقفين على مقربةٍ من الصليب. وقد استحوذ الحبّ الأُموميّ على الأُمّ العذراء، فراحت تصلّي متوسّلةً ابنها أن يتيح لها الموت تزامنًا مع موته. فألقى عليها يسوع نظرةً تفيض رقّةً وعطفًا، ثمّ التفت نحو تلميذه الأثير يوحنّا، وقال لأمّه: "يا امرأة، هوذا ابنك". وألحق قوله بإشادةٍ برسوله، معلنًا: "لقد ظلّ، دائمًا، وفيًّا وثابتًا في إيمانه". وليوحنّا قال: "هذه هي أمّك!" وبرهن يوحنّا عن برّه، فأقبل على يدي العذراء التي أمست أُمّه، بإرادة ابنها الإلهيّ، فقبّلهما، عند أقدام صليب الفادي المحتضر. وحيال رقّة ابنها هذه أخذ التأثّر والألم بالعذراء كلّ مأخذٍ، فأُغمي عليها، وهوت بين أذرع مرافقاتها، اللائي اقتدنها، بتجلّةٍ، إلى سائر النساء القدّيسات.

## قول يسوع الرابع على الصليب

ساد الذهول والاضطراب في أورشليم التي غلّفها ضبابٌ كثيفٌ، فغدا القوم يتلمّسون طريقهم بحذرٍ. كثيرون اطّرحوا أرضًا، مغطّين رؤوسهم، وقارعين صدورهم. وآخرون اعتلوا أسطحة منازلهم، وحدّقوا إلى السماء منتحبين. والحيوانات اختبأت مطلقةً صيحات الخوف، والطيور طارت ملامسةً الأرض، أو هوت عليها، وقد جمّدها الذعر.

تبادل بيلاطس وهيرودس الذهول والهواجس، وراحا يراقبان السماء من

الشرفة التي كان بيلاطس، في صبيحة ذلك اليوم عينه، قد شاهد الربّ تحت وابل إهانات الرعاع. لقد أقرّا أنّ أمرًا منكرًا قد حدث، وأنّهما، كليهما، أمعنا في الإجحاف بحقّ الناصريّ. وانطلقا معًا، بخطًى واسعةٍ، محاطَيْن بحرسهما، وكان بيلاطس يتهيّب التطلّع إلى محكمته التي منها أدان المخلّص، ولكنّه استدعى إلى قصره زعماء اليهود، واستفسرهم، عن مغزى الظواهر المأساويّة الجارية، التي كان يرى فيها تعبيرًا عن غضب الله، واستنكاره جريمة تعنّتهم وإلحاحهم في قتل نبيّهم، ومليكهم، ولكنَّهم ظلّوا سادرين في غيّهم، وتحجُّر قلوبهم، ومقتهم لمسيحهم، وادّعائهم أنّ ما يجري لا يعدو كونه ظواهر طبيعيّة. غير أنّ كثيرين من عامّة الشعب ارتدّوا، وتابوا، ولا سيّما الجنود الذين كُلِّفوا بالقبض على يسوع في بستان الزيتون، والذين صرعتهم مهابته، وجلاله، وسجوّ نفسه، وأنهضتهم رحمته.

وتجمهر قومٌ حول بيلاطس، حيث كانوا قد هتفوا في الصباح: "أزله عن الوجود، اصلبه!" وغدوا يصيحون الآن "فليسقط الحاكم الظالم! وليكن دم البريء على قاتليه!". واضطرّ بيلاطس إلى الاستحاطة بالعديد من جنوده؛ ومتناسيًا جريمته، وازدراءه للحقّ، أنحى على اليهود بأشدّ لومٍ، متنصّلاً ممّا اقترفه، وقائلاً إنّ يسوع هو نبيّهم لا نبيّه، وإنّهم هم الذين ألحّوا في المطالبة بإعدامه.

وفي الهيكل ساد الاضطراب والذعر، ففيما كان الكهنة عاكفين على التضحية بالحمل الفصحيّ بسطت العتمة، بغتةً، سجُفَها، في غير أوانها. وفي محاولةٍ لطرد الخوف والهواجس، وضبط النظام، أمر الحاخامون بإضاءة جميع المنارات والمصابيح. ولكنّ الاضطراب ما انفكّ يتصاعد ويشتدّ، ولا سيّما أنّ حنّان شوهد مروَّعًا يجري من زاويةٍ إلى أُخرى بحثًا عن مخبأٍ، وأنّ النوافذ كانت ترتجّ، والأرض تهتزّ.

في جوار الصليب تكثّفت الظلمة، وشاع الجزع، وخرست الأصوات، وتطلّعت الأنظار قلقةً إلى السماء، واستيقظت ضمائرُ كثيرةٌ، وشخصت العيون الخائفة نحو الصليب، وشرع كثيرون يقرعون صدورهم ندمًا. وأحاقت بقرص

الشمس الذي اصطبغ باللون الرماديّ هالةٌ حمراء، وتلألأت النجوم بألقٍ فائقٍ. والتصقت خيول الفرّيسيّين وحميرهم بعضها ببعضٍ مطرقةً برؤوسها، فيما كان ضبابٌ كثيفٌ يلفّ الكون.

كثيرون عادوا إلى منازلهم، وكانت العذراء والنساء القدّيسات المرافقات لها ويوحنّا قد نأوا ريثما تستعيد الأمّ المفجوعة روعها، وساد صمتٌ صفيقٌ حول الصليب مضاعفًا شعور المصلوب بالوحدة، والتخلّي، وفقدان كلّ عزاءٍ. فراح يصلّي من أجل قاتليه، وأعدائه وأحبابه، تاليًا المزامير والنبوءات التي كانت تتحقّق في تلك اللحظات، معانيًا كلّ ما يعانيه إنسانٌ رازحٌ تحت وقر العذاب، والانهيار، والتخلّي التامّ، محرومٌ من كلّ مواساةٍ بشريّةٍ أو إلهيّةٍ، بعد أن فقد إيمانُه ورجاؤه ومحبّتُه كلَّ نور، وكلّ عونٍ محسوسٍ، وتاه وحيدًا في صحراء المحنة، وما عاد يحيا إلاّ بقواه الذاتيّة، وسط غمٍّ قاتلٍ.

بهذا الألم الذي يندّ عن الوصف، اكتسب لنا يسوع القدرة على الصمود في وجه محنة التخلّي الأقصى، عندما تنفصم كلّ الأواصر التي تربطنا بالحياة والوجود والعالم، وعندما يهجرنا كلّ تطلّعٍ إلى حياةٍ أُخرى، وكلّ وجودٍ آخر. فحينئذٍ حسبنا أن نضمّ شعورنا بالتخلّي إلى استحقاقات شعور يسوع على الصليب.

لقد قدّم لنا يسوع، نحن الخطأة، فقره وبؤسه، وآلامه، وشعوره بالتخلّي، لكي لا يخشى، بعدُ، أيُّ إنسانٍ متّحدٍ به، قنوط الساعة القصوى، عندما تكتنف الظلمات كلّ شيءٍ، ويتلاشى كلّ نورٍ، وعزاء. وأنقذنا من التيه، وحيدين، في صحراء الليل النفسيّ، إذ إنّه، بإلقائه تخلّيه الذاتيّ في هوّة هذا التخلّي، لم يدَع أيّ إنسانٍ وحيدًا، في نزاعٍ محرومٍ من العزاء. ولم يعُدْ على المسيحيّ اجتياز صحراء الوحدة والتخلّي والقنوط، في نزاعه الأخير، بعد أن سلك المخلّص هذا الدرب المعتم، وأطاح بكلّ رهبته، عندما غرس صليبه في تربته.

يسوع الفقير، المهجور، المجرّد من كلّ شيءٍ، منح ذاته، كما يفعل الحبّ، وجعل من تخلّيه ذاته كنـــزا ثرًّا. قدّم شخصه، وحياته، وأعماله، وحبّه وآلامه،

وشعوره المرير بجحودنا، مدوِّنًا وصيّته أمام الله. وهب الكنيسة والخطأة كلّ استحقاقاته، وفي غمرة تخلّيه، جال في خاطره، جميع البشر الذين سيتعاقبون حتّى نهاية الأجيال.

في ذروة آلامه قدّم المخلّص دليلاً على شعوره المضني بالتخلّي، من خلال صرخةٍ، أتاحت لجميع المفجوعين الذين يعترفون بالله أبًا، أن يوجّهوا له، من أعماق نفوسهم، أنّةً بنويّةً. فقد صاح المصلوب من أغوار نفسه، وبصوتٍ جهيرٍ: "إيلي، إيلي، لّما شبقتني" أي إلهي، إلهي، لِمَ تخلّيت عنّي!

أمّا الأُمّ العذراء، فما إن قرع سمعَها صوتُ ابنها، حتّى لم يعُد شيءٌ يقوى على ردعها، فجرت حتّى أقدام الصليب، وفي إثرها يوحنّا، وأختها الكبرى مريم، والمجدليّة، وصالومة.

وفيما كان أفرادٌ من الشعب ينتحبون مرتعدين، مرّ بمكان الصلب موكبٌ من نحو ثلاثين خيّالاً، من عليّة القوم، قادمين من الجليل بغية الاحتفال بالفصح، وهالهم ما انتهى إليه المسيح من جرّاء التنكيل المسرف، والانتقام الشيطانيّ اللذين استنكرتهما الطبيعة نفسها بظواهر مخيفة، فجأروا مستنكرين: "الويل لهذه المدينة! لو لم تكُنْ تحتضن الهيكل لتوجّب إحراقها، لأنّها أخذت على عاتقها هذه الجريمة النكراء!".

هذه الصيحة مدّت بالجرأة المستنكرين الصامتين خوفًا، فتجمهروا، وأعربوا، بلا وجلٍ، عن مقاومتهم لمرتكبي جريمة صلب المخلّص. وماجت نفوس الفرّيسيّين اضطرابًا. واتّقاءً لنشوب ثورةٍ شعبيّةٍ، أنفذوا إلى بيلاطس طلبًا بإرسال كتيبة دعمٍ وحمايةٍ قوامها خمس مئة عنصر، وطلبًا آخر إلى هيرودس باستنفار حرسه، كما طالبوا بإغلاق الأبواب المؤدّية إلى أورشليم.

ولكن بعد الساعة الثالثة أخذ الجوّ ينقشع رويدًا رويدًا، وكلّما انقشع كان الفرّيسيّون يستعيدون جرأتهم الوقحة، وشتائمهم، غير أنّ قائد المئة "أبينادر" ألزمهم الصمت والامتناع عن كلّ تحريضٍ، أو إهانةٍ للمصلوب، حؤولاً دون استنهاض الشعب.

## أقوال المصلوب الأخيرة، وموته

مع انقشاع الظلمة بدا جسد الربّ أكثر إعياءً وأشدّ شحوبًا، من جرّاء فراغه من الدم، وسُمِعَ يتمتم: "لقد عُصرتُ كما يُعصر العنب هنا. وعليّ أن أجود بكلّ دمي، إلى أن ينضح جسدي ماءً". كان المصلوب يتضوّر عطشًا، وقد جفّ لسانه، فلام أصدقاءَه لأنّهم لم ينتهزوا فرصة انتشار الظلمة، ويزوّدوه ببضع قطرات ماءٍ، فأجابه يوحنّا محاولاً تبرير تقصيره: "لقد نسينا، يا ربّ!"، فتمتم يسوع بأسى: "كان على ذويّ أيضًا أن ينسوا إرواء عطشي، لكي تتحقّق النبوءات!". لقد أوجعه هذا الإهمال في الصميم. وحينئذٍ رشا أصدقاء الربّ جنودًا كي يرووا عطش المصلوب، ولكنّ الجنود أخذوا مال الرشوة، وعوضًا عن تزويد المصلوب بماء، غطّسوا اسفنجةً في خلّ، وأضافوا إلى الخلّ حنظلاً، وهمّوا بتقديمها إلى الربّ، غيرَ أنّ الرأفة أخذت بمشاعر قائد المئة، فأخذ الاسفنجة وأفرغها من محتواها، ثمّ ملأها خلاً صرفًا وزوّد الاسفنجة بقصبة تتيح للمصلوب امتصاص محتواها.

وخاطب المصلوب الحضور قائلاً: "عندما سيخرس فمي، سيتكلّم الأموات". فأعلن بعضُ الفرّيسيّين: "ها هو يجدّف ثانيةً". ولكنّ "أبينادر" أمرهم بالتزام الصمت.

وأزفت ساعة الفداء، وبدأ المسيح يصارع الموت، وأخذت أعضاؤه تنضح عرقًا باردًا. كان يوحنّا أمام أقدام ربّه المصلوب، ينشفّها بكفنه، فيما المجدليّة التي حطّمها الحزن كانت ملتصقةً بشجرة الصليب، والأُمّ العذراء واقفةً بين صليب ابنها وصليب اللصّ التائب تراقب موت ابنها، يساندها كلٌّ من صالومة، وابنة أختها الكبرى مريم ابنة كليوبا. حينئذٍ قال يسوع: "تمّ كلّ شيءٍ". وفي جهدٍ أخيرٍ، رفع رأسه نحو السماء، وصاح: "يا أبتِ، بين يديك أستودع روحي". كانت صرخةً رقيقةً، ولكنّها نفّاذةً، اخترقت الأرض والسماء. وحينئذٍ أمال المخلّص رأسه، وسلّم روحه. فارتمى يوحنّا والنسوة أرضًا، معفّرين جباههم بالرغام. أمّا قائد المئة "أبينادر" فكان، مذ قدّم اسفنجة الخلّ للمصلوب، قد استحوذ عيه اضطرابٌ شديدٌ، ولم يعد

يقوى على صرف نظره عن محيّا المصلوب المتألّم، وهامته المكلّلة بالشوك. فظلّ، فوق صهوة جواده، ساهمًا، مذهولاً، ضحيّةً لعاصفةٍ نفسيّةٍ صاخبةٍ.

حينئذٍ، اهتزّت الأرض، وتشقّقت الصخور، وانحفرت فجوةٌ بين صليب يسوع وصليب اللصّ الشرّير. واخترق سيف الحزن قلب محبّي يسوع. وهبطت النعمة على نفس قائد المئة "أبينادر"، ومثلما انفلقت الصخرة، انفلق قلبه الذي كان حتّئذٍ يموج كبرياءً، فقرع صدره، وهتف بنبرة إنسانٍ جديدٍ: "تبارك الله، كلّيّ القدرة. لقد كان هذا الرجل بارًّا، وهو، حقًّا، ابن الله". وقد تأثّر بأقواله العديد من جنوده، وآمنوا مثل إيمانه. حينئذٍ أوكل "أبينادر" فرسه وحربته لمعاونه، وانطلق كي يخبر تلاميذ يسوع بموت معلّمهم، ويُطلع بيلاطس على هذه الوفاة.

وانتقلت عدوى ارتداد "أبينادر" إلى جمعٍ غفيرٍ من الحضور، وحتّى إلى فئةٍ من الفرّيسيّين الذين وافوا مستطلعين، ولا سيّما بعد أن انشقّ حجاب الهيكل، وانهارت مبانٍ، وبُعث أمواتٌ من قبورهم. وساد النحيب، والاستغفار، وراجت مشاهد ذرّ التراب على الرؤوس، وتمزيق الثياب. وبالإجمال خيّم الذهول والرعب، وتسابقت نسوةٌ من أجل إبعاد العذراء المفجوعة عن موقع الصلب، ومواساتها، وشدّ أزرها.

وبعد أن أودع المخلّص نفسه بين يدي أبيه تجلّت عليه أمارات الموت، فانتفض جسده، وساده الشحوب مبرزًا الكدمات القاتمة التي انتشرت عليه، وانفرجت قليلاً عيناه المغمورتان بالدماء، وشفتاه الجافّتان اللتان كبا لونهما، وارتفع قليلاً رأسه المكلّل بالشوك، ثمّ هوى على صدره، وارتخت ذراعاه.

ولّما رأت العذراء ذلك، انسحبت غمامةٌ على عينيها فأطبقتهما. ولم تعد أُذناها تسمعان شيئًا، وكسا محيّاها شحوب الموت، وعجزت رجلاها عن حملها فهوت أرضًا، ومعها هوى أرضًا يوحنّا، والمجدليّة وأُخريات، رازحين تحت وقر حزنٍ ساحقٍ. تلك الأُمّ المفجوعة، أرقّ الأُمّهات قاطبةً، صعقتها رؤية جسد ابنها الذي

كان الروح القدس قد زرعه في أحشائها، وأصبح جسد جسدها، وقلب قلبها، وقد جُرِّد من بهائه الإلهيّ، مفصولاً عن نفسه القدّيسة، مهانًا، مشوّهًا، مقتولاً بأيدي البشر الذين تجسّد من أجل خلاصهم، مصلوبًا وسط مجرميْن. رأت إناء الحقيقة منبوذًا نبذ البرص. وفيما كان اللصّان المصلوبان يتلوّيان ألمًا، كان جسد يسوع الهامد يوحي بالتجلّة والخشوع. وآنذاك تجلّت أُمّه ملكةً للشهداء.

في جوار الصليب ساد الصمت والحداد. ومن بعيدٍ كان تلاميذ يسوع يلقُون نظراتٍ خائفةً إلى الصليب، ويتوارون حالما يشعرون بوطء أقدامٍ قادمةٍ.

## اهتزاز الأرض . وظهور أموات في أورشليم

إثر انقشاع الجوّ، وعودة شيءٍ من النور، كان اليهود، ولا سيّما أولئك الموجودين في الهيكل، قد شرعوا يستعيدون روعهم، وإذ بالأرض تهتزّ، وبأبنيةٍ تتهاوى أنقاضًا، مشيعةً الذعر، ذعرًا كان يتعاظم كلّما صدف الفارّون المنتحبون أمواتًا يهدّدونهم بأصواتٍ مريعةٍ، ويدعونهم إلى التوبة عن جريمتهم الكبرى. واستحوذ الرعب على الكهنة عندما انشقّ حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، وانكشف قدس الأقداس للعيان، واستولى على الشعب خوفٌ مكتومٌ، سرعان ما تفجّر نحيبًا. وفيما كان الكهنة المكابرون، جاهدين في إعادة الهدوء والاطمئنان، يواصلون طقوسهم وإنشادهم، ظهر أمواتٌ في الهيكل أيضًا، وعُدَّ ظهورهم تدنيسًا للهيكل فتوقّفت الطقوس، وتبدّد المصلّون. وانتشرت فوضى عارمة. وعبثًا جَهِدَ رئيس الكهنة في تهدئة النفوس مدّعيًا أنّ كلّ ما يحدث لا يعدو كونه أعراضًا طبيعيّة، لا تحمل أيّة دلالةٍ على براءة يسوع. غير أنّ كلّ جهوده تبدّدت سُدًى إذ تهاوى العمودان المنصوبان عند مدخل قدس الأقداس، وانتشر في أرجاء الهيكل أبرارٌ أموات مذكّرين بجرائم زعماء اليهود: فزكريّا، رئيس الكهنة الذي اغتيل بين الهيكل والمذبح، أطلق تهديداتٍ معيدًا إلى الأذهان مقتل يوحنّا وثلّةٍ من الأنبياء، واعتلى المنبر ابنا رئيس الكهنة البارّ سمعان، وندّدا بقتل الأنبياء، وتنبّآ بانتهاء طقوس الأضاحي الدمويّة، ودعيا إلى اعتناق تعاليم

يسوع المصلوب. وأيّدهما النبيّ إرميا وأعلن إلغاء طقوس الأضاحي، واستبدالها بتضحياتٍ أُخرى، ولكن بما أنّ الهيكل كان قد خلا من المصلّين ولم يتلبَّث فيه غير الكهنة، فقد أَمرهم قيافا بإبقاء هذه الظهورات طيّ الكتمان، منذرًا بالثبور كلّ من يتجرّأ على التفوّه بكلمةٍ عمّا يتعلّق بها.

وبغتةً فتحت أبواب الهيكل محدثةً صخبًا مروّعًا، وسُمِع صوتٌ يهتف: "فلنخرج من هنا". وحينئذٍ ارفضّ ملائكة الهيكل عنه، ولحق بهم نيقودمُس، ويوسف الأريماثيّ وكثيرون آخرون، وبأمر الملائكة عاد الأموات إلى مدافنهم. وأنحى فرّيسيّون باللائمة على حنّان وقيافا.

فحنّان الذي كان ألدّ أعداء الربّ، بدا وكأنّ الخوف قد ذهب بعقله، وأنّ مسّ جنونٍ قد أصابه، فراح يجري في كلّ اتّجاهٍ، محاولاً الاختفاء متنقّلاً بين حُجَر الهيكل المقفرة المهجورة، حتّى اضطُرّ أتباعه إلى احتجازه. وقيافا، أيضًا، استولى عليه الذعر، وأطاح بثقته ظهور الأبرار الأموات، وتنديداتهم، ولكنّ شيطان الكبرياء والتصلّب كان متمكّنًا منه، فأمعن في تصنّع هدوءٍ زائفٍ، وفي تمويه الذعر الذي كان يلتهمه، من جرّاء ظواهر السماء الحافلة بالنذُر، عازيًا كلّ هذه الظواهر إلى أصدقاء الناصريّ الذين أشاعوا النجاسة في الهيكل، ومدّعيًا أنّ يسوع الناصريّ ما زال، في موته، ينشر الفوضى والنجاسة.

ولم يكن الذعر أخفّ وطأةً، ولا أضيق انتشارًا في أورشليم، حيث انهارت أضرحةٌ عدّةٌ، مسفرةً عن محتوياتها، وانهارت أيضًا أدراج محكمة قيافا، حيث أُهين يسوع، وظهر رئيس الكهنة البارّ سمعان، جدّ سمعان الصدّيق الذي تلقّى تقدمة المسيح، طفلاً، في الهيكل، وأدان بعباراتٍ رهيبةٍ، الحكم الجائر الذي صدر بحقّ يسوع، في مقرّ اجتماع عدّة أعضاء من السنهدرين. وفرّ الأشخاص الذين ساعدوا بطرس ويوحنّا على الدخول إلى قصر قيافا، والتحقوا بتلاميذ يسوع. والصخرة التي أرى بيلاطس الجموع يسوع واقفًا عليها عقب جلده، انفلقت. واهتزّ قصر

بيلاطس، وهوت التربة التي دفن فيها الأطفال الذين أمر هيرودس بقتلهم. وفي عدّة أحياءٍ من المدينة تشقّقت جدرانٌ وانهارت. ولكن لم ينهر أيّ مبنًى انهيارًا كلّيًّا.

وأخذ الرعب برشد بيلاطس المتطيّر، وفيما كان قصره يهتزّ، والأرض تميد تحت قدميه، كان يجري من حجرةٍ إلى حجرةٍ بحثًا عن مخبأٍ. وظهر في باحة قصره أمواتٌ مندّدين بحكمه الجائر، المنافي لكلّ عدلٍ، فانزوى في أكثر أماكن قصره عزلةً، وأحرق البخور لأصنامه سائلاً إيّاها حمايته من آلهة الجليليّ. وكان الرعب يعصف بذهن هيرودس، الذي أمر بإيصاد كلّ أبواب قصره.

عدد الأموات الذين ظهروا ناهز المئة، وبعضٌ منهم زاروا ذويهم، وأخذوا عليهم إسهامهم في إعدام يسوع. وتجمّعوا حيث كان صدر الحكم بصلب يسوع، ممجّدين المخلّص، ولاعنين قتلته. واستولى الذعر على جميع الأورشليميّين الذين راحوا يبحثون عن أكثر مخابئ منازلهم أمانًا. وأحجم معظمهم عن تناول الفصح.

وتكرّرت في عدّة أرجاء فلسطين ظواهر انتشار الظلمة في عزّ النهار، واهتزاز الأرض مشيعةً الرعب، وتهدّمت بيوتٌ كثيرةٌ تخصّ فرّيسيّين كانوا في أورشليم يحتفلون بالفصح. وطافت مياه البحيرة، التي شهدت تحرّكاتٍ عجيبةً. كلّ هذه النُذُر لجمت متشدّدي اليهود عن اضطهاد أتباع الكنيسة الوليدة، فترةً من الزمن.

## يوسف الأريماثيّ يطلب من بيلاطس استلام جثمان يسوع

ما كادت أورشليم تستعيد بعض هدوءٍ حتّى أوفد السنهدرين رسلاً يطالبون بتحطيم سيقان المصلوبين بغية تسريع موتهم، والتمكّن من إنزالهم ودفنهم قبل حلول السبت. وما كاد رسل السنهدرين يغادرون قصر بيلاطس حتّى وافاه يوسف الأريماثيّ طالبًا تسليمه جثمان المسيح لدفنه. وكان يوسف قد توافق مع نيقودمس على دفن يسوع في قبرٍ جديدٍ كان الأريماثيّ قد أعدّه لنفسه في بستانه الخاصّ، على مقربةٍ من الجلجلة، وكان قد كلّف خَدَمه بتنظيفه، وإعداده فيما كان نيقودمس يبتاع الأكفان والحنوط، ومستلزمات الدفن.

كان بيلاطس فريسة اضطرابٍ شديد، وقد زاده اضطرابًا التماس أحد أعيان اليهود استلام جثمان يسوع من أجل تكريمه ودفنه دفنًا لائقًا، وكأنّه يلتمس مكرمةً غاليةً، فاتّضحت له جسامة خطيئته بتسليم ذلك البريء لموتٍ مغرقٍ في المهانة، ولكنّه جهد في كتم مشاعره وتمويهها. ولكنّ وصول قائد المئة "أبينادر" ما لبث أن سعّر نيران ندمه وتبكيت ضميره. ولا سيّما أنّ الضابط حرص على أن يروي له تفاصيل موت الناصريّ، وأقواله الأخيرة، الطافحة شهامةً وغفرانًا لأعدائه، وصرخته الختاميّة، التي اهتزّت لها الأرض، وانشقّت لها الصخور. ولكلّ هذه الأسباب لم يتردّد بيلاطس في السماح للأريماثيّ بتسلّم جثمان المخلّص ودفنه دفنًا كريمًا، إذ كان يرى في ذلك تخفيفًا لتبكيت ضميره، وأيضًا انتقامًا من كهنة اليهود وفرّيسيّيهم الذين كانوا يعتزمون دفن يسوع مع القتلة والمجرمين، إيغالاً في إرواء الحنق الذي تموج به نفوسهم. ومن ثمّ أمر بيلاطس ثلّةً من ضبّاطه بمرافقة الأريماثيّ ومساعدته على أداء مهمّته.

على الجلجلة كان يخيّم صمتٌ كئيبٌ، فالجموع المصدومة، تبدّدت. ولم يبقَ على مقربةٍ من الصلبان سوى العذراء ويوحنّا، والمجدليّة، وابنة أُخت العذراء وصالومة، حاجبين الرؤوس منتحبين، وعددٌ من الجنود غارسين حرابهم أرضًا. وكانت السماء مكفهرّةً، والطبيعة حادّةً. وما لبث أن وافى ستّة جلاّدين حاملين سلالم وفؤوسًا وحبالاً، وهراواتٍ حديديّةً بغية تحطيم سوق المصلوبين. واستولى الذعر على العذراء، خشية أن يمعن الجلاّدون في تشويه جثمان الربّ، ولكنّ هؤلاء بعد أن ارتقوا السلالم وجسّوا جسد يسوع وجدوه متجمّدًا، باردًا، تركوه وشأنه، وانتقلوا إلى اللصّين، فحطّموا لكلٍّ منهما ذراعيه وساقيه، وبما أنّ اللصّ الشرّير كان يطلق صرخاتٍ مريعةً وشتائم، فقد أنحوا بثلاث ضرباتٍ على رأسه، فأخرسوه. ثمّ فكّوا الحبال فهبط الجثمانان على الأرض، فجرّوهما إلى مدفنٍ جماعيّ.

ولكن بما أنّ بقيّة شكٍّ كانت ما برحت تراود الجلاّدين، بادر قائد المئة "كاسيوس"، وهو شابٌّ في الخامسة والعشرين من عمره، مُنتَشٍ بالسلطة وكَلِفٌ

بالتباهي، إلى طعن جنب يسوع الأيمن بحربته التي اخترقت قلبه ونفذت حتّى الجانب الأيسر من صدره، مفجّرةً دفق دمٍ وماءٍ، غمر وجهه، وكان له منبع نعمةٍ وخلاصٍ وشفاء، فقد كان ذلك الضابط يشكو من علّةٍ في عينيه، وإذ بهذه العلّة تزايله بمجرّد انسكاب مزيج الدم والماء الإلهيّين عليهما. ويجدر بالتنويه أنّ الماء يرمز إلى العماد، والدم إلى الإفخارستيّا. ومنذئذٍ تحوّل "كاسيوس" إنسانًا آخر، متواضعًا وديعًا، فجثا على ركبتيه قارعًا صدره، مسبّحًا الله. وأُسوةً به جثا جنوده معلنين إيمانهم بألوهة المصلوب.

غير أنّ العذراء لم تحتمل رؤية طعن ابنها بحربة، بعد أن فقد الحياة، فجرت نحو الصليب، مطلقةً آهاتٍ تفطّر الأكباد، ولكنّها، منذ خطوتها الأولى، أُغمى عليها، وهوت بين أيدي مرافقاتها.

وبعد أن فرغ الجلاّدون من مهمّتهم، انصرفوا، فاسحين ليوسف الأريماثيّ أمر إنزال جثمان يسوع ودفنه.

## إنزال المخلّص عن الصليب وتحنيطه

موكبان قصدا الجلجلة أحدهما ضمّ يوسف الأريماثيّ ونيقودمس وثلّةً من خَدَمهما وقد جاؤوا بحنوطٍ وسلالم وحبالٍ، وقد سبقهم خدمٌ آخرون كي يشرعوا بالإعداد للمهمّة. ومرّ هذا الموكب أمام بيت العذراء حيث كان يوحنّا والنساء القدّيسات، وتزوّدوا بأقمشةٍ، وأكفانٍ، وأطيابٍ. وقد ارتدى جميعهم ثياب حدادٍ.

كانت الطرقات مقفرةً صامتةً، وقد حبست الرهبة الناس في منازلهم، رازحين تحت وقر الندم وتبكيت الضمير، وقد أضرب كثيرون حتّى عن تناول الفصح. ولمّا انتهى يوسف ونيقودمس إلى باب المدينة وجداه موصدًا ومحاطًا بجنودٍ طلب الفرّيسيّون نشرهم تحسّبًا من أيّ شغبٍ شعبيٍّ كان احتمال حدوثه يقضّ مضاجعهم. وأبرز يوسف ترخيص بيلاطس له بإنزال يسوع عن الصليب ودفنه، ولكنّ الجنود أنذروه بأنّ فتح الباب قد غدا متعذّرًا، من جرّاء الهزّة الأرضيّة التي

خلخلت حركته وتوازنه، وأنّ محاولاتٍ عديدةً لفتحه مُنيت بالفشل. ومع ذلك، ما إن مدّ يوسف ونيقودمس يديهما إلى مزلاج الباب حتّى انفرج على سعته، مدهشًا جميع الحاضرين.

كان الجوّ ما زال مكفهرًّا في موقع الصلب، وكان الخدَم قد أعدّوا لمهمّة الإنزال، وهناك تيسّر للموكبيْن أن يلتقيا ويتبادلا الأخبار، فروى الأريماثيّ ونيقودمس كيف استطاعا إنقاذ يسوع من دفنٍ مهينٍ مع اللصوص والمجرمين، وعلِما من يوحنّا والنسوة كيف نجا المخلّص من تحطيم ساقيه وذراعيه. وإذ كان مطلوبًا أن تتمّ إجراءات الدفن قبل الغروب، فقد أقبل الجميع عليها بسرعةٍ، وأسًى، وخشوعٍ. وشقّ على العذراء والنساء القدّيسات ألاّ يتمّ التحنيط بكلّ ما يستأهله جسد إلهٍ متجسّدٍ، فادي الأنام، من تأنٍّ وعنايةٍ وتكريمٍ. وعكف الجميع على المهمّة المقدّسة بتأثّرٍ بالغٍ، وأسًى هاصرٍ، وحبٍّ مضطرمٍ، وصمتٍ وقورٍ لا يخرقه سوى تنهّداتٍ تمزّق الأفئدة كانت تُطلقها الأمّ المفجوعة، والمجدليّة المنهارة، التي لم تعد ترى من العالم كلّه سوى جثمان ربّها ومخلّصها.

وفي هذه الأثناء وصل الضابط "أبينادر"، الذي كلّفه بيلاطس بمهمّةٍ لقيت من نفسه ترحيبًا واندفاعًا. وحينئذٍ خفّ نحوه زميله "كاسيوس" وروى له معجزة شفاء عينيه. وارتقى يوسف ونيقودمس سلالم حاملين منشفةً كبيرةً موصلةً بحبالٍ، غلّفا بها جثمان الفادي وأثبتاها بخشبة الصليب وأخرجا المسامير بطرْقها من طرفها البارز في خلف الصليب، فيما عكف "أبينادر"، بمشقّة، على إخراج المسمار الجسيم الذي كان قد اخترق القدمين معًا، ثمّ فكّ يوسف ونيقودمس الحبال التي كانت تربط الجثمان بالخشبة، وأنزلاه برفقٍ فتلقّفه "أبينادر" برقّةٍ وخشوعٍ، ثمّ تعاونوا جميعهم على إنزاله أرضًا بتأنٍّ وتجلّةٍ، وكأنّهم يخشون تسبيب آلامٍ جديدةٍ للجثمان الإلهيّ.

كانوا يولون جثمان الربّ كلّ الحبّ الذي أحاطوه به أثناء حياته، وكانت أنظار جميعهم شاخصةً إليه. ولدى كلّ حركةٍ يخضعونه لها كانت ترتفع الأيدي إلى

السماء استرحامًا، وتفيض العيون دموعًا، وتتصاعد الزفرات الحَرّى. أمّا، في العموم، فكان الصمت سائدًا، وحتّى الخدَم كلّما اضطرّهم العمل إلى تبادل الآراء، كانوا يتهامسون همسًا.

في أثناء إخراج المسامير، كانت كلّ طرقةٍ توقظ في قلب العذراء وفي قلب المجدليّة، وجميع شهود الصلب، مشاهد تلك المأساة الوحشيّة، فتتمزّق قلوبهم حزنًا، ويتذكّرون صيحات الألم التي أطلقها الربّ عندما علّقوه على الصليب، فتأخذهم الرعدة، ولكن لا يلبث أن يرين عليهم الاستسلام للفاجعة، بعد أن يفطنوا إلى أنّ ذلك الفم الإلهيّ قد أُطبق إلى الأبد، ولن يطلق، بعدُ، أيّة صرخة ألمٍ.

إثر إنزاله عن الصليب، أُودع الجثمان بين ذراعي أُمّه الممدودتين لاستقباله، كانت جالسةً على غطاءٍ، ومسندةً ظهرها إلى أغطيةٍ مكدّسةٍ وراءه، إذ حرص مرافقوها على جعل محنة وداعها الأخير لابنها، على القدر الأدنى من المشقّة. كان رأسه متّكئًا على ركبتيها، وجسده ممدّدًا على منشفةٍ. للمرّة الأخيرة كانت تمسك ذلك الجسد الإلهيّ الذي كوّنه الروح القدس في أحشائها، وكان يحزّ في فؤادها التشويه المريع الذي أُنزل به، والجراح التي حرثته ومزّقته، ويحزنها عجزها عن إظهارها له مشاركتها استشهاده. وقد غمرت بقُبَلها وجنتيه المضرّجتين بالدماء، فيما كانت المجدليّة تغمر بالقبَل قدميه المثقوبتين الداميتين.

كان الرجال دائبين على إعداد الحنوط، تحت حراسة الجنود الذين آمنوا، مع قائديْهم بأُلوهة المصلوب، فيما كانت النساء عاكفاتٍ على مسح الدماء المتجمّدة عن الجثمان. وقد احتفظت العذراء في هوّة فجيعتها، برباطة جأشٍ مدهشةٍ، وأولت عنايةً خاصّةً لإزاحة إكليل الشوك، وانتزاع الأشواك المغروسة في رأس ابنها، شوكةً شوكةً. كانت النسوة المرافقات لها يُقدّمنَ لها مناشف مبلّلةً بماءٍ ساخنٍ تبلّل بها شعر رأسه ولحيته الملتصق بدمه، وتنظّف بها وجهه الذي شوّهته الجراح وعينيه، وأنفه، وشفتيه وكلّ فمه، ثمّ عكفت على تنظيف عنقه وكتفيه، وصدره، وتبيّنت، برعدةٍ آثار العذابات المروّعة التي تكبّدها. فقد كانت كلّ عظام صدره قد

تحطّمت، وكلّ مفاصله قد تفكّكت، وكتفه التي أقلّت الصليب أضحت قرحًا مريعًا، وكانت السياط قد حرثت كلّ جذعه.

ثمّ عكفت على دهن جراحه ببلسمٍ، وغطّت بأقمشةٍ كلّ الأماكن التي نظّفتها وبلسمتها، وقبّلت، بتجلّةٍ، يديه، فيما كانت المجدليّة تبلسم قدميه اللتين نظّفتهما من الدماء وغسلتهما بدموعها، ومسحتهما بشعرها، وقبّلتهما بعبادةٍ. ثمّ أطبقت العذراء فمه وعينيه، وتركت يدها ترتاح، لحظاتٍ، فوقهما، حافرةً ذكراها في كلّ كيانها. وهوت برأسها على وجهه وغمرته بدموعها وقبلاتها.

في هذه الأثناء كان نيقودمس ويوسف الأريماثيّ واقفين غير بعيدٍ عن النسوة ينتظران، فدنا يوحنّا من العذراء وسألها أن تدع لهما جثمان المخلّص كي يتمّما تحنيطه، قبل حلول السبت. فودّعت ابنها بعباراتٍ مؤثّرةٍ، بعد أن غمرته بقبلاتها الرقيقة، ولكنّها، حينئذٍ، بعد أن فرغت من اهتمامها بالجثمان المقدّس، وخلت لنفسها، اجتاحتها موجة حزنٍ جديدةٌ، أفقدتها الوعي، فارتمت بين أيدي مرافقاتها. وكانت المجدليّة قد لحقت بالجثمان بضع خطواتٍ مادّةً يديها وكأنّها تحاول الاحتفاظ به، ثمّ هرعت صوب العذراء كي تُعنى بها.

وتعاون الرجال على لفّ الجثمان بغطاء، ونأوا به بضع خطوات حيث كانوا قد أعدّوا مكانًا للتحنيط، فعكفوا على تنظيف أجزاء جسده السفليّة، وظلّوا على ذلك حتّى غدت الاسفنجات المستخدمة في هذه المهمّة تُفرز ماءً صافيًا عندما تُعصر. ثمّ صبّوا على كلّ جسده ماءً ممزوجًا بمرٍّ، وبرفقٍ مدّدوا ركبتيه اللتين كانتا مطويّتين فوق الصليب، وملأوا حضن الجثمان أعشابًا فوّاحةً، ولفّوه بالأكفان.

وحينئذٍ استدعى يوحنّا أُمّ يسوع ومرافقاتها، فركعت العذراء عند رأس ابنها، ووضعت تحت عنقه شالاً حريريًّا، كانت زوجة بيلاطس تلفّ به عنقها، وأبت إلاّ أن تهديه لذوي يسوع تعبيرًا عن تعاطفها معهم. ثمّ نثرت العذراء ومرافقاتها على وجه يسوع وجذعه أعشابًا عطرةً، ورشّت عليه المجدليّة عطرًا، ولُفَّ الجثمان

بكفنٍ كبيرٍ. وكافأ الربّ جميع الذين اشتركوا في تحنيطه، وجميع الذين سيتعاطفون مع آلامه على امتداد الأجيال، بطبع آثار جثمانه على ذلك الكفن. وتنامى ذهول الحاضرين عندما تبيّنوا أنّ الأقماط الملاصقة لجثمانه ظلّت ناصعة البياض، في حين أنّ الكفن العلويّ حمل دمغة الفادي المصلوب. وجثوا جميعهم، وتناوبوا على تقبيل الجثمان والكفن، الذي جعل منه الفادي دليلاً ملموسًا على ألوهته الخلاّقة التي ما برحت فاعلةً من خلال جثمانه الهامد.

ومُدَّد الجثمان على محفّةٍ جلديّةٍ، حملها على أكتافهم نيقودمس ويوسف الأريماثيّ، ويوحنّا وقائد المئة "أبينادر"، وسارت في إثرهم العذراء وأُختها الكبرى مريم وابنة أُختها والمجدليّة، تتبعهنّ ڤـــيرونيكا، وحنّة زوجة شوزا، ومريم أُمّ مرقس، وصالومة، وسوسن، وحنّة ابنة أخي القدّيس يوسف، وختم الموكب قائد المئة "كاسيوس" وجنوده، وقد تقدّم الموكب جنديّان يحملان مشاعل لإضاءة مغارة القبر.

ساروا مدّة نحو سبع دقائق حتّى انتهوا إلى بستان يوسف، وهم يرتّلون المزامير والمراثي بأنغامٍ رقيقةٍ شجيّةٍ، وشوهد يعقوب شقيق يوحنّا يراقب من تلّةٍ قريبةٍ قبل أن يهرع إلى حيث كان التلاميذ مختبئين كي يُطلعهم على ما شاهد.

عند مدخل المغارة نُقل الجثمان من المحفّة إلى لوحٍ خشبيٍّ مغطّى بقماشٍ. كانت مغارة القبر قد حُفِرت حديثًا، وكان خَدَم نيقودمس قد نظّفوها، قُبَيْل ساعاتٍ، وأشعلوا فيها بخورًا فغدت متألّقةً. وبعد أن نثر الرجال المزيد من الأعشاب العطرة، وعبّروا عن حبّهم للمخلّص بوابل القبلات وفيض الدموع، ومدّدوا الجثمان الحبيب في المكان المعدّ له. وخرجوا فدخلت العذراء إلى المغارة، وجلست إلى جانب رأس ابنها، وانحنت منتحبةً على جثمانه. وما إن خرجت حتّى اندفعت المجدليّة إلى الداخل، ورمت على الجثمان ما كانت قد اقتطفته من أزاهير البستان ونباتاته، وقبّلت، للمرّة الأخيرة، قدمي المخلّص، منتحبةً، مطلقةً تأوّهاتٍ جارحةً، ولم تُطِقْ البعاد إلى أن طلب منها يوحنّا الخروج. وحينئذٍ أُغلق الباب البرونزيّ، وتكاتف

الرجال على دحرجة الحجر الثقيل، دافعينه بواسطة أسافين حتّى باب القبر. وشوهد رجالٌ مفجوعون يجوسون على مقربةٍ من القبر، وربّما كانوا من تلاميذ الربّ.

وعاد الجميع إلى أورشليم، فيما قصد القائد "كاسيوس" بيلاطس وأطلعه على ما جرى أمامه. وكان بيلاطس يستمع مذعورًا، ولكن متظاهرًا باللامبالاة، ومتّهمًا القائد بالحالم المنحاز للمصلوب. وبدافع الاشمئزاز والتطيّر أَمره بإيداع الحربة التي طعن بها قلب يسوع المصلوب خارج الحجرة.

وانضمّ نيقودمس ويوسف الأريماثيّ إلى بعض التلاميذ، ولاسيّما يعقوب الكبير، ويعقوب الصغير، وبطرس الذي كان رازحًا تحت وقر ألمٍ طاغٍ ضاعفه غيابه عن مواكبة موت الربّ المخلّص. إلاّ أنّه قدّم الشكر لأولئك الذين تولّوا مهمّة تحنيطه ودفنه، واتّفق معهم على أن يفتح لهم باب مخبأ أصدقاء يسوع حالما يقرعون، ويعلنون عن ذواتهم. وشيئًا فشيئًا التأم التلاميذ في العلّيّة، ذلك المساء، وانضمّ إليهم القائد المرتدّ "أبينادر". وقد انتحت العذراء والنساء المرافقات لها في حجرةٍ خاصّةٍ من العلّيّة. وكان الجميع محبطين، مثخنين بالجراح، عاكفين على الصلاة.

ومع هبوط الليل انضمّ إليهم، من بيت عنيا، لعازر، وأرملة نائين، ودنيا السامريّة، ومارا السوفانيّة التي كان يسوع قد حرَّرها من شياطينها.

وفيما كان يوسف الأريماثيّ عائدًا، ليلاً، من العلّيّة إلى منـــزله، بصحبة حفنةٍ من مرافقيه، انقضّت عليهم ثلّةٌ من المسلّحين من أزلام قيافا، كانوا كامنين يترصّدونه في الخفاء، وتمكّن مرافقوه من الفرار، فيما اعتُقِل الأريماثيّ في برجٍ قريبٍ من أسوار المدينة، ومن محكمة اليهود. وكان قيافا قد كلّف بهذا الخطف جنودًا وثنيّين غير ملزمين بطقوس السبت والفصح، وكان عازمًا على كتم أمر خطفه، وإبقائه معتقلاً حتّى يقضي نحبه جوعًا وعطشًا. وهكذا انتهى يوم الصلب العظيم الأليم.

## أحداث متّصلة بالصلب

سبق أن ذكرنا "جوناداب"، ابن أخٍ للقدّيس يوسف، الذي كانت قوّةٌ علويّةٌ لا تُقاوَم قد دفعته خارج الهيكل كي يستر عُري الربّ، لّما جُرِّدَ من ملابسه على الصليب. وقد قام بهذه المهمّة ببسالةٍ، متحدّيًا شراسة الجنود وضراوة الفرّيسيّين وأزلامهم. وكان عندما قصد الهيكل للصلاة قد ترك، في منـــزله، والدته وزوجته عليلتين، ومعهما أطفاله. وكم كانت دهشته عارمةً عندما شاهدهم، لدى عودته، قادمين للترحيب به، وهم في أتمّ صحّةٍ وأكمل عافيةٍ. وروت له أُمّه وزوجته كيف شفيتا شفاءً عجيبًا، إذ فوجئتا بامرأةٍ مهيبةٍ، مجهولةٍ، تزورهما بغتةً، وتدنو من مضاجعهما قائلةً: "انهضا واخرجا لاستقبال "جوناداب" الذي ستر عري إنسانٍ بارٍّ". وفي الحال، شعرتا بالعافية تسري في أوصالهما، وهبّتا لشكر تلك المرأة المحسنة، ولكنّهما عندما جاءتاها بشرابٍ منعشٍ كانت قد توارت، مخلّفةً في المنـــزل روائح عطرةً منعشةً، وإحساسًا بالارتواء لدى جميع أهل المنـــزل. ثمّ استجابةً لإيعاز تلك الزائرة الغريبة خرجتا مع الأطفال لاستقبال "جوناداب"، والاستفسار عن البارّ الذي ستر عريه.

ووسط وابلٍ من الدموع روى لهما "جوناداب" صلب قريبهما، ابن أخي العمّ يوسف، يسوع الذي أثبت أنّه، حقًّا، المسيح والقدّوس، فمزّق جميعهم ثيابهم حزنًا، واستذكروا الأحداث الطبيعيّة المريعة التي جرت استنكارًا لجريمة صلب ذلك النبيّ البريء. ولاحقًا، استجابةً لصلوات العذراء، استنارت نفس "جوناداب"، وانضمّ إلى جماعة يسوع.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الهزّة التي حدثت في أورشليم وقت الصلب، امتدّت آثارها إلى كلّ أرجاء فلسطين، ودمَّرت العديد من بيوت الفرّيسيّين ومن مجامعهم، ما أَوقع في نفوس اليهود خوفًا شديدًا، فسَّر فتور عدائهم لأتباع يسوع يوم العنصرة.

وقد انهار، أيضًا، نصف مجمع الناصرة الذي طُرد منه يسوع، وانهار جزءٌ من الجبل الذي حاول اليهود الناصريّون دفع يسوع منه إلى الهاوية.

## حراسة القبر

ليلة الجمعة السبت تشاور قيافا وزعماء اليهود حول الاحتياطات التي يتوجّب اعتمادها. فقد كانت تقضّ مضاجعهم نبوءة يسوع بقيامته من القبر في اليوم الثالث، وخشوا أن تتحقّق نبوءته أو أن يعمد تلاميذه إلى سرقة جثمانه وادّعاء قيامته، فيتحوّل موته الذي ارتكبوا في سبيله أفظع الجرائم، إلى أعظم انتصارٍ له ولأتباعه. والتمسوا مساعدة بيلاطس منعًا لهذا المآل، وطلبوا منه تكليف جنوده بحراسة القبر. ولكنّ بيلاطس كان راغبًا في النأي عن هذه القضيّة برمّتها، فقال لهم إنّ لديهم حرّاسًا تابعين لهم، فليتدبّروا أمرهم بأنفسهم. ولكنّه أوكل إلى القائد "كاسيوس" مراقبة الأمر عن كثب، وإطلاعه على كلّ ما سيجري بهذا الشأن. وجاء حرّاس السنهدرين حاملين المشاعل الكفيلة بإضاءة محيط القبر ليلاً، وتيقّنوا من وجود الجثمان في القبر، وشدّوا حوله حبالاً، وأثبتوا أختامًا، ونظّموا تناوب الحراسة المستمرّة.

وأمام القبر استنارت نفس القائد "كاسيوس"، فأضحى في مثل نشوةٍ روحيّةٍ، وانخطافٍ، وآنس في ذاته تحوُّلاً كلّيًّا، وقضى كلّ فترة الحراسة، تائبًا، خاشعًا، متعبّدًا، شاكرًا.

وفي العلّيّة احتفل بالسبت في ذلك المساء نحو عشرين رجلاً من تلاميذ المخلّص وأصدقائه، مرتدين جلابيب بيضاء طويلة؛ وصباح السبت التأموا مجدّدًا، وانضمّ إليهم قادمون جُدُدٌ وقضوا النهار متناوبين على تلاوة النبوءات والمزامير.

وفي موقع إقامة العذراء، كانت قاعةٌ كبرى قد قُسمت، بواسطة ستائر، وبُسط، وحصرٍ، إلى حُجيْراتٍ أقامت فيها مرافقات أُمّ الربّ وضيفاتها. وكنّ، إثر عودتهنّ من القبر قد أشعلنَ مصباحًا والتفَفنَ حول العذراء، وانصرفنَ لصلاةٍ خاشعةٍ مثقلةٍ بالأسى. وسرعان ما انضمّت إليهنّ النسوة اللواتي جاء بهنّ لعازر من بيت عنيا، واللواتي استمعنَ، مذرّفاتٍ الدموع، إلى تفاصيل صلب يسوع ودفنه. ثمّ تحجّبنَ جميعهنّ، وأوت كلٌّ منهنّ إلى حجرتها، وحصلنَ على قسط راحةٍ. وعند منتصف

الليل، استيقظنَ، وأحطنَ مجدّدًا بالعذراء للصلاة. وما لبث أن نقر يوحنّا على بابهنّ، فارتدينَ معاطفهنّ وتبعنَه إلى الهيكل، جريًا على تقليدٍ يهوديٍّ يقضي بزيارة الهيكل باكرًا غداة الفصح. ولهذه الغاية كانت أبواب الهيكل تُفتَح عند منتصف الليل. ولكن، في ذلك اليوم كان الهيكل مضاءً، ولكنّه شبه خالٍ إلاّ من حفنة حرّاسٍ وخدَمٍ، من جرّاء الهزّة التي أشاعت في أرجائه الدمار والفوضى، وتطيّرًا من ظهور أمواتٍ فيه، عدّه اليهود تدنيسًا لقدسيّته.

كانت آثار الهزّة ومعالم الفوضى منتشرةً في كلّ أرجاء الهيكل: جدرانٌ مشقّقةٌ، وعمدٌ منهارةٌ، وأبوابٌ جسيمةٌ مخلّعةٌ وملقاةٌ أرضًا، يمكن العبور من أماكنها ومشاهدة قدس الأقداس الذي بات مكشوفًا للعيان بعد أن انشقّ بكامله الحجاب الصفيق، الذي كان يحجبه عن عيون العوامّ، وبلاطٌ منتزعٌ من الأرض...

غير أنّ العذراء كانت حريصةً على تقبيل جميع المطارح التي ما زالت تحمل آثار ابنها الإلهيّ: تلك التي شهدت تقدمته إلى الهيكل، ومكان العثور عليه، وهو في الثانية عشرة، بعد غياب ثلاثة أيّامٍ، معلّمًا معلّمي الهيكل، وممتحنًا علمهم، وحيث كان، شابًّا، يعلّم بجرأةٍ متحدّيًا أساطين الهيكل، وتعاليمهم المزيّفة؛ كما كانت راغبةً في توديع مسرح ذكرياتٍ غاليةٍ: مربع طفولتها وصباها، وحيث قدّمت ابنها وأُنبئت بسيفٍ سيخترق قلبها، وبعظمة ابن الله الذي ولدته!

واتّفق أن كان بين المكلّفين بخدمة الهيكل، آنذاك، أبناء سمعان الشيخ، وأبناء إخوةٍ ليوسف الأريماثيّ، الذين أحزنهم خطف عمّهم واحتجازه، وقد تطوّعوا لمواكبة العذراء ومرافقيها في شتّى أرجاء الهيكل، وتأمّلوا جميعهم، بصمتٍ ورعدةٍ، آثار غضب الله على صلب ابنه. وقد قبّلت الأُمّ المفجوعة كلّ الأماكن التي وطئتها قدما ابنها وغسلتها بدموعها وشاركتها مرافقاتها هذا التكريم وتلك الدموع.

غادرت العذراء، باكيةً، الهيكل حيث كان الخراب والفراغ، في ذلك اليوم المقدّس، شاهديْن على جريمة شعبها العظمى. وطاف في ذاكرتها قول ابنها:

"انقضوا هذا الهيكل، وسأُعيد بناءه، في غضون ثلاثة أيّام". ولكم كانت توّاقةً إلى رؤية إشراقة صباح ذلك اليوم الثالث، وتحقّق الحقيقة الأبديّة!.

مع بزوغ الفجر عادت مريم ومرافقاتها ويوحنّا إلى العلّيّة التي شهدت عشاء يسوع الأخير مع رسله، والتي كانت توصد إيصادًا محكمًا، وحيث كان نحو عشرين رجلاً من الرسُل والتلاميذ وأصدقاء المخلّص دائبين على الصلاة والنوح، ولا ينفكّ آخرون يتجرّأون وينضمّون إليهم بحذرٍ، ويشاركونهم صلاتهم وأساهم. وكان ينتاب الجميع، حيال يوحنّا، شعورٌ يمتزج فيه الخجل والإعجاب، فهو الرجل الوحيد الذي واكب آلام المخلّص وصلبه، وتلقّى وصيّته الأخيرة. ومع ذلك احتفظ بالتماسك، وبساطة الأطفال وتواضعهم، والتعاطف الودود مع الجميع، وظلّ جاهدًا في بلسمة الجراح، متنقّلاً من جناح العذراء إلى مجلس الرجال، خادمًا الجميع.

وقضت النساء ذلك النهار الحزين في جناح الأُمّ المفجوعة، يلتَفِفْنَ، تارةً، حولها لصلاةٍ جماعيّةٍ، وتارةً، ينتحبنَ، ويرتدينَ ثياب الحداد، ويجلسنَ على الرماد، ويصلّينَ منتحباتٍ، ووجوههنّ متّجهةٌ نحو الجدار.

في هذه الأثناء أقام القائد "كاسيوس" النهار كلّه، خاشعًا أمام القبر، وإلى جانبه جنود السنهدرين يراقبون كلّ حركةٍ وكلّ نأمةٍ.

# حياة يسوع المجيدة، بعد قيامته

## الفصل السادس

## نجاة يوسف الأريماثيّ

كان يوسف يصلّي في سجنه حيث أُمسك عنه الطعام والشراب، والهواء. وبغتةً غمر النور سجنه، وسمع صوتًا يدعوه باسمه، وانكشف جزءٌ من السقف، ومدّ له شكلٌ نيّرٌ غطاءً يحاكي الكفن الذي لفّ به جثمان المخلّص. فأمسكه بيديه كلتيهما، وسحبته قوّةٌ سرّيّةٌ إلى أعلى وأُغلق السقف مجدّدًا، وتوارى الشكل النيّر. فراح يجري فوق الأسوار حتّى العلّيّة حيث كان أصدقاؤه، وأصدقاء يسوع ينعونه ويندبون رحيله، بعد أن سرت أقاويل تدّعي قتله ورميه في المجارير. فهبط، وقرع باب العلّيّة، معرّفًا بنفسه، ودخل فاستُقبل بدهشةٍ وذهولٍ، وبفرحٍ غامرٍ؛ وروى كيف تمّت نجاته العجيبة، مشيعًا في قلوب محبّيه مشاعر الفرح والعزاء. وقدّم الجميع لله آيات الشكر، وقدّموا ليوسف الطعام. وبعد أن نال قسط نقاهةٍ فرّ إلى مسقط رأسه، اتّقاءً لنقمة قيافا.

وفي اليوم التالي زار قيافا وثلّةٌ من رؤساء الكهنة بيت نيقودمس، وطرحوا عليه مجموعة استفساراتٍ متصنّعين المودّة؛ ودافع نيقودمس، بجرأةٍ وحزمٍ، عن براءة الربّ.

## ليلة القيامة، وظهور يسوع لأُمّه

كان سبعة حرّاسٍ ساهرين على قبر المخلّص، بعضهم جلوسًا وبعضهم وقوفًا، وقد خيّم على المكان صمتٌ وقورٌ سحيقٌ، ونشرت المشاعل المنصوبة حول القبر نورًا ساطعًا؛ فيما كان القائد "كاسيوس" الذي غمرته نعمةٌ سماويّةٌ أحدثت انقلابًا جذريًّا في نفسه وفي ذهنه، مستغرقًا في تأمّلٍ سحيقٍ استحوذ على كلّ كيانه، شاخص العينين إلى داخل القبر، يشهد، منخطفًا، جثمان المخلّص مغلّفًا بنورٍ سماويٍّ، يقوم على عبادته ملاكان خاشعان أحدهما عند رأسه والآخر عند قدميه، مرتديين زيًّا كهنوتيًّا، ويداهما مضمومتان إلى صدرهما. وشاهد أرواح أبرارٍ أقدمين تخترق الصخور وتندفع إلى داخل القبر، وتتأمّل بخشوعٍ ورعدةٍ وتجلّةٍ، الجثمان الإلهيّ الذي أُزيحت عنه الأكفان والأغطية، مبرزةً فداحة جراحه التي أسفرت عن أعماقها المريعة، فارتعشت تلك النفوس تعاطفًا.

ثمّ شاهد، أيضًا، ملائكةً يحملون ذلك الجثمان المشوّه، المثخن بالجراح، ويصعدون به إلى عرش الآب المحاط بأجواقٍ من الملائكة الساجدين.

وبغتةً اهتزّت صخرة القبر، فارتمى الحرّاس أرضًا، فاقدي الوعي، وقد استحوذ عليهم الذعر.

قبيل منتصف الليل، كان قد هاج العذراء شوقها إلى ابنها، فجاء ملاكٌ ودعاها إلى المضيّ نحو بستان الزيتون، كي تراه، فخفق قلبها فرحًا، وتدثّرت معطفها، وانطلقت مسرعةً، ولم تُطلع أحدًا على مقصدها، وانطلقت تجوس أزقّة أورشليم وكأنّها تبحث عن كنــزٍ مفقود، مقتفيةً آثار أقدام ابنها، وهو حاملٌ صليبه، متنقّلةً من قصر قيافا إلى قصر بيلاطس. متوقّفةً بين فينةٍ وفينةٍ، في الأماكن التي قاسى فيها أقسى أوجاعه، حيث كانت تنحني وتتلمّس المطارح التي تشعر أنّ قطرةً من دمه قد همت عليها، وتجسّها، ثمّ تقبّل أطراف أناملها التي تلمّستها، مكرّسةً، بحبٍّ، كلّ أثرٍ قدّسه دم ابنها الإلهيّ.

وعندما انتهت إلى الجلجلة توقّفت بغتةً، إذ انبرى ابنها للقياها، يتقدّمه ملاكٌ، ويحيط به الملاكان اللذان كانا يحرسان قبره، ويحيق به حشدٌ كثيفٌ من النفوس التي رافقته من الجحيم، وقد ضمّ ذلك الحشد أنبياءً وأبرارًا، قال لهم مشيرًا إلى العذراء: "هذه هي مريم أُمّي!" وامتلأت عينا العذراء دهشةً عندما شهدت ابنها ممجّدًا، متألّقًا، وقد اختفت آثار صلبه ولم تكن تحرّكاته تحرّكات جسدٍ حيٍّ، بل بدا وكأنّه يطوف فوق الأرض، غير أنّه تكلّم وأطلع أُمّه عمّا فعله منذ قيامته وزيارته للنفوس التي كانت تنتظره في الينبُس. وبغتةً توارى الربّ القائم من الموت، فجثت الأُمّ العذراء وقبّلت الأرض التي ظهر عليها، فيما واصل الربّ طوافه، مع موكبه، في كلّ الأماكن التي كانت مسرح آلامه، دالاًّ الملائكة والنفوس المواكبة له إليها، فيما كانت أُمّه ترافقه روحيًّا، وتشهدها، بقعةً بقعةً، وتحفر تلك الرؤى في ذهنها وقلبها.

وعادت العذراء إلى العلّيّة تضجّ عزاءً، فوجدت النسوة القدّيسات اللائي جفا

جفوهنّ الكَرى، وقد فرغنَ من إعداد الحنوط والطيوب التي ابتعنَ، هنَّ والتلاميذ، كميّاتٍ وفيرةً منها لكي يكرّموا بها الربّ صباح اليوم التالي، وجلسنَ ينتظرنَ الفجر كي ينطلقنَ للقيام بمهمّةٍ أخذت بمجامع أفئدتهنَّ. كنَّ يتوجّسنَ خشيةً من مكر أزلام الكهنة والفرّيسيّين، وإهاناتهم الوقحة. غير أنّ العذراء التي استعادت كلّ جأشها بعد ظهور ابنها لها، شدّت أَزرهنَّ، وأوعزت إليهنَّ ألاّ يخشينَ شيئًا، وألاّ يساورهنَّ أيّ قلق، فهنّ في مأمنٍ من كلّ أذًى، ولكنّها نصحتهنّ بنيل قسطٍ من الراحة قبل الانطلاق، غير أنّها لم تبُحْ لهنّ برؤيتها لابنها.

وعندما أخذ فجر اليوم الأوّل من الأسبوع ينبلج، وشرعت عتمة الليل تنجلي رويدًا رويدًا، انطلق من العلّيّة موكبٌ نسائيٌّ ضمّ المجدليّة، وابنة أُخت العذراء مريم ابنة كليوبا، وحنّة زوجة شوزا، وصالومة، حاملاتٍ الحنوط، والطيوب، موضّبةً ومخفيّةً طيّ معاطفهنّ، فيما أمسكت إحداهنّ بيدها مصباحًا. وتوجّهن صوب باب نيقودمس في سور المدينة.

## رؤيا القيامة

تروي الرائية: "رأيت نفس يسوع، مثل مجدٍ متألّقٍ، بين ملاكين يرتديان زيّ المحاربين فيما كان الملاكان الحارسان لجثمانه في زيٍّ كهنوتيٍّ، وسط موكب أشكالٍ نيّرةٍ كثيرةٍ، تخترق الصخر، وتحطّ على الجثمان المقدّس، وتنحني عليه، وتتّحد به اتّحادًا كلّيًّا. ولحظتُ، حينئذٍ، أعضاء الربّ تتحرّك تحت اللفائف، وجسده حيًّا متألّقًا، يخرج من كفنه، وقد استعاد نفسه وألوهته.

وفي الآن عينه، رأيتُ شكلاً وحشيًّا مريعًا يخرج من تحت الأرض، له ذيل أفعى، ورأس تنّين مشرئبًّا صوب يسوع، ورأسٌ بشريٌّ آخر. غير أنّ المخلّص رفع عصا بيضاء، يلوح في طرفها علمٌ، ومشى فوق رأس التنّين، وانهال بثلاث ضرباتٍ من عصاه على ذيل الأفعى، ولدى كلّ ضربةٍ كان الوحش يزداد انكفاءً على ذاته، ويتضاءل حتّى التلاشي. ودسّ رأس التنّين ذاته في التراب، ولكنّ الرأس البشريّ ظلّ مرئيًّا...

ثمّ رأيتُ الربّ ينطلق، متألّقًا، مخترقًا الصخر، فارتجّت الأرض، وانقضّ من السماء على القبر، ملاكٌ يحاكي محاربًا، وأزاح الحجر الذي يسدّه، وجلس عليه... وما إن شهد الحرّاس ذلك حتّى هووا أرضًا، وكأنّهم أُصيبوا بشلَلٍ، وظلّوا ملتصقين بالأرض بلا حراكٍ.

بادئ الأمر بهر النور القائدَ كاسيوس، ولكنّه ما لبث أن استعاد جأشه ودنا من القبر، وفتح بابه، ودسّ الأكفان واللفائف فوجدها خاليةً من محتواها، وهمّ بالانطلاق وإطلاع بيلاطس على ما جرى، ولكنّه تريّث، راجيًا أن يرى يسوع، إثر كلّ ما شاهد من أُمورٍ عجيبةٍ.

لحظة اهتزّت الأرض، ودخل الملاك إلى القبر، رأيت المخلّص قاهر الموت، يظهر لأُمّه، حيث ضرب لها موعدًا، قرب الجلجلة، متألّقًا بهاءً... كانت جراحه واسعةً متلألئةً، ومن وسط راحته حتّى أطراف أنامله تنطلق أشعّة نورٍ، والأنبياء والأبرار يسجدون أمام الأُمّ القدّيسة، التي كانت مأخوذةً في تأمّل جراح ابنها. ولمّا همّت بتقبيل قدميه، أنهضها بيده، وتوارى. وفي الأفق كان نور النهار الوليد يطرد ظلمة الليل برفقٍ".

## النساء القدّيسات عند قبر الربّ

بُعَيْد قيامة الربّ وصلت النسوة إلى باب نيقودمس، حاملاتٍ أغلى ما استطعنَ إلى شرائه سبيلاً من طيوبٍ وورودٍ كي يقدّمنها تكريمًا للربّ. وبما أنّهنّ كنَّ يجهلنَ وجود حرّاسٍ على القبر، رُحنَ يتساءلنَ عمّن عساه يدحرج لهنّ حجر القبر، الذي كنَّ قد غفلنَ عنه، في غمرة توقهنّ إلى إتمام تحنيط المخلّص.

كانت المجدليّة أكثرهنَّ جرأةً واندفاعًا، فهرعت، بلا وجَلٍ، إلى داخل البستان متحرّرةً من كلّ خوفٍ، وعلى بعد خطواتٍ منها تبعتها صالومة – وهي امرأةٌ غنيّةٌ من أورشليم تمتّ بصلة قربى إلى القدّيس يوسف – فيما أمسك الخوف المرأتين الأُخريَين عند الباب.

ولدى رؤيتها حرّاسًا مرميّين أرضًا كالأموات، وحجر القبر مدحرجًا، تراجعت بضع خطواتٍ إلى الوراء، وما لبثت أن استعادت جأشها، وفتحت باب القبر بتؤدّةٍ وتأثّرٍ، وذُهلت لرؤية الأكفان مطويّةً، والقبر متألّقًا نورًا، وملاكًا جالسًا على الحجر الذي كان يسدّ مدخل القبر، فاندفعت خارجًا وجرت كي تطلع الرسُل على ما شاهدت. وكذلك فعلت صالومة التي توقّفت عند عتبة القبر، ثمّ ارتدّت مضطربةً، مسرعةً، مرتعدةً، كي تخبر بما رأت رفيقتيها اللتين تلبّثتا خارجًا، فذُهلتا وفرحتا معًا، وتردّدتا قبل أن تتجرّآ وتدخلا القبر وتتبيّنا بعيونهما. وفي هذه الأثناء صادفهما القائد "كاسيوس"، الذي توقّع، عبثًا، رؤية المسيح القائم من الموت، وحين طال انتظاره سدًى، باح لهما بما كان شاهدًا عليه، وانطلق كي يقدّم تقريره لبيلاطس.

عندئذٍ دخلتا إلى القبر، وعاينتا الملاكيْن المرتديَيْن زيًّا كهنوتيًّا ناصع البياض، فارتعبتا، والتصقت إحداهما بالأُخرى، خوفًا، وخرّتا حتّى الأرض. فقال لهما أحد الملاكين ألاّ تخافا وألاّ تبحثا عن المصلوب، لأنّه قام حيًّا، وأراهما القبر خاليًا من نزيله، وأوعز إليهما إخبار التلاميذ بما شهدتا وسمعتا. وأنبأهما أنّ يسوع سيسبق رسله وتلاميذه إلى الجليل. وذكّرهما بما سبق للربّ أن أنبأ عن قبض الأشرار عليه، وعن آلامه، وقيامته. وتوارى الملاكان، فتفقّدت المرأتان القبر الخالي، وعادتا متأثّرتيْن، متأمّلتيْن، تضجّان دهشةً وفرحًا. وسارتا بخطًى متردّدةٍ، وهما ما برحتا مضطربتَيْن ومرتعدتَيْن، وكانتا تتوقّفان، بين فينةٍ وأُخرى، لعلّهما تشهدان الربّ الذي قهر الموت، أو المجدليّة عائدةً من العلّيّة.

في هذه الأثناء كانت المجدليّة قد وصلت إلى العلّيّة، وقرعت بابها بعنفٍ، قرعاتٍ متلاحقةً، ملحّةً، أيقظت من كان من التلاميذ نائمًا، وفتح لها بطرس ويوحنّا الباب، فلم تدخل، ولكنّها سارعت إلى إبلاغهما لاهثةً، وهي عند عتبة العلّيّة: "لقد خُطِف الربّ من قبره، ولسنا نعلم أين وُضِع". اكتفت بهذه العبارة، وارتدّت مهرولةً إلى بستان الأريماثيّ.

بلّغ بطرس ويوحنّا الرسُل الآخرين ما سمعه عن قبر المعلّم الذي خلا من نزيله، وانطلقا يجريان في إثر المجدليّة، وكان يوحنّا هو الأسرع جريًا. وجاءت المجدليّة إلى القبر لاهثةً، ساهمةً، حزينةً، ولكنّها تلبّثت، برهةً، عند مدخل المغارة، وركعت مستطلعةً، عن كثبٍ؛ داخل القبر، وإذ بملاكيْن مرتديْن زيًّا كهنوتيًّا جالسيْن عند طرفي القبر، وإذ بأحدهما يسألها: "ولِمَ تبكين، يا امرأة؟"، وإذ لم تكن ترى سوى غياب جثمان يسوع، ولم تتساءل حتّى عن علّة وجود الملاكيْن، هتفت: "لقد خطفوا سيّدي، ولست أدري أين وضعوه!". ثمّ اندفعت خارجًا، وراحت تجوس أرجاء البستان، لعلّها تعثر على أثرٍ يقتادها إلى معبودها، يراودها شعورٌ مبهمٌ بأنّه على مقربةٍ منها، ولبثت تجري يمنةً ويسارًا، إلى أن شاهدت، بغتةً، على بعد خطواتٍ من القبر، شخصًا مرتديًا ثوبًا أبيض، بادرها بسؤاله: "علامَ تنتحبين، يا امرأة، وعمّن تبحثين؟" فظنّته البستانيّ، ولم تستطع تمييزه، في ضوء الفجر المشوب بشيءٍ من الدغش، ولا سيّما أنّه كان يعتمر قبّعة قشّ، وعلى كتفه فأسٌ. وخُيّل إليها أنّه يحمل مثل همّها، ويعلم عمّن كانت تبحث، فقالت له: "إن كنتَ، أنت، من خطفه، فقل لي، وأنا أتولّى أمره"، وكانت ما تزال تجيل أنظارها في كلّ اتّجاهٍ. وحينئذٍ خاطبها الرجل بالصوت الذي طالما ألِفته، والذي طالما هزّ كيانها، ودعاها باسمها، فأيقظها من ذهولها، ونسيت كلّ شيءٍ، وارتمت على قدمي الربّ، ولكنّه بحركةٍ من يده، حال دون ذلك، قائلاً: "لا تلمسيني، فإنّي لم أصعد بعدُ، إلى أبي. بل اذهبي، بالحريّ، وأخبري إخوتي أنّي صاعدٌ إلى أبي وأبيهم، إلهي وإلههم". وحينئذٍ توارى عن نظرها.

وتعترف الرائية أنّها تلقّت تفسيرًا لرفض يسوع لمس المجدليّة له، ولكنّها نسيت معظم هذا التفسير، غير أنّها تذكّرت أنّ القائم من الموت ابتغى إفهام المجدليّة، أنّه لم يعُدْ كما كان قبل القيامة، فقد صار جسده ممجّدًا مؤلّهًا، وأنّ باكورة الفرح والتمجيد تحقّ لأبيه السماويّ، فعلى المجدليّة أن تعود إلى ذاتها، وتتخشّع، وتشكر لله تحقيق سرّ الفداء، من خلال موت يسوع وقيامته التي ذهلت عن معجزتها الفائقة وأولت اهتمامها الأوّل لإرواء ظمأ قلبها.

نهضت المجدليّة، إذن، مسرعةً، وجرت إلى القبر للتأكّد من المعجزة، متسائلةً هل ما رأته وسمعته هو حلمٌ وهلوسةٌ، أو واقعٌ ماثلٌ، فأطلعها الملاكان عمّا قالا لرفيقتيها، مؤكّديْن قيامة الربّ. وبعد أن تثبّتت من حدوث المعجزة، خفّت للانضمام إلى رفيقتيها اللتين كانتا ما برحتا واقفتيْن على مقربةٍ من القبر، تنتظران عودتها، وربّما حظوة مشاهدة القائم من القبر، وقد ران عليهما وقر جلال الحدَث.

وما هي سوى لحظاتٍ حتّى وصل يوحنّا إلى القبر، ولحقه بطرس. اكتفى يوحنّا بإلقاء نظرةٍ إلى داخل القبر ولم يلج حتّى وصل بطرس ودخله قبله، وشاهدا معًا الأكفان مطويّةً وموضوعةً جانبًا، ورزم الحنوط التي جاءت بها النسوة ملقيّةً أرضًا. وحينئذٍ، فقط، أدركا ما ذكرته الكتب عن المخلّص، وما تنبّأ به معلّمهم نفسه، وفي الحال أعلن يوحنّا إيمانه، وكان إيمانه راسخًا نهائيًّا. وأخذ بطرس الأكفان وأخفاها في طوايا معطفه، وعادا مسرعين إلى العلّيّة. وفي هذه النوبة، أيضًا، كان يوحنّا أسرع جريًا.

وعادت المجدليّة إلى المدينة، فيما ظلّت رفيقتاها تجوسان في جوار البستان، إذ لم تفقدا الرجاء في مشاهدة الربّ، الذي لم يلبث أن ظهر لهما، فعلاً، في ثوبٍ أبيض طويل، تغطّي أكمامه يديه، وحيّاهما، وحينئذٍ جريتا إلى العلّيّة كي تبشّرا الرسُل والتلاميذ.

كان بيلاطس ما زال نائمًا عندما جاء القائد كاسيوس، فأُدخل إلى مخدعه، وروى له بتأثّرٍ بالغٍ، وبالتفصيل، كيف اهتزّت صخرة القبر، وكيف دحرج ملاكٌ الحجر الذي كان يسدّ مدخل القبر، وجلس عليه، وكيف لم يبقَ، داخل القبر، سوى الكفن الخالي والربَط، وأنهى روايته بتأكيد قيامة يسوع، قيامةً تثبت أنّه ابن الله، ومخلّص العالم. وكان بيلاطس يستمع وهو يرتعد، في سرّه، ولكنّه تظاهر باللامبالاة، ولام قائده على إقامته على مقربةٍ من القبر، واستسلامه لتأثير آلهة الناصريّ الذين حشوا ذهنه أوهامًا ووساوس، ونصحه بألاّ يخبر رؤساء الكهنة بما شاهد، اتّقاءً لنقمتهم وأذاهم.

وما لبث أن وصل، أيضًا، إلى قصر بيلاطس أربعة جنودٍ، ورووا مثل رواية "كاسيوس". ولكنّ بيلاطس رفض محاورتهم، وأرسلهم إلى قيافا، فهو من كلّفهم

بالحراسة، فامتثلوا للأمر. غير أنّ قيافا وأزلامه أغروهم بالرشاوى الوفيرة، وهدّدوهم بالقتل ما لم يشيعوا أنّ تلاميذ يسوع هم الذين سرقوا جثمان معلّمهم، فيما كانوا هم – الحرّاس – تحت وطأة سباتٍ عميقٍ.

ولكنّهم أصرّوا على قول الحقيقة، متحدّين تهديدات الكهنة والفرّيسيّين، ومعرضين عن رشاواهم. فاتّهمهم أعداء يسوع بالتواطؤ مع تلاميذ يسوع، لقاء رشوةٍ، وأنذروهم بإعادة الجثمان، فردّوا عليهم أنّ الأحرى بهم وبحرّاسهم أن يعيدوا يوسف الأريماثيّ إلى سجنه، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وحيال صمودهم الباسل في رفض الامتثال لرغبات أعداء يسوع، وإصرارهم العنيد والجريء على الجهر بمخالفة محاكمة يسوع لمبادئ العدالة، اضطرّ رؤساء الكهنة إلى سجنهم. وحينئذٍ تكاتف الفرّيسيّون والصدّوقيّون والهيرودوسيّون على بذل جهودٍ جمّةٍ، وإنفاق مبالغ طائلةٍ، من أجل إشاعة فريةٍ تزعم أنّ تلاميذ يسوع سرقوا جثمان معلّمهم. وقد شاعت هذه الكذبة في كلّ مجامع اليهود، تواكبها كلّ ألوان الشتائم بحقّ يسوع.

ولكنّ هذه المحاولات أطاح بها ظهور نفوس العديد من أبرار العهد القديم لأحفادهم المؤهّلين لاستقبال النعمة، وتأكيدهم لهم قيامة يسوع، وتحريضهم لهم على الإيمان به. وقد أسهم هذا الظهور في توطيد إيمان فئةٍ من تلاميذ يسوع كان صلب المخلّص قد أصابهم بهزّةٍ.

وجهد زعماء اليهود في الإسراع بترميم ما تهدّم من الهيكل، واستعادة هيبته، ناسبين كلّ ما جرى من كوارث فيه إلى هزّةٍ أرضيّةٍ عنيفةٍ. وعلّلوا إفساد احتفالات الفصح بظهور أمواتٍ فيه وتنجيسه. وقد لزم كثيرون من اليهود الصمت من جرّاء مشاركتهم في جريمة صلب المسيح مخلّصهم.

غير أنّ عدد المؤمنين بيسوع كان يتنامى، يومًا فيومًا، وقد أقاموا لجماعاتهم ما يشبه وطنًا مؤلّفًا من أكواخٍ وخيَمٍ بين أطراف أورشليم وبيت عنيا، متحدّين رؤساء كهنة اليهود الذين كانوا يرشقون باللعنة والحُرْم كلّ من يقول، في يسوع الناصريّ، قولاً حسنًا.

وفي تلك الأيّام شوهد حنّان، وكأنّه مصابٌ بمسٍّ شيطانيٍّ، استدعى حجره، وإخفاءَه عن الأنظار. وكذلك مُني قيافا بضربٍ من الجنون، من جرّاء توغّله في الغيظ، والسخط العنيف. أمّا بيلاطس فكان يبحث بحثًا يائسًا عن زوجته التي اختفت. وفي هذه الأثناء كان الشمّاس اسطفانُس يُعنى بتزويدها بالطعام ومستلزمات العيش، في مخبئها في بيت لعازر، ويبلّغها أنباءً عمّا يجري في الخارج، ويعدّها للعماد، ويعدّ أيضًا للعماد سمعان القيرينيّ وأبناءه.

وجديرٌ بالذكر، في هذا السياق، أنّ إسطفانُس هو ابن عمٍّ لبولس، ومع ذلك اشترك بولس في رجمه، أثناءَ كان ما زال شاول اليهوديّ المضطهِد.

في الأيّام التي تلت القيامة، واصل التلاميذ والرسل التبشير في بيت عنيا، حيث أقامت النساء القدّيسات في بيت لعازر وأُختيه. وقد بدت أُمّ الله حزينةً، ولكن محتفظةً، دائمًا، بسجوّ النفس. وكان حزنها ساميًا، مختلفًا عن حزن عموم البشر. وكانت ابنة أُختها، وهي الأكثر شبهًا بها، تلازمها، وتواسيها بعذوبةٍ فائقةٍ.

وكان اليأس مستحوذًا على المجدليّة، لا يهادنها، فلا تقوى على المكوث في مكانها، لحظةً، بل لا تنفكّ تذرع الطرقات، متحرِّرةً من كلّ حياءٍ بشريٍّ، نادبةً، مندّدةً بقتل الربّ، وبالتعذيب الوحشيّ الذي أسامه إيّاه اليهود، ومعلنةً قيامته. وعندما لا تعثر على من تبوح له بنجواها، كانت تجوس بين البساتين، شاكيةً للزهور والأشجار والينابيع والسواقي. وقد يتعاطف قليلون معها، في حين يشتمها العديد من اليهود، مستحضرين ماضيها المشين، مستنكرين تنديدها بهم. وذهب ببعضهم السخط حتّى محاولة اختطافها.

كانت قد ذهلت عن العالم أجمع، ولم يسكن نفسها سوى المخلّص. أمّا شقيقتها مرتا، فمع كلّ ما كان يطحنها من ألمٍ، لم تكُنْ تتوانى، لحظةً، عن توفير الطعام للرسل والتلاميذ الذين كبّلهم الخوف، أثناء آلام يسوع وقيامته من القبر.

## أشخاص على صلة بالأحداث

يوسف الأريماثيّ: وُلد في قريةٍ تبعد نحو ستّة أميالٍ عن أورشليم، غربيّ الناصرة. كان يمتلك، مع إخوته، مقلع أحجارٍ، وكان يحترف، أحيانًا، النحت، ولكنّه، منذ بدء بشارة يسوع، أقام في أورشليم.

كان رجلاً هادئًا، ذكيًّا، مستقيمًا، وبسيطًا، غير متزوّج. وكان على علاقةٍ وثيقةٍ بنيقودمس الذي يشاركه مهنة النحت. وكان نيقودمس أرمل، وله ولدان، وكلاهما صديقان لزوج ڤـــيرونيكا. وعقب صلب يسوع طُرِد يوسف الأريماثيّ ولعازر وأشخاصٌ آخرون من أورشليم.

القائد كاسيوس: عقب اهتدائه إلى المسيحيّة اعتنق اسم "لونجين"، وأصبح شمّاسًا إنجيليًّا، ودأب على رواية آلام المسيح وقيامته بصفته شاهد عيان، فأثار ضيق اليهود الذين حرصوا، بكلّ الوسائل، على إخفاء حقيقة قيامة المخلّص، وأغضبهم فضحه قسوتهم وامتهانهم للحقّ والحقيقة. وقد أسهم في ارتداد العديدين، وفي شفاء عددٍ غفيرٍ منهم بفضل لمسهم لدم يسوع المتجمّد الذي كان يحتفظ ببعضه.

وأرسل اليهود جندًا رومانيّين كي يعتقلوه في قريته، فروى لهم كلّ ما سمع ورأى، فتأثّروا، بعمقٍ، ولكنّ تعصّب اليهود ما انفكّ يلاحقه حتّى قطعوا رأسه ورأسي اثنين من مرافقيه. وقد جاء القتلة بهامته على رأس حربةٍ إلى أورشليم، كي يثبتوا إنجازهم لمهمّتهم. ولم يكن قد انقضى سوى سنواتٍ معدوداتٍ على صلب المخلّص.

القائد أبينادر: (الذي سمّي بعد ارتداده "كتيزيفون" )

تقول الرائية: "إنّه من بلادٍ قائمةٍ بين بابل ومصر، في العربيّة السعيدة (اليمن)، وعلى مقربةٍ من منـــزل أيّوب. كان قد تطوّع للعمل مع الرومان في قلعة أنطونيا في أورشليم، لأنّه كان راغبًا في تنمية مواهبه العلميّة. وكان شديد السمرة، ربع القامة، منيع العزيمة.

منذ سمع تعاليم يسوع وشهد إحدى معجزاته، مال إلى دين موسى، وكان يكنّ عميق احترام ليسوع. وإذ كُلِّف بحراسة الجلجلة، آن صلب يسوع، فرض النظام، والوقار، إلى أن تجلّت له الحقيقة بوضوحٍ، فأعلن على الملأ ألوهة المصلوب، وساعد في إنزاله عن الصليب وفي دفنه، ما جعله على علاقةٍ وثيقةٍ بأتباع يسوع. وإذ كان ميسور الحال ومتطوّعًا، لم يكن صعبًا عليه التخلّي عن وظيفته. وبعد العنصرة تعمّد في بركة بيت حسدا. وقد اجتذب إلى المسيحيّة أخًا له جاء هو أيضًا إلى أورشليم، واتّخذ اسم "سيسيلوس"، وعملا معًا مع الشمامسة في خدمة الجماعة المسيحيّة الناشئة.

وقد رافق "كتيزيفون" يعقوب الكبير ورسلاً آخرين إلى إسبانيا حيث أصبح أسقفًا، وأقام في جزيرةٍ قريبةٍ من فرنسا. وكثيرًا ما كان يبشّر في فرنسا حيث اجتذب العديد من الأصدقاء والتلاميذ، ووضع كتبًا يروي فيها آلام المسيح وقيامته، ولكنّ بعض المزيّفين انتحلوا اسمه ليشيعوا أكاذيب. وقد انضمّ إليه في إسبانيا، فضلاً، عن شقيقه، أصدقاء ومواطنون، وشاركوه رسالته.

# بعد القيامة

## الفصل السابع

## الإفخارستيا الأولى

رأت الطوباويّة "أنّا كاتارينا" ما حدث غداة يوم القيامة. فقد أقام نيقودمُس، تحت قناطر العلّيّة، مأدبةً للرسل، والنساء القدّيسات، وفئةٍ من التلاميذ. اشترك بها عشرة رسُلٍ، وغاب عنها توما. واندرجت تلك المأدبة وفق التوصيات التي كان المخلّص قد بلّغها، أثناء العشاء الأخير، لبطرس ويوحنّا، اللذين كانا الأوثق قربًا منه، والتصاقًا به، واللذين كان قد أولاهما مرتبة الكهنوت التي تؤهّلهما لإقامة الإفخارستيّا، فيما كان سائر الرسُل ما برحوا في مرتبة شمامسةٍ إنجيليّين.

تحلّق، إذن، الرسُل الثمانية حول بطرس ويوحنّا، مرتدين حللاً بيضاء طويلةً، وبلّغ الرسولان رفاقهما الأسرار التي كان الربّ قد أوكلها لهما، وأعدّاهم لممارستها وتلقينها للتلاميذ، وعقب هذا الإرشاد، دخلت إلى العلّيّة النساء القدّيسات، وعددهنّ تسعٌ، فعلّمهنّ بطرس، وتحدّث إليهنّ، فيما تولّى يوحنّا تعليم التلاميذ الأشدّ مراسًا، والذين كانوا أكثر قربًا من الربّ أثناء حياته، وعددهم سبعة عشر، منهم زكّا، ونثنائيل، وماتياس، وبارسابا.

وكانت قد نُصبت مائدةٌ طويلةٌ جلس في منتصفها بطرس ويوحنّا متقابلين، وجلس الرسُل والتلاميذ إلى جانبيهما. وفي جانبٍ آخر تربّعت النساء على مقاعد واطئةٍ. وفيما كان الجميع يتناولون الطعام، انصرف بطرس ويوحنّا إلى وعظهم وتعليمهم. ولمّا فرغ الجميع من الطعام جيء إلى بطرس برغيفٍ، قسّمه قطعًا صغيرةً، ملأ بها صحنين، طافا على الموجودين الذين تناولوا منهما، ثمّ ارتشفوا جميعهم من كأسٍ كبيرةٍ واحدةٍ. وبهذه المناسبة، دعاهم بطرس إلى الاتّحاد، وأن يكونوا واحدًا مثل الخبز الواحد الذي تناولوه، والكأس الواحدة التي شربوا منها جميعهم. ثمّ جال الرسُل بين الحضور وفسّروا لهم معنى الإفخارستيّا. وكان ذاك الدرس المسيحيّ الأوّل.

وفي موجة محبّةٍ متبادلةٍ طافحةٍ، امتدّت الأيادي للمصافحة، وأعلن الجميع عن رغبتهم في اقتسام كلّ ما يمتلكونه، وجعله ملكًا مشتركًا ينال كلٌّ منهم حاجته، ويضحّي كلٌّ منهم في سبيل الآخرين، فلا يكون لهم سوى قلبٍ واحدٍ، ونفسٍ واحدةٍ.

وبدت العذراء هي روح الجماعة المتّحدة، ورباطها، وموئل نورها، ومنبع حبّها.

عندئذٍ أوفد بطرس ماتياس إلى بيت عنيا كي يعلّم تلاميذ كانوا أوفر عددًا، وأقلّ تمرّسًا بالتربية المسيحيّة. فأقام لهم لعازر مأدبةً، ولقّنهم ماتياس ما تلقّنه من الرسُل في علّيّة أورشليم.

## احتفال الرسُل بإثنين الفصح، وظهور يسوع لتلميذي عمّاوس

في الصباح الباكر دخل بطرس ويوحنّا وأندراوس إلى العلّيّة، وارتدوا حللهم الكهنوتيّة، وارتدى توما والرسل الآخرون حللهم في رواقٍ محاذٍ. ثمّ دخلوا جميعهم إلى المحراب حيث كانوا قد تناولوا العشاء الأخير مع المخلّص، وحيث ما زالت الكأس وملحقاتها، ومصباحٌ واحدٌ مضاءٌ أمام الخبز الذي باركه الربّ وقدّسه، والذي ما برح في صينيّة فوق الكأس، وكلّها مغطّاةٌ بجرسٍ معدنيٍّ، وبغطاءٍ أبيض، بادر بطرس إلى إزاحته ومدّه فوق المائدة، ووضع فوقه صينيّة القربان. فانحنى بطرس ويوحنّا أمام القربان، ثمّ طاف بطرس بالصينيّة، وتناول كلٌّ من الرسُل قطعةً من القربانة. وبما أنّ الكأس كادت تفرغ أضاف إليها بطرس خمرةً ممزوجة بماءٍ، وارتشف كلٌّ منهم قليلاً منها. ثمّ تلوا صلواتٍ، وأنشدوا مزامير، وغطّوا الكأس والصينيّة، وأعادوهما إلى مكانهما. وكان ذاك احتفال الرسُل الأحد عشر الأوّل بالسرّ المقدّس.

في هذه الأثناء كان عددٌ من التلاميذ ملتئمين في بيت يوحنّا مرقس، يتبادلون الآراء حول قيامة الفادي، وما زال الشكّ يراود كثيرين منهم. وقد صعب تصديق تلك القيامة على اثنين منهم، هما لوقا وكليوبا، اللذين تربطهما أواصر صداقةٍ وثيقةٍ. وبما أنّ رئيس الكهنة كان قد حظر إيواء تلاميذ الناصريّ وإطعامهم، فقد عزما الفرار إلى عمّاوس. ولكي لا يشاهَدا معًا، ويُثيرا شبهاتٍ سلك كلٌّ منهما دربًا، ممسكًا عصا المسافرين، وحاملاً كيسًا يحتوي احتياجاته الأساسيّة. وكان لدى لوقا كيسٌ جلديٌّ يودعه الأعشاب الطبّيّة التي يعثر عليها في طريقه. وبعد فترة سيرٍ منفردٍ التقى التلميذان، ثانيةً، عند تلّةٍ مشرفةٍ على المدينة.

لم يكن لوقا قد رأى الربّ، في الآونة الأخيرة، ولم يستمع إلى تعليمه في بيت لعازر. وكان قد تعمّد على يد المعمدان، ومع أنّه لم يلازم الربّ، كان على علاقةٍ أوثق مع التلاميذ، وانضمّ إليهم انضمامًا حاسمًا في الأيّام الأخيرة، وشارك في الإفخارستيّا التي أقامها متّى في بيت لعازر، وأصغى إلى تفسير مغزاها. وكانت الشكوك قد اجتاحت فكره حول قيامة يسوع، وحول الإفخارستيّا، فقدم إلى أورشليم، وقضى ليلةً في بيت مرقس.

كان التلميذان يتبادلان التساؤلات حول ما حدث أخيرًا بشأن يسوع. وكان أشدّ ما يثير حيرتهما اضطرار المخلّص احتمال مهانة الصليب، وما واكبها من إساءاتٍ وإذلالٍ. وبغتةً شاهدا شخصًا قادمًا نحوهما من دربٍ جانبيٍّ، فأبطآ خطواتهما لعلّه يسبقهما، إذ لم يكونا راغبين في أن يستمع ذلك الغريب إلى ما يتداولانه من أقوالٍ وتساؤلاتٍ. ولكنّه أبطأ، هو أيضًا، خطواته، وما لبث أن انضمّ إليهما، وبادرهما بالاستفسار عمّا كانا يتجاذبان من أحاديث وهواجس، جهد في تبديدها، ولما انتهوا إلى مدخل مدينة عمّاوس تظاهر بالافتراق عنهما والتوجّه صوب بيت لحم، ولكنّ حديثه كان قد أثار اهتمامهما، وأخذ بمجامع قلبيهما،فألحّا عليه كي يرافقهما إلى نزلٍ حيث أُدخلا إلى حجرةٍ نظيفةٍ، تتوسّطها منضدةٌ، يعلوها غطاءٌ أبيض، وفي جنباتها أسرّةٌ. وسرعان ما جاء رجلٌ بقرص شهدٍ، وبفطيرةٍ كبيرةٍ، وبخبزٍ رقيقٍ، ووضعها جميعها أمام الغريب، بصفته ضيفًا.

عقب صلاةٍ وجيزة، جلس الثلاثة إلى المائدة، وتناولوا شيئًا من العسل، ومن الفطيرة، ثمّ اجتزأ يسوع من الخبز الأبيض قطعةً شطرها بسكّين أبيض مصنوعٍ من عظمٍ، إلى ثلاثة أجزاءٍ، وضعها على صحنٍ صغيرٍ، وباركها، فأشعّت نورًا، ونهض، ورفعها نحو السماء، وصلّى، ووقف التلميذان، وقد أخذ بهما التأثّر والذهول، فناولهما الربّ، ولّما همّ بتناول الجزء الثالث، توارى عن أبصارهما. ولبث التلميذان، برهةً، مبهورَين، ثمّ ارتمى كلٌّ منهما بين ذراعي الآخر، وهما يذرّفان دموعًا حارقةً.

كم كانت أخّاذةً وفاتنةً قسمات المخلّص، فيما كان يحدّثهما، ويشاركهما الطعام، وكم كان غامرًا فرحهما، وهما ينصتان إليه ولا يتعرّفانه، وكم كانت طاغيةً نشوتهما عندما تعرّفاه، وكم كان مذهلاً تواريه المباغت عن أنظارهما! وكان بدَهيًّا ألاّ يطيقا المكوث، لحظةً واحدةً، في مكانهما، فانطلقا جريًا إلى أورشليم كي يشركا الرسُل والتلاميذ الآخرين بالنعمة التي حظيا بها، ويزفّا لهم بشرى تأكيد قيامة المصلوب.

في العلّيّة، مساء يوم الإثنين ذاك، كان جميع الرسُل ملتئمين، ما عدا توما، مع عددٍ من التلاميذ ونيقودمُس ويوسف الأريماثيّ. وكانت الأبواب محكمة الإيصاد. كانوا قد قضوا النهار يتحلّقون فينةً إثر فينةٍ، للصلاة حول بطرس المرتدي حلّةً طويلةً يشدّها حزامٌ عريضٌ، وإلى جانبيه يوحنّا ويعقوب. وفي ناحيةٍ مشرعةٍ على موئل القربان، كانت العذراء، وابنة أختها مريم، والمجدليّة، وعيونهنّ شاخصةٌ إلى القربان.

وكانت تتخلّل الصلوات فترات تحادثٍ ونقاشٍ، إذ إن بعض الموجودين، رغم ظهور الربّ لكثيرين، كانوا ما زالوا مرتابين في صحّة القيامة وواقعيّة الظهورات، زاعمين أنّها مجرّد رؤى تحاكي رؤى الأنبياء.

وكانوا قد استأنفوا الصلاة، إثر هدنة نقاشٍ، عندما قرع كليوبا ولوقا الباب قرعًا ملحًّا، واندفعا إلى الداخل يموجان فرحًا، وسارعا إلى تبشير الموجودين برؤيتهم للربّ. توقّفت الصلاة مؤقّتًا، إتاحةً للقادمين إكمال روايتهما. ثمّ استأنف الجميع الصلاة والشكر، ففاجأهم المخلّص بحضوره وسطهم، مع أنّ الأبواب كانت ما زالت محكمة الإيصاد، مشيعًا على سِحَنهم الدهشة، وفي قلوبهم الفرح والخشوع. كان يرتدي ثوبًا أبيض يشدّه حزامٌ أبيض أيضًا. جال بينهم، وانتصب واقفًا وسطهم، مفجّرًا في نفوسهم الذهول، ودافقًا فيها طوفان فرحٍ. أراهم ثقوب يديه وقدميه، ومكان الطعنة في جنبه. وتبديدًا لما اعترى بعضًا منهم من رعدةٍ وحيرةٍ، سألهم إعطاءه طعامًا، فاستطارتهم البهجة، وسارع بطرس إلى إحضار سمكٍ

مشويٍّ، وعسلٍ، فباركهما الربّ، وشكر، وتناول منهما، وناول بعض الحاضرين منهما، وقدّم لقماتٍ لأمّه ومرافقاتها.

حولَ هذا الحدث تقول الرائية إنّ الربّ تحدّث إلى الحاضرين في العلّيّة، ولكنّها لم ترَ شفتيه تتحرّكان. ولكنّها رأت نورًا ينطلق من فمه ومن جراح يديْه وقدميْه وجنبه، فتنفذ أشعّته إلى نفوسهم وأذهانهم، ومن خلالها أدركوا أنّه أولاهم سلطة العماد، والشفاء، والتكريس بوضع الأيدي، والقدرة على مقاومة السموم. وفسّر لهم نقاطًا عديدةً تتعلّق به شخصيًّا، وبسرّ الإفخارستيّا، ودعاهم إلى تكريمه، وتكريم ذخائر القدّيسين والأبرار، وأوصاهم بإعلان قيامته في منطقة سيخار التي يقطنها سامريّون. ثمّ توارى عن العيون، واستحوذ الفرح على الحضور، فأقبلوا، مجدّدًا، على الصلاة وإنشاد التسابيح.

## حملةٌ تبشيريّةٌ

تلبيةً لطلب الربّ، انطلقت مجموعةٌ من الرسُل والتلاميذ، ومنهم لوقا، نحو سيخار. وفي الطريق، انشطروا إلى مجموعات، كي يبشّروا في أماكن عديدةٍ. وناشد بطرس فئةً منهم، بلهجة فرحٍ واندفاعٍ، هاتفًا: "هيّوا لنصطاد نفوسًا". فراحوا يبشّرون، في الطرقات وفي الخانات، بآلام المسيح وصلبه وقيامته، زارعين بذور العنصرة.

لوقا كان قد رأى النور في ضواحي أنطاكية من أبوين وثنيّين، وجيهَيْن، واعتنق، لاحقًا الدين اليهوديّ. كان طبيبًا ورسّامًا، كَلِفًا بالسفر، وقد أوصلته أسفاره إلى مصر. في فلسطين عقد وشائج صادقةٍ مع ثلّةٍ من تلاميذ يسوع أطلعوه على تعاليم الربّ، ومنذئذٍ تضاءل ولعه بالعلم، وازداد ميلاً إلى أفعال المحبّة، وتطوّعًا لخدمة المرضى، وأقدم، في هذا الميدان على تضحياتٍ ممعنةٍ في السخاء.

في سيخار اقتاد التلميذ سلوانُس مرافقيه إلى بيت والديه حيث قدّم لهم الطعام، وزُوِّدوا بكلّ ما يلزمهم في رحلتهم التبشيريّة.

ووعظ بطرس، في مدرسةٍ، أمام جماهير شعبيّةٍ، عن آلام المسيح وقيامته، ودعا إلى اتّباع تعاليمه، وأهاب بالمسيحيّين الجُدد الخائفين أو المتردّدين أن يقصدوا أورشليم حيث سيتسنّى لهم مشاركة أصدقاء الربّ بكلّ ما يملكون.

وأثناء وجود التلاميذ والرسل في بيت ذوي سلوانُس، انضمّ إليهم الرسول توما، فأخبروه بظهور يسوع لهم، ولكنّه أبى تصديقهم حتّى يجسّ جراحه بيده. وكان ذاك، أيضًا، موقفه، حيال تأكيد رُسلٍ وتلاميذ آخرين حقيقة ظهور الربّ. فقد كان نأى، فترةً عن سائر المؤمنين، وهزل إيمانه.

خلال هذه الحملة التبشيريّة شفى الرسُل عديدًا من المرضى، وطردوا شياطين وأرواحًا شرّيرةً، مقتدين، في كلّ أمرٍ، بمعلّمهم. ولم يقم التلاميذ بأي شفاءٍ، ولكنّهم دأبوا على خدمة المرضى وغوثهم. وكان لوقا يسعفهم، ويعالجهم بتفانٍ رائعٍ. وبالإجمال رحّب سكّان سيخار بضيوفهم أجمل ترحيبٍ.

وكان بطرس يواصل الوعظ حتّى آناءٍ متقدِّمةٍ من الليل، مبلّغًا مستمعيه الكثيرين تعاليم يسوع الأخيرة ويحدّثهم عن حبّه الذي يتعذّر وصفه، وعن نزاعه في بستان الزيتون، وعن خيانة يهوذا، ونهايته المريعة. فأحزنهم ذلك، وأثار دهشتهم، إذ قد سبق ليهوذا أن أدّى خدماتٍ لكثيرين منهم، وأجرى أشفيةً عجيبةً.

ولم يُخفِ بطرس عن مستمعيه كبواته الشخصيّة، وروى لهم، وسط انهمار دموعه، كيف طغى عليه الجُبن، فأنكر سيّده، وشاركه القوم بكاءه. وروى لهم، بنبرةٍ محتدّةٍ، وبألمٍ شديدٍ، العذابات الوحشيّة التي أنزلها اليهود بيسوع، وكيف قام المصلوب من القبر، في فجر اليوم الثالث، وظهر للنساء اللائي وافينَ القبر لتحنيطه، ثمّ للعديد من الرسُل والتلاميذ، وأيّد أقواله سائر الرسُل المرافقين له. وكان تأثّر المستمعين بليغًا، وارتدّ كثيرون منهم، فدعاهم إلى أورشليم، التي أمّها، صباح اليوم التالي، مع صحبه، وجمعٍ غفيرٍ من أهالي سيخار. وفي تلك الأيّام توالت ظهورات الربّ للكثيرين ممّن سكن هو قلوبهم وأذهانهم.

عاد موكب المبشّرين، ليلاً، من سيخار، فاستقبلتهم، في العلّيّة، أمّ الربّ، بمثل الفرح والشوق اللذين يُستقبَل بهما أحبّاءُ طال غيابهم شهورًا. وفي الحال تأهّبوا للصلاة، وللاحتفال بالإفخارستيّا، تنفيذًا لرغبة الربّ.

في ذلك اليوم كانت قد عادت مريم أُمّ مرقس بالعذراء من بيت لحم إلى أورشليم التي أمست غاليةً على قلب الأُمّ المفجوعة. فكانت، بعد الغروب، وأثناء الليل، تطوف، خاشعةً، متأمّلةً مسارح آلام ابنها الفدائيّة، وكلّ مكانٍ شهد هذه الآلام التي انحفرت في فؤادها بكلّ تفاصيلها، وغدت، هي، العذراء الأُمّ، تعرف، تلقائيًّا عدد الخطوات المؤدّية إليها، وأدقّ معالمها، وأضحى استذكار آلام ابنها هو شاغل ذهنها الوحيد.

في هذه الأثناء كان عددٌ من الرسُل قد حاولوا شفاء مرضى، ولكنّهم فشلوا، فأوحى إليهم الربّ أنّ سبب فشلهم يكمن في تصنّعهم الوقار، وأوصاهم بالتواضع والبساطة، فعادوا إلى مرضاهم، وركعوا أمامهم، واستغفروهم عن إخفاقهم في غوثهم، وفي الحال تحقّق الشفاء.

وكان يوحنّا الأشدّ اهتمامًا بأمراض النفوس.

وبالمقابل لم تخمد، ولو ذرّةً، نقمةُ زعماء اليهود، فعزلوا كلّ من كان له بيسوع صلةٌ، من كلّ مهمّةٍ موكلةٍ إليه، وكلّ منصبٍ كان يتبوّأه، وحظروا على الشعب الاتصال به. وكان نيقودمُس ويوسف الأريماثيّ في طليعة من انصبّ عليهم غيظهم. وبرهن بعضٌ من هؤلاء عن شهامةٍ ورفعة نفسٍ مدهشتين، فزوج "ڤـــيرونيكا"، على سبيل الشاهد، لم يستنكر إعلان زوجته إيثارها الانفصال عنه، إن هو عادى يسوع، على الانفصال عن المصلوب، لا بل تعاطف مع إعلانها هذا، وانضمّ إلى نيقودمُس ويوسف الأريماثيّ.

أما زعماء اليهود فإمعانًا في الانتقام، والتعبير عن غيظهم، أقدموا على سدّ الطرق المؤدّية إلى الجلجلة، والقبر المقدّس، الذي سرعان ما تحوّل محجًّا، وحفروا

دونهما خنادق، ونصبوا حواجز، وعوائق ركاميّةً، ولا سيّما بعد أن نشطت حركة الحجّ إلى تلك الأماكن، وحدثت ارتداداتٌ روحيّةٌ، وتحقّقت فيها معجزاتٌ. غير أنّ مسيحيّين شجعانًا عمدوا، مرّةً تلوَ مرّةٍ إلى إزالة تلك الحواجز، وإلى ردم الخنادق، وإلى شقّ مسالك جانبيّةٍ متعرّجةٍ تفضي إليها.

وأقامت العذراء، في منـــزلها سبع محطّاتٍ من درب الصليب، دأبت على إنفاق الساعات أمامها، متأمّلةً، مصلّيةً، مستذكرةً آلام ابنها الفدائيّة.

## يسوع يظهر لتوما، ويقيم بطرس رئيسًا للرسل

في اليوم التالي، التأم الرسُل والتلاميذ في العلّيّة، وفيما كانوا يتأهّبون للصلاة، وافى توما مشاركًا، وشوهد عددٌ من الحاضرين يدنون منه، ويؤكّدون ظهور الربّ لهم، أمّا هو فظلّ محجمًا عن تصديقهم.

وحضرت العذراء بصحبة المجدليّة، فأوصدت الأبواب، واحتلّ كلٌّ مكانه للصلاة. وكانت الحُجَر الجانبيّة مليئةً بالتلاميذ. رأَس بطرس الصلاة، محاطًا بيوحنّا ويعقوب، وبالرسل من ورائهم. تُليتْ صلواتٌ، وأُنشدت مزامير وتراتيل، واختُتم الاحتفال بالإفخارستيّا. وعقبت ذلك هدنةٌ لتبادل الأحاديث، وتوازع مهمّات التبشير. وبغتةً، انفرج الباب، تلقائيًّا عن زائرٍ يشعّ نورًا، مرتديًا ثوبًا أبيض، احتلّ مكان بطرس، الذي ارتدّ جانبًا مع يوحنّا ويعقوب. لم تكن مشية الزائر مشية إنسانٍ، ولكنّه لم يكن يحلّق تحليق روحٍ، بل كان مزيجًا من إلهٍ وإنسانٍ. وفي الحال، بدت القاعة بهيّةً، رحبةً، متلألئةً، نيِّرةً.

حيّا الزائر الجميع بقول: "سلامٌ لكم". ثمّ همس بضع كلماتٍ في أُذني بطرس ويوحنّا، ووقف تحت المصباح، فالتفّ الجميع من حوله. وارتسمت أمارات الذهول على محيّا توما لدى رؤيته الربّ، وتراجع إلى الوراء، ولكنّ يسوع أمسك بيده اليمنى، وأدخل سبّابته في ثقب يده اليسرى،، ثمّ أمسك بيده اليسرى يد توما

الأُخرى وأدخل سبّابتها في يده اليمنى، ثمّ دسّ يد توما اليمنى، تحت معطفه في جرح جنبه الأيمن. فهتف توما: "ربّي، وإلهي!"، وهوى أرضًا، فسارع الرسُل إلى مساندته، وأنهضه الربّ.

كان الرسُل قد أدنوا رؤوسهم من الربّ عندما أدخل يدي توما في جراحه، أمّا العذراء فقد عبّرت عن تأثّرها بخشوعٍ سحيقٍ، وانخطافٍ.

وطلب يسوع طعامًا، فجيء إليه بسمكٍ باركه، وتناول قليلاً منه، وأطعم توما، وبعضًا من الحاضرين. ثمّ بيّن سبب وقوفه وسط من أنكروه، ومن ساورهم بشأنه شكوكٌ. وأعلن إقامة بطرس رئيسًا لهم، رغم إنكاره له، إذ لا بدّ للقطيع من راعٍ، وبطرس تميّز بغيرته. وركع بطرس أمامه، فوضع يديه عليه، وبلا كلامٍ، أولاه نعمةً وسلطةً، تاركًا مهمّة إحيائهما وإذكائهما لحلول الروح القدس. ثمّ جاء من المحراب حيث يودع القربان، بمعطفٍ كانت النساء القدّيسات قد وشَّينَه، في بيت عنيا، فألبسه لبطرس، ووضع في يده عصًا معكوف الرأس، دليلاً على السلطة التي أولاه إيّاها.

وحدّث الربّ الحاضرين عن عمادٍ كبيرٍ سيحدث عقب حلول الروح القدس عليهم، وأنبأهم أنّ بطرس سيقاسمهم، بعد أيّامٍ، السلطة التي نالها، وأدلى بتدابير تتعلّق بالسلطات الكنسيّة، وبأساليب تكريس رعاةٍ وخدّامٍ. وحينئذٍ ألّف التلاميذ سبع جماعاتٍ رأس كلاًّ منها رسولٌ.

وخاطب بطرس إخوته الرسُل والتلاميذ، فتبيّن لهؤلاء أنّ السلطات التي أولاه إيّاها الربّ قد حوّلته إنسانًا آخر مليئًا قوّةً. فأصغوا إليه متأثّرين، مذرّفين الدموع، فعزّاهم، وذكّرهم بأمورٍ كثيرةٍ كان الربّ قد قالها، وتحقّقت واقعًا. وفيما كان بطرس يتكلّم توارى المخلّص عن الأنظار، ولكنّ بطرس واصل خطابه، واستمرّ الجميع في الإصغاء إليه باهتمامٍ وتأثّرٍ. وانتهى الاجتماع بتلاوة المزامير، وإنشاد آيات الشكر.

## الصيد العجيب

كان الربّ قد أوعز إلى بطرس أن يمضي وإخوانه للصيد قرب طبريّا فانقسموا إلى جماعاتٍ، ونهجوا دروبًا مختلفةً، تفاديًا للفت أنظار اليهود. وعلى مقربةٍ من بحيرة طبريّا توقّفوا عند موقع صيدٍ كان بطرس قد استأجره، آنفًا، واستثمره. وأخذوا مركبين. قاد بطرس أكبرهما، وحرص على التجذيف بنفسه، مثبتًا، رغم الكرامة التي خصّه بها الرب، احتفاظه بتواضعه وبساطته.

وقضوا الليل كلّه يطوفون البحيرة يمنةً ويسارًا، ويلقون الشباك التي لا تلتقط شيئًا، ومع ذلك استمرّوا ينشدون، ويرفعون الصلوات بأصواتٍ جهيرةٍ. وقُبيْل شروق الشمس، دنوا من الضفّة الشرقيّة، وقد كدّهم التعب، وهمّوا بإلقاء المراسي، فلمحوا شكلاً بشريًّا، وراء قصب الشاطئ، بادرهم بالسؤال: "هيه، يا أولاد، أليس لديكم شيءٌ للطعام؟" فأجابوا بالنفي. وحينئذٍ نصحهم بإلقاء الشباك غربيّ مركب بطرس. وما إن ألقوها حتّى شعروا بأنّها زخرت بالسمك. وفي الحال أدرك يوحنّا أنّ الرجل الذي خاطبهم هو المخلّص عينه، فصاح من مركبه، مناديًا بطرس، هاتفًا: "إنّه الربّ!". فألقى بطرس على جسده ثوبه الذي كان قد خلعه للصيد، وهرع سابحًا صوب يسوع. وامتطى يوحنّا زورقًا صغيرًا كان مربوطًا بمركبه، وهرع، أيضًا، نحو المعلّم.

وتكاتف ركّاب المركبين على جرّ الشباك، وألقى بطرس السمك على الشاطئ، عند قدمي الربّ، وكأنّه يقول: "هذا صيدك، وليس صيدي. هذا لك، وليس لي!". ولكنّ الربّ لم يكن ينتظر صيدهم كي يشاركهم الطعام، بل دعاهم إلى كوخٍ، حيث وجدوا موقدًا، عليه سمكةٌ كبيرةٌ تُشوى فوق الجمر، وخبزًا، وقرص شهدٍ. ودعاهم إلى الجلوس، وأعطى كلاًّ منهم كسرة خبزٍ، وجزءًا من السمكة، التي أشبعت جميعهم، على نحوٍ عجيبٍ. ثمّ قدّم لهم عسلاً، وشاركهم الطعام.

واندرج كلّ شيءٍ في هدوءٍ ووقارٍ. فقد سادت الرهبة، وارتدى ظهور يسوع ذاك شكلاً محفوفًا بالسرّ والسموّ أكثر من ظهوراته السابقة. وكان هدوء الفجر

قد أضفى على الحدث وقارًا، وأشاع اهتمام يسوع بإعداد الطعام وتوزيعه عليهم، وخدمته لهم، جوّ عذوبةٍ فائقةٍ.

وتقول الرائية إنّ ذلك الإفطار قد اتّسم بطابعٍ صوفيٍّ مسكونيٍّ. فقد جاء يسوع إلى ذلك المكان مصحوبًا برهطٍ من نفوس أبرار العهد القديم، وبحضورهم أسّس الكنيسة الجديدة، وأوكل رعايتها إلى بطرس، موثّقًا أواصر جميع المؤمنين في كلّ العصور، وموحّدًا الكنيسة المتألّمة والراغبة بالكنيسة المناضلة.

عقب الإفطار، قام يسوع ورسله بنـــزهةٍ على ضفاف البحيرة. وبغتةً توقّف وسأل بطرس: "يا سمعان بن يونا، هل تحبّني أكثر من هؤلاء؟". وأجاب بطرس خجلاً: "أجل، يا ربّ، أنت تعلم كم أحبّك"، فقال له يسوع: "إِرعَ خرافي". في تلك اللحظة، بدا يسوع كأنّه يشهد، بالروح، الكنيسة وراعيها الأعلى معلّمًا ومرشدًا المسيحيّين الأوّلين وهم ما زالوا ضعفاء، هشّين، ويرى عماد الموعوظين مثلما تُغسل الحملان الصغيرة. واستأنف الربّ وصحبه نزهتهم صامتين. وتوقّف يسوع، ثانيةً، فتحلّق الجميع من حوله، فسأل بطرس، ثانيةً: "يا سمعان بن يونا، هل تحبّني؟". وتذكّر بطرس إنكاره، فأجاب خجلاً، منكسرًا: "أجل، يا ربّ، أنت تعلم أنّني أحبّك". فقال له يسوع: "إِرعَ حملاني".

وبعد بضع خطواتٍ، سأل يسوع بطرس، للمرّة الثالثة: "يا سمعان بن يونا، هل تحبّني؟". فاستحوذ الحزن على بطرس، الذي خُيِّل إليه أنّ الربّ يكرّر سؤاله، لأنّه ما زال مرتابًا في حبّه له، وراودته بعنفٍ ذكرى إنكاره الثلاثيّ. ولكنّه أجاب: "يا ربّ، أنت عليمٌ بكلّ شيءٍ، وتعلم أنّي أحبّك!". فقال له يسوع: "إِرعَ نعاجي". وتساءل يوحنّا في سرّه: "كم يسوع يحبّ؟ وكم على الراعي أن يحبّ، بما أنّ الربّ بعد أن أوكل إلى بطرس قطيعه، استفسره ثلاث مرّاتٍ عن حبّه". أمّا يسوع فخاطب بطرس قائلاً: "حقًّا، حقًّا، أقول لك: "عندما كنت شابًّا، كنت تتمنطق بمفردك وتمضي إلى حيث تشاء. ولكنّك عندما ستشيخ ستمدّ يديك وآخر يربط لك حزامك، ويقودك إلى حيث لا تودّ الذهاب. هيّا، اتبعني!".

## ظهورٌ آخر علنيٌّ

منذئذٍ انطلق الرسُل يطوفون في مدن فلسطين وقراها، مبشّرين بقيامة الربّ، مذكّرين بما سيمَ من تنكيلٍ وتعذيبٍ وحشيٍّ، ومن صلبٍ مشينٍ، ودفنٍ، ومع ذلك قام من القبر، وظهر لهم، بعد قيامته. وعليه كانوا يدعون الجميع إلى الإيمان به، واعتناق تعاليمه.

وكان بطرس، الذي تحوّل تحوّلاً جذريًّا، يُجري أشفيةً معجزةً تدعم تبشيره ودعوته. وأخذ الاندفاع بكثيرين، فعزموا التخلّي عن كلّ شيءٍ واتّباعه، واضطرّ بطرس إلى صرفهم عمّا عزموه، ونصحهم بممارسة إيمانهم في محيطهم، وحيث هم.

وإثر مسيرة يومٍ كاملٍ، وصل بطرس ومرافقوه إلى الهضبة التي ألقى فيها يسوع العظة التي ضمّنها خلاصة تعليمه. وانضمّوا، هناك، إلى سائر الرسُل، وعددٍ غفيرٍ من التلاميذ والنساء القدّيسات، ما عدا العذراء وڤـــيرونيكا. فروى لهم بطرس ورفاقه حادث الصيد العجيب، والإفطار الذي أعدّه لهم القائم من الموت.

وسرعان ما تكثّف حشد الحضور، فارتقى بطرس مرتَفَعًا، وانطلق يروي آلام يسوع وصلبه وقيامته، وظهوراته ومعجزاته، داعيًا إلى الإيمان به، واتّباع تعاليمه. ولكي لا يُحرَم البعيدون عنه من التعليم، كلّف خمسة رسُلٍ بالتبشير في خمسة مفارق مؤدّيةٍ إلى الهضبة.

وبغتةً ظهر الربّ قادمًا من الدرب الذي سلكه بطرس، فكلاهما يسلكان الطريق عينه إلى النفوس. فسجدت له النسوة اللائي مرّ بهنّ، فوجّه لهنّ عباراتٍ رقيقةً، في حين اضطرب وارتعد الذين كانوا مقيمين على رفض الإيمان به. ووقف يسوع مقابل بطرس، وكلّم الجموع، مؤكّدًا واجب التخلّي عن كلّ شيءٍ من أجل اتّباعه، ومنذرًا أتباعه بالتعرّض للاضطهاد. ولدى سماع ذلك، ارفضّ عنه نحو مئتي شخصٍ. حينذاك، أوضح يسوع أنّه، من قبلُ، كان قد حرص على تغليف أقواله بالتحفّظ والمداراة، تفاديًا لإجفال النفوس الضعيفة. وها هو عازمٌ على مصارحة

مستمعيه الثابتين في إيمانهم، مسهبًا في وصف الاضطهادات التي ستلاحق أتباعه، وروعة المكافآت الأبديّة التي سيكتسبونها. وكانت أقواله هذه موجّهةً، على نحوٍ خاصٍّ، إلى الرسُل والتلاميذ، الذين أوعز إليهم بالمكوث مؤقّتًا في أورشليم، ريثما يرسل لهم الروح القدس، ويكلّفهم بالتعميد باسم الآب والابن والروح القدس، فينطلقون، آنذاك، لنشر الكنيسة، حتّى أقاصي الأرض حيث سينالون عماد الدم.

ومثلما ينطفئ النور، توارى الربّ عن الأنظار، فارتمى معظم الشهود أرضًا. وكان ذلك الظهور أكثر ظهورات القائم من الموت علنيّةً.

## تجمّعٌ في بيت عنيا

في بيت عنيا تجمّع عددٌ كبيرٌ من المؤمنين، ضمّ أكثر من ثلاث مئة رجلٍ ومئة امرأةٍ. وكانوا جميعهم قد اتّبعوا الرسُل، ووضعوا كلّ ممتلكاتهم بتصرّف الجماعة. وكانوا يقيمون، بين فينةٍ وفينةٍ، وجبة طعامٍ جماعيّةً، يكسرون فيها الخبز، ويُجيلون كأسًا غير مكرّسةٍ، دلالةً على وحدتهم الأخويّة. وقد يندسّ بينهم غرباء متجسّسون. وكان هؤلاء الأشقياء، كلّما سمعوا بطرس يدعو الجميع للمجيء بلا خوفٍ ولا خجل، والحصول على ما يحتاجون إليه، يسخرون منه، واصفينه بالمعدم، "المعتّر"، الذي لا يملك ما يُعيل به زوجته.

ومع أنّ بطرس، شأنه شأن سائر الرسُل، لم يكن قد تشدّد، بعدُ، في الإيمان بحيث لا يهتزّ ولا يتزعزع، إلاّ أنّ الجميع كانوا ينظرون إليه، بعد ما أولاه الربّ سلطة القيادة، بصفته لسان الكنيسة، ويدها، وراعيها، حتّى نهاية الدهور. وفي الآن عينه، كان الربّ قد أوكل إلى يوحنّا الحفاظ على نبع الماء الحيّ الذي يروي المؤمنين. أحد الرسوليْن كان الصخرة الراسية، والآخر كان النسمة، الغيمة، وابن الرعد. بطرس كان القيثارة، وأوتارها المتناغمة، ويوحنّا كان النغمة المتصاعدة من الأوتار.

وذات يومٍ، وافى خمسون نفرًا من حرّاس الهيكل، تابعون لرؤساء الكهنة، برفقة مندوبين عن السنهدرين، أمروا الرسُل بالمثول أمام محكمتهم الدينيّة. فمثل بطرس

ويوحنّا وتوما، وردّوا ببسالةٍ، التهم المنسوبة إليهم، والمتعلّقة بإثارة فتنةٍ شعبيّةٍ من خلال اجتماعاتهم. وإثر ذلك أوجد الرسُل أماكن إقامةٍ واجتماعٍ، في الجوار، لعددٍ من المؤمنين، وظلّوا يوفّرون لهم احتياجاتهم. ودعوهم إلى التلاقي، يوم صعود الربّ إلى السماء. ومع ذلك كان بعض الرسُل والتلاميذ لم يستوعبوا، بعد، جوهر رسالة معلّمهم، وما برحوا يأملون بمملكةٍ أرضيّةٍ يكون لهم فيها نصيبٌ.

## العذراء، أمّ الكنيسة، تتناول من يد بطرس.

خطرت للأخت "إيمّيريك" رؤيا، رأت، خلالها، الرسُل وعشرين تلميذًا مجتمعين في العلّيّة. وقد انتحى يوحنّا بالرسل، وانتحى بطرس بالتلاميذ، وتحدّثوا عن طريقة علاقتهم بالعذراء أُمّ الربّ. وحينئذٍ رأت الأخت العذراء متّشحةً بمعطفٍ مشعٍّ نورًا، تطوف فوق الحاضرين، وتلفّهم بحضورها، والسماء تُفتح، وإكليلاً مرسلاً من الثالوث يحطّ على هامتها، جاعلاً منها لهم الحامية، والهيكل، والمحراب.

وفي المساء، مُدّت مائدة طعامٍ، جلست إليها العذراء بين بطرس ويوحنّا، وجلس الآخرون إلى موائد أُخرى، يمينًا ويسارًا، واضطلع نيقودمُس ويوسف الأريماثيّ بخدمة الموائد، فيما تولّى بطرس تقطيع الحمل مثلما كان يسوع قد قطّع حمل الفصح. وكان الجميع يرتدون حللاً احتفاليّةً. وفي أثناء العشاء، كانت العذراء محجّبةً، مرتديةً معطفًا أبيض. وفي نهاية العشاء، كُسِر الخبز، وطافت الكأس على الجميع، وألقى بطرس خطابًا. ثمّ جثوا جميعهم، ورفعوا صلاةً ثانيةً.

قُبيْل منتصف الليل، تلقّت العذراء الإفخارستيّا من يد بطرس، ومن الصينيّة التي كانت ما تزال تحتوي القرابين التي كرّسها يسوع، وفيما هي كانت تتناول، ظهر لها ابنها، ولم يرَه أحدٌ سواها. كانت، هي، تشعّ نورًا، وقد توّج هامتها إكليل نجومٍ. ومذّاك غدا الرسُل يبدونَ حيالها جمًّا من تجلّةٍ تختلف عن الألفة الرقيقة التي كانوا يتعاملون بها معها، سابقًا.

ثمّ عادت مريم من العلّيّة إلى مكان إقامتها في بيت أُمّ مرقس، واختلت في غرفتها كي تنشد تعظيمة الله التي أُوحيت إليها يوم زيارتها لإليصابات. ومع انبلاج الفجر دخل يسوع إلى حجرتها الموصدة، وحدّثها حديثًا مستفيضًا، ولكنّه لم يقبّلها، ولم يصافحها. وفسّر لها العلاقات التي ستقوم بينها وبين الرسُل. علاقاتٍ روحيّةً، صوفيّةً. وأولاها سلطةً على الكنيسة كفيلةً بحمايتها ومنذئذٍ أمست العذراء وكأنّها أحد الرسُل، بل كانت للرسل الأُمّ، والمرجع الذي يسترشدون به.

وأفادت الرائية أنّ العذراء لم تكن تتمثّل القربان الذي تتناوله، والذي كان يبقى فيها على حاله، ويتراكم من مناولةٍ إلى أُخرى، ممّا كان يتيح لها عبادة الله المتجسّد الحاضر ماديًّا وسرّيًّا في أحشائها. وإثر استشهاد اسطفانس، وانقطاع الرسُل المؤقّت عن تكريس القربان، لم تفقد الكنيسة حضور الإفخارستيّا، الثاوية في قلب أُمّ الله، وفي حشاها.

## الجماعة المسيحيّة تنمو

كلَّ يومٍ، كان يشهد انضمام مؤمنين جدُدٍ إلى جماعة الرسُل، قادمين، خاصّةً من نواحي بحر الجليل، برواحلهم المثقلة بممتلكاتهم، ويحلّ معظمهم في خاناتٍ ونُزُلٍ بجوار بيت عنيا، حيث يهرع رسلٌ وتلاميذ لتزويدهم بالتعليمات الأساسيّة. وعند امتلاء النُزُل، وعجزها عن استيعاب المزيد، كان التلاميذ يوجّهون القادمين الجدُد إلى لعازر الذي يؤويهم في ممتلكاته الخاصّة، أو في بيوتٍ يشتريها لهم. وقد استقرّ عددٌ من اليهود الفقراء في جوار جبل صهيون، وحوّلوا الآثار الدارسة إلى خيامٍ. وكان بين القادمين، كلدانيّون.

ولم يتعرّض اليهود للقادمين بأذًى، لأنّهم كانوا منشغلين بتكذيب وتشويه المعجزات المدهشة التي تتحقّق على أيدي أتباع الناصريّ. غير أنّهم شيّدوا جدارًا يعزل القادمين عن جبل الهيكل، وعن الأحياء الملاصقة له. وكان ميسورون يزوّدون القادمين الفقراء بلفائف ضخمة من الأقمشة الصوفيّة، بعضها من صوفٍ

ناعمٍ أبيض أو أصفر، كانت تُفصّل منها حلل عمادٍ وصلاةٍ، أو ألبسةٌ للفقراء، وبعضها غليظةٌ تُصنع منها بُسُط وخيامٌ.

وكان التلاميذ يساعدون القادمين على بناء أماكن إقامة، ويزوّدونهم بالحطب، والحُصُر، والحواجز الداخليّة، ويؤازرونهم بنشاطٍ واندفاعٍ. وكان للنساء، أيضًا، نصيبٌ وافرٌ من المساعدة.

كان من يملك يعطي، ومن لا يملك يتلقّى بلا حرجٍ، فكلّ شيءٍ مشتركٌ. وكان لعازر أسخى مزوّدي الصندوق الجماعيّ بالمال.

وفيما دأبت العذراء وشقيقتا لعازر على تطريز ثيابٍ للأطفال، وأغطيةٍ للهيكل، رسمنَ عليها صور الفادي، عكفت النساء المؤمنات على حياكة شالاتٍ وأغطيةٍ.

وتسنّى للرسل امتلاك بيتٍ قريبٍ من بركة بيت حسدا، وقفوه على تعليم المبادئ المسيحيّة. وفي تلك الأيّام قاطع الرسُل والتلاميذ الهيكل ومجامع اليهود، فقد كانت العلّيّة، حاضنة القربان المقدّس، هي لهم الهيكل والمجمع. بيد أنّهم، عقب العنصرة، عادوا يغشون الهيكل والمجامع، من أجل التبشير بيسوع.

## يسوع يُعِدّ أصدقاءه للفراق

قضى الربّ معظم أيّامه الأخيرة على الأرض، عقب قيامته، برفقة تلاميذه، في جوّ أُلفةٍ عذبةٍ، مشاركًا إيّاهم الصلوات ووجبات الطعام، معلّمًا، ومذكّرًا بتعاليمه السابقة. ولم يكن ينأى عنهم، ويختلي للصلاة، ومناجاة الآب، إلاّ آناء الليل.

ولم يكن يتحرّج من التجوّل في شوارع أُورشليم وأزقّتها، فتمكّن العديد من اليهود من رؤيته قائمًا من الموت. ولكنّ كثيرين منهم، كانت تأخذ به الرعدة فيتوارون داخل بيوتهم. وكان يعتري حتّى التلاميذ، أحيانًا، شعورٌ بالجزع والتجلّة حيال إلهٍ إنسانٍ دُفن وقام، وكأنّهم حيال شخصٍ غير مادّيٍّ. وكان يمرّ، أحيانًا بقومٍ، فلا يرونَه، أو لا يتعرّفونه. أمّا الذين يتعرّفونه، ويحاولون الجهر بتكريمهم له، فكان يدعوهم إلى كتمان الأمر، إلى حينٍ.

وقد ظهر، ليلاً، لعدّة أشخاصٍ في بيت عنيا، وفي مدُنٍ أُخرى، وحتّى للأشخاص الذين أبوا الإيمان بقيامته. وكثيرون من هؤلاء انضمّوا إلى الرسُل بعد العنصرة.

ولما وافت العذراء إلى بيت لعازر، في بيت عنيا، هرع إلى ذلك البيت رهطٌ من الأصدقاء، الذين تناهى إليهم عزمه على مغادرة الأرض مغادرةً نهائيّةً، فتداعوا وتقاطروا لرؤيته، وسماعه، مرّةً أخيرةً، ووداعه. وإذ كان بعضٌ من تلاميذه ينتحبون، هدّأ روعهم، وأشار إلى أُمّه الصامدة المتماسكة، وأهاب بهم التمثّل بها.

وفي رقّته، كان، كلّما ضاق البيت بالمودّعين، يخرج إلى فناء الدار، كي يرى، ويحدّث، ويودّع الذين لم يتسنّ لهم الدخول، ويبارك الطعام الذي أُعدّ لهم.

وذات مرّةٍ، شوهدت أُمّه العذراء تقترب منه، في فناء الدار، فلم يصافحها، والتمست منه أمرًا، فأوضح لها تعذّر استجابته له، في ذلك الحين. وبرهنت العذراء عن تواضعٍ فائقٍ، فشكرت له ردّ مطلبها، وعادت أدراجها.

ودّع الربّ لعازر وداعًا تميّز بالحرارة، ثمّ عاد إلى أُورشليم عبر دروبٍ جانبيّةٍ، يواكبه الأحد عشر رسولاً، وتلحق بهم أربع جماعاتٍ، كلٌّ منها، على مسافةٍ من الأُخرى.

وفي أثناء المسيرة كان الربّ ينبئ، بعباراتٍ مبهمةٍ، بما سيحلّ بأورشليم. وكان كثيرون من اليهود الذين يشهدونه يغطّون وجوههم بأيديهم، ويلوذون بالفرار. وكان عددٌ من المتشدّدين منهم، قد جهدوا، طوال الأيّام الأخيرة، في تشويه معالم درب صليبه، حؤولاً دون الحجّ إليه، ومنعًا لأتباعه من تكريمه فيه. وكان بعضهم قد نصبوا فخاخًا لكي يعلق بها قاصدو تكريمه، وغالبًا ما علق بها ذووهم وأصحابهم. (وها إنّ ذريّة أولئك الناقمين، ما برحت تحاول، يائسةً محو آثار صليبه، وذكر آلامه، وطمس آثارها، أو تحويلها منابع لمكاسب تجاريّةٍ، بعد تجريدها من قدسيّتها).

وفيما كان يسوع وموكبه، يسلكون، ذات يومٍ، دروبًا عديدةً في نواحي بستان الزيتون، كان الربّ يتوقّف، بين حينٍ وآخر، ويفسّر لصحبه أُمورًا ما زالت مستغلقةً على فهمهم. وكان القلق يستحوذ على بعضٍ منهم، والإحباط يأخذ بآخرين. وتساءل أحدهم: "عندما سيغيب المعلّم، من سيحلّ مكانه، وكيف سيتحقّق وعد الربّ؟".

بطرس ويوحنّا اللذان أُطلعا على مخطّط الربّ، ورسالته الخلاصيّة، احتفظا بالسكون ورباطة الجأش، فيما دأب زملاؤهما على استفسار أُمورٍ عديدةٍ، كان الربّ يوضحها لهم.

استمرّت المسيرة حتّى المغيب، وفي أثنائها كان الربّ يتوارى عن أبصارهم ثمّ يظهر، وكأنّه يعدّهم لغيابه الجسديّ النهائيّ.

وفي المساء تناولوا جميعهم عشاءً أشرف على خدمته مرقس، ونيقودمُس، ويوسف الأريماثيّ. وظلّ يسوع واقفًا، ويوحنّا إلى جانبه، موضحًا الأُمور التي ما برحت تراود نفوس بعض الموجودين.

وبعد العشاء اجتمع الرسُل والتلاميذ والمؤمنون الأصدقاء، في حديقةٍ محاذيةٍ للبيت الذي تناولوا فيه الطعام، وأقام يسوع في وسطهم، وحدّثهم بإسهابٍ وباركهم، قبل أن يفترقوا.

وكانت النساء قد التففنَ، في الحديقة، حول العذراء، فجاء إليهنّ يسوع، وصافح أُمّه، وكلّم النساء بعباراتٍ اتّسمت بالوقار والسموّ، فتأثّرنَ جميعهنّ، ثمّ باركهنّ، وانصرف عنهنّ، وهنّ يذرّفن الدموع. ولكنّ مريم لم تبكِ، حينذاك. وبهذه المناسبة تقول الرائية إنّها لم تشهد العذراء تبكي إلاّ مرّتين: عندما أضاعت يسوع ابن الاثنتي عشرة سنةً، وعند أقدام الصليب.

ثمّ عاد يسوع إلى العلّيّة، حيث أُعدّت الإفخارستيّا، فبارك الخبز، وكسره، وقسّمه، وناول منه الجميع، وبارك كأسًا طافت على جميع الحاضرين.

**صعود الربّ**

عند الفجر أقام الجميع الصلاة، وأضفوا عليها طابعًا أكثر احتفاليّةً. وبهذه المناسبة أكّد يسوع إيلاء السلطة لبطرس، وألبسه المعطف، وشدّد على ما سبق له قوله في عظة الجبل، ولدى ظهوره عند ضفّة طبريّا. وقد أصغى إليه، فضلاً عن الرسُل، سبعة عشر تلميذًا، من أكثر تلاميذه مواكبةً له، في حياته.

وقبل مغادرة العلّيّة قدّم يسوع للرسل والتلاميذ أُمّه، طالبًا أن يعدّوها مركز جماعة المؤمنين، وقلبها، وشفيعتها، فجثا بطرس، وجميع الآخرين أمامها، ونالوا بركتها.

وقُبَيْل إشراقة الشمس غادر يسوع ورسله العلّيّة، تتبعهم العذراء، وعلى مسافةٍ قصيرةٍ منها سار التلاميذ. كانت شوارع أورشليم ما زالت صامتةً، وأصحابها غارقين في الكرى. وسلك يسوع نفس الدروب التي انتهجها موكبه يوم أحد الشعانين، وكأنّه يرسّخ في أذهان أتباعه مسارح حياته العلنيّة، ويظهر لهم تحقيق النبوءات بشأنه. وكانت لهم وقفاتٌ في مختلف دروب آلامه. وكان التلاميذ يسبقونه إلى المواقع التي سدّها اليهود بحواجز، فيزيلونها. وفي الجلجلة توقّفوا تحت أشجارٍ كثيفة الأغصان، حيث أكمل الرب تعليمهم، وتعزيتهم. ولّما اتّجه موكبه صوب جبل الزيتون، التحقت به جماعاتٌ عديدةٌ، قادمةٌ من جهاتٍ مختلفةٍ.

عند سفح الجبل توقّف الموكب ثانيةً، وخاطب يسوع أتباعه خطاب من أتمّ مهمّته، ومن حان أوان فراقه عن أحبّائه. وفي الواقع لم يبتغِ يسوع من تلك المسيرات الطويلة إلاّ الاستبحار في التعبير لأتباعه عن شدّة حبّه لهم. وهم كانوا مدركين أنّ فراقه عنهم محتّمٌ، ولكنّهم كانوا يرجون أن يتلكّأ أوانه.

وعلت الشمس في قبّة السماء. ونشطت الحركة في أورشليم، وكثرت الأحاديث عن الحشود في جبل الزيتون، فلم يتمالك كثيرون عن التقاطر إلى المكان

لتبيُّن الأمر. وحينئذٍ توجّه يسوع صوب الجتسمانيّ. ولكنّه حاد عن الموضع الذي قبض فيه اليهود عليه، محاذيًا جبل الزيتون، وكانت الجموع تسعى للحاق به، مستحدثةً دروبًا عبر الأشواك، وأسوار البساتين.

في هذه الأثناء كان شخص الربّ بأكمله يشعّ نورًا يزداد، مع كلّ خطوةٍ، إشعاعًا. وكانت وتيرة سيره تتسارع، فيجد تابعوه مشقّةً في اللحاق به. ولّما بلغ قمّة الجبل، تألّق مثل تألّق الشمس. وتوقّف الجارون نحوه مأخوذين، مبهورين، وتحلّقوا من حوله. حينئذٍ وضع الربّ يده اليسرى على صدره، واستدار في كلّ الاتّجاهات، مباركًا بيمناه العالم أجمع، والبسيطة جمعاء. وفيما كان يرتقي نحو السماء كان يتّحد بالنور الهابط عليه من السماء، مثلما تلج شمسٌ في شمسٍ أُخرى، ومثل شعلةٍ تندمج في بؤرة نورٍ. وحيال هذا النور الساطع، بدا ضوء النهار داكنًا.

حينئذٍ همى على الحضور ندًى من نورٍ ساطع أسال الرعدة في القلوب، فأغمض كثيرون عيونهم، وارتموا معفّرين جباههم بالثّرى. ولبثت العذراء وحدها، ترمق بهدوءٍ النور المتصاعد. ولا غرابةَ في ذلك، فأنقياء القلوب يعاينون الله ببساطةٍ.

ومع أنّ النور كان يتضاءل، كان الحضور ما زالوا شاخصين إليه بأنظارهم. وحينئذٍ، بدت، من خلال غمامةٍ، أشكال شخصَيْن، متّشحَيْن بحللٍ بيضاء، وممسكيْن بعصا تحاكي عصا الأنبياء، وبصوتٍ يشبه صوت بوقٍ، خاطبا الجمع قائليْن: "يا رجال الجليل، علامَ ما زلتم واقفين هنا، شاخصين إلى السماء. فيسوع هذا، الذي أُصعد من بينكم إلى السماء، سيعود". وتواريا عن الأنظار.

حينئذٍ أخذ الذهول بالرسل كلّ مأخذٍ، وأدركوا أنّ الربّ قد غادرهم، عائدًا إلى بيت أبيه السماويّ. وتهاوى بعضٌ منهم أرضًا، وقد هدّهم الحزن والقنوط. وبعد لأيٍ عادوا مع التلاميذ والنساء القدّيسات إلى أورشليم. وبدت على العذراء القدّيسة وعلى بطرس ويوحنّا أمارات السجوّ والثقة. فيما نشب الشكّ والإحباط بآخرين.

كان الوقت قد تجاوز الظهر عندما تفرّق الحضور. وعادت العذراء مع الرسُل والتلاميذ إلى العلّيّة. وللوهلة الأولى استولى عليهم شعورٌ مقلقٌ بالوحدة، ولا سيّما أنّ الربّ كان قد وعدهم بالبقاء، دائمًا، إلى جانبهم. ولكن، ما إن استقرّوا في العلّيّة حتّى خيّم عليهم حضور العذراء الزاخر سكونًا وعزاءً، وغشى نفوسهم السلام، واتّضح لهم أنّها هي، حقًّا، روح جماعتهم، ومركزها، وأنّها لهم الأُمّ والشفيعة.

غير أنّ عودة الجموع من جبل الزيتون، متدفّقةً اندفاعًا وعزاءً، ألقت الرعب في قلوب يهود أورشليم. فعمد كثيرون منهم إلى إيصاد أبواب بيوتهم وحوانيتهم.

# تأسيس الكنيسة برعاية العذراء الأُموميّة

## الفصل الثامن

## تأهّبٌ للعنصرة

غداة الصعود والأيّام التي تلته، لازم الرسُل العلّيّة، متحلّقين حول العذراء. وكانت هي التي تقف قبالة بطرس، كلّما احتفل بالإفخارستيّا، فقد كان الرسُل يولونها شأنًا عظيمًا، ويعدّونها هي أُمّ الكنيسة. وكانت تقيم مع الرسُل، بمعزلٍ عن معظم التلاميذ والمؤمنين والنساء القدّيسات، في خلوةٍ شبه تامّةٍ، لا تعكّرها زيارة غرباء، مكرّسين وقتهم كلّه للصلاة. ويضاعف خلوتهم وانكفاءَهم توجُّسهم من نقمة اليهود، فيما كان معظم التلاميذ يروحون ويغدون، ولا يتحرّجون من زيارة درب الآلام، ليلاً، والتخشّع فيه.

وفي تلك الأيّام، ارتأى للرسل اختيار بديلٍ ليهوذا الخائن. وأبدى العديد من التلاميذ رغبةً في تولّي مكانه. ولكنّ بطرس قدّم اثنين لم يكونا قد أبديا أيّة رغبةٍ في هذا السياق. هما يوسف بارسابا، ومتّيا، فصلّوا جميعهم، وأجروا القرعة، فوقعت على متّيا، فضُمّ إلى الرسُل.

عشيّة عيد العنصرة، فيما كان اليهود عاكفين على تزيين الهيكل، وأورشليم تعجّ بالحركة وبالغرباء من كلّ لونٍ ولسانٍ، زُيِّنت العلّيّة، أيضًا، بأغصان وأزاهير، وارتدى بطرس معطفه الاحتفاليّ. ووقف، من جانبٍ، يحيط به عددٌ من الرسُل، وإزاءه العذراء، وعددٌ آخر من الرسُل. وفي الغرف الجانبيّة وقف التلاميذ والمؤمنون، يصلّون وينشدون بهدوءٍ.

وفي المساء، وقفوا، مجدّدًا، أمام منضدةٍ وضع عليها رغيفا خبز فطيرٍ، محزّزان، قطّعهما بطرس قطعًا صغيرةً، وقدّمها للعذراء وللرسل. وكان كلٌّ من الحاضرين يدنو من بطرس، ويقبّل يده، ويتناول قطعةً، فينحني بطرس أمامه.

سهر الجميع في العلّيّة، وقد بلغ عددهم نحو مئةٍ وعشرين رجلاً، فضلاً عن العذراء والنساء المرافقات لها. وقد تجلّى على جميعهم شعورٌ بالاطمئنان إلى تحقيق وعد الربّ بإرسال روحه المعزّي، مع أنّهم كانوا ما برحوا يتساءلون كيف سيتمّ ذلك.

## يوم العنصرة المقدّس

(هكذا رأت "أنّا كاتارينا إيمّريك" حلول الروح القدس)

« عند منتصف الليل عبقت الأجواء بسرٍّ قدسيٍّ، وشاع شعورٌ بالارتياح وانتظار حدثٍ عظيمٍ. وفي العلّيّة خيّم الصمت. بطرس كان واقفًا خلف حجاب الحجرة التي تحتضن القربان المقدّس، والرسل ملاصقين لجدران العلّيّة، فيما التأم التلاميذ في قاعةٍ جانبيّةٍ، والعذراء القدّيسة، مع مرافقاتها، في قاعةٍ محاذيةٍ للعلّيّة. كانوا جميعهم مكتوفي الأيدي، مطرقي العيون، هادئين. وعند انبلاج الصبح، هبطت من قمّة جبل الزيتون التي انطلق منها الربّ إلى السماء غمامةٌ تتلألأ بألَقٍ فضّيٍّ، على بيت الرسُل. بادئ الأمر، بدت رحبةً، منسحبةً فوق المدينة. ثمّ تجمّعت، وتكثّفت، واكتسبت نورانيّةً وشفافيّةً، متّخذةً شكل شمسٍ ساطعةٍ. وهوت، متفجّرةً تفجّرَ عاصفةٍ مباغتةٍ، محدثةً ضوضاء ريحٍ عاتيةٍ، فاستولت الرعدة على يهودٍ كُثُرٍ شهدوا الغمامة، فجروا مذعورين إلى الهيكل. غير أنّ تلك العاصفة لم تكن من نمط العواصف التي تنشر الظلمة، وتبثّ القلق، بل كانت مصحوبةً برعشةٍ قدسيّةٍ، منعشةٍ، وغمرت بالنور والألق العلّيّة وملحقاتها، وأفعمت نفوس الرسُل والتلاميذ والنساء القدّيسات خشوعًا وحرارة إيمانٍ.

وانبثقت من الغمامة دفقات نورٍ أبيض، تشابكت في بؤرةٍ راحت تتألّق بكلّ أطياف قوس قزح، وحلّق من داخلها شكلٌ بشريٌّ، له ما يشبه جناحين يمتدّان إلى بعيدٍ، بعيدٍ، وغمر العلّيّة نورٌ بدا معه المصباح خماسيّ الأغصان، فاقد الإشعاع. وانتاب جميع الموجودين في العلّيّة انخطافٌ، فرفعوا أنظارهم نحو السماء، مثل عطاشٍ يلتمسون غيثًا، وانسابت إلى أفواههم دفقات نورٍ ملتهبٍ على شكل ألسنة نارٍ، متباينةٌ أنوارًا وألقًا. وكانت الضوضاء قد أيقظت نيامًا كُثُرًا، ولم يقتصر عمل الروح القدس على قاطني العلّيّة، بل استحوذ على قلوب العديد من التلاميذ، ومن موالي يسوع الموجودين في تلك الضواحي.

واعترى الجميع شعورٌ بنشوةٍ روحيّةٍ، وبتفجّر حياةٍ جديدةٍ تضجّ اندفاعًا، فتعانق الرسُل والتلاميذ، متبادلين عبارات الدهشة والتحفّز، وهتافات: "كيف كنّا، وكيف أصبحنا!". وقبّلت النساء بعضهنّ بعضًا. وحدَها العذراء لبثت ساكنةً، ساجيةً، مع أنّ ينابيع قوّةٍ تفجّرت في داخلها. وشعر كلٌّ من الحاضرين أنّه زُوِّد بفيضٍ من الفرح، والثقة والشجاعة.

ومع تبدّد النور الإلهيّ التدريجيّ، تحوّل الرفد السماويّ إلى عملٍ فعليٍّ، وآيات شكرٍ. وعُقدت، ثانيةً، حلقات صلاةٍ ومدائح، واصطبغت بالتأثّر العميق. ثمّ تكلّم بطرس، وأرسل ثلّةً من التلاميذ لدعوة الأصدقاء الذين كانوا قد وافوا من أجل الاحتفال بالعنصرة، وانتشروا في أرجاء أورشليم.

كانت قد انتشرت بين العلّيّة، وبركة بيت حسدا أكواخٌ وحظائر يرتاح فيها الحجّاج والمسافرون، ويتوفّر فيها مرقدٌ لرواحلهم. وكان بعضٌ من هؤلاء ما زالوا نيامًا عندما حلّ الروح القدس على التلاميذ. أمّا معظم الذين كانوا مستيقظين فقد مسّتهم النفحة الإلهيّة التي غمرت الكون، وتنامى أثرها فيهم عندما وافى التلاميذ الموفدون من قبل بطرس، فواكبوهم، باندفاعٍ وفرحٍ، إلى بركة بيت حسدا.

وفي هذه الأثناء، وضع بطرس يديه على خمسةٍ من الرسُل هم يعقوب الصغير، وبرتلماوس، وماتّيا، وتوما وتدّاوس، وكلّفهم بمشاركته التعليم والتعميد في البركة. غير أنّهم، قبل انطلاقهم إلى مقصدهم، ومباشرة مهامّهم، مثلوا أمام السيّدة العذراء، وجثوا أمامها، ونالوا بركتها. فقد أَلِف الرسُل، عقب صعود الربّ، التزوّد ببركتها، كلّما غادروا العلّيّة، وعادوا إليها.

وتقاطر القوم من كلّ صوبٍ نحو بركة بيت حسدا، التي كان الرسُل والتلاميذ قد زيّنوا جوارها، والمجمع المحاذي لها. وروى موفدو بطرس للحاضرين هناك المعجزة التي جرت في تلك الليلة، وهم يتدفّقون فرحًا واندفاعًا. وكانوا قد أعدّوا الترتيبات الضروريّة للعماد الكبير الذي طلب الربّ إجراءه في هذا اليوم.

ووافى الرسُل إلى المجمع، اثنين اثنين، مرتدين حُلَلاً بيضاء طويلةً، مستصحبين مستلزمات تبريك الماء والعماد. وما لبثت أن لحقت بهم السيّدة العذراء، والنسوة القدّيسات والتلاميذ حاملي حُلَل العماد. واستقبلتهم الحشود بمظاهر الفرح والترحيب. وانتشر الرسُل الخمسة الذين كلّفهم بطرس بالتعميد على جوانب البركة، ووقف كلٌّ منهم عند أحد مداخلها، واحتلّ بطرس منبرًا قائمًا في الوسط، وخاطبوا الجموع، التي ملأت كلّ جنبات البركة وفناءها، وأخذ الاندفاع بالموجودين كلّ مأخذ، وقد استحوذت عليهم الدهشة، إذ كان كلٌّ من المستمعين يسمعهم يتكلّمون بلغته ولهجته. وحينئذٍ استفاض بطرس في خطابه الذي أوجزه لوقا في سفر أعمال الرسُل (٤: ١٤-٤٠).

بارك بطرس الماء، بمساعدة يوحنّا ويعقوب، ورشّ به الحضور، فيما تقدّم كلّ موعوظٍ إلى أحد الرسُل الذي كان يسكب على رأسه الماء المقدّس، ثلاث مرّاتٍ.

في هذه الأثناء عكفت العذراء والنساء القدّيسات على توزيع حُلَل بيضاء على الموعوظين، وحديثي العماد. وكان كلّ معمّدَيْن يقتادان موعوظَيْن، بصفتهما عرّابيْن لهما، نحو حاجز التعميد. وكان بين المعمَّدين الجدُد العديد ممّن سبق لهم أن تعمّدوا على يد يوحنّا السابق وتلاميذه. ونالت النسوة، أيضًا، العماد.

أمّا العذراء فقد نالت المعموديّة، على انفراد، بيد يوحنّا الذي استهلّ الاحتفال بقدّاسٍ.

في ذلك اليوم، انضمّ إلى الكنيسة نحو ثلاثة آلاف موعوظ، ووافى عددٌ منهم إلى العلّيّة، مساءً، وشاركوا في الصلاة وكسر الخبز. »

## كنيسة بيت حسدا

خلال الأيّام التالية، شهدت الكنيسة التي نشأت في بيت حسدا نشاطًا دائبًا، وصلواتٍ حارّةً متواترةً، وغيرةً متّقدةً في سبيل إنماء العمل الإلهيّ الوليد. فبطرس، ويوحنّا، وأندراوس ويعقوب دأبوا على التبشير في مواقع عديدةٍ من البركة وملحقاتها، فيما رسُلٌ آخرون، مع ثلّةٍ من المؤمنين عكفوا على إعداد الكنيسة من الداخل، ورجالٌ ونساءٌ أكبّوا على حياكة أغطيةٍ للهيكل، وثيابٍ للفقراء.

وذات يومٍ جاء الرسُل بالقربان المقدّس من العلّيّة إلى الكنيسة الناشئة. واستهلّ بطرس المسيرة بعظةٍ ألقاها عند عتبة باب العلّيّة، بحضور حشدٍ غفيرٍ، غير حافلٍ بمحاولة عصابةٍ من اليهود تعكير ذلك الاحتفال بافتعال الشغب. ثمّ انطلق الموكب يتقدّمه بطرس حاملاً القربان في صرّةٍ بيضاء مربوطةٍ إلى رقبته، يحيط به الرسُل، وتتبعه العذراء والنساء القدّيسات وحشدٌ من التلاميذ. وكان الطريق نفسه وجوار الكنيسة مزيَّنين بحُصرٍ وسُجُفٍ. وأودع القربان في مخبأٍ ثاوٍ فوق الهيكل.

شخص بطرس ويوحنّا وعددٌ من التلاميذ إلى الهيكل، وفي إثرهم السيّدة العذراء ومرافقاتها. وفي تلك الأثناء كان قومٌ يقتادون، على محفّةٍ، رجلاً مقعدًا منذ مولده. كي يتيحوا له التسوّل في فناء الهيكل، فوجّه له بطرس ويوحنّا عبارات عزاءٍ، ثمّ توقّفا أمام حشدٍ من الناس، عند مدخل الهيكل، فيما كان جنودٌ يحرسون المداخل، وكهنةٌ معتمرون قبّعاتٍ كبيرةً يتجاذبون الأحاديث.

وألقى بطرس، في الحضور، خطابًا ملتهبًا. ثمّ، عندما همّ بالدخول إلى الهيكل، سأله المتسوّل إحسانًا. فقال له بطرس: "انظر إلينا!". فحدّق الرجل إليه وإلى يوحنّا. فقال له بطرس: "أنا لا املك فضّةً ولا ذهبًا، ولكن ما لديّ أُعطيك إيّاه: باسم يسوع الناصريّ، انتصب واقفًا، وامشِ". ثمّ أمسك بيمناه وأنهضه، فيما كان يوحنّا يرفعه من كتفيه. فنهض المُقعد يضجّ فرحًا، وفي الحال تشدّدت ساقاه، وانطلق يعدو في جنبات فناء الهيكل، متوثّبًا، مُطلِقًا صيحات فرحٍ.

وكانت هناك جماعةٌ من كهنة اليهود جالسين، فمدّوا أعناقهم مستطلعين مصدر

الضوضاء، ورأوا الناس يتراكضون، ويتراصّون حول المقعد الذي نال الشفاء. ولّما أُطلعوا على طريقة شفائه العجيب، انسلّوا مطرقين خاسئين. ودخل بطرس ويوحنّا إلى الهيكل، وارتقى بطرس المنبر الذي كان يسوع، ابن الاثنتي عشرة سنةً قد ناقش من فوقه علماء اليهود، وعلّم. وكان بين المستمعين إلى بطرس المُقعَد الذي حظي بالشفاء، وذووه، وعددٌ من سكّان المدينة والغرباء. وتولّى رسُلٌ وتلاميذ آخرون التبشير في مواقع مختلفةٍ من الهيكل. واتّسم وعظ بطرس بالحرارة والاندفاع والاستفاضة. ولكن، في مساء ذلك اليوم، ألقى جنود الهيكل القبض عليه وعلى يوحنّا، وعلى المقعد الذي نال الشفاء. وعقد حنّان وقيافا، وكهنةٌ آخرون جلسة تشاورٍ في المحكمة التي كانوا قد أدانوا فيها الربّ. وفي الغداة اقتيد الموقوفون الثلاثة، بقسوةٍ همجيّةٍ، إلى حيث حوكم يسوع، وأُخضعوا لاستجواب قيافا ومعاونيه، فردّ بطرس ممتلئًا بالروح القدس، بحزمٍ وجرأةٍ، ثمّ أُطلق سراحهم، مزوّدين بأدهى تهديدٍ وإنذارٍ.

وكان سائر الرسُل، وعددٌ غفيرٌ من التلاميذ قد أنفقوا تلك الليلة في العلّيّة مصلّين التماسًا لنجاة المسجونين، ولّما التحق بهم بطرس ويوحنّا، صباحًا، ورويا لهم ما جرى، تعالت صلوات الشكر، وأناشيد تمجيد الربّ. وحينئذٍ ارتجّ البيت بأجمعه، وكأنّ الربّ ابتغى أن يؤكّد لهم مواكبته الساهرة، واستجابته الدائمة لأدعيتهم. وحينئذٍ، باح يعقوب الصغير أنّ الربّ أوحى له، على انفرادٍ، وجوب تواري بطرس ويوحنّا، فترةً من الزمن.

وبناءً على هذا الإيعاز، أغلق الرسُل العلّيّة، وكنيسة بيت حسدا التي لم يَدعوا فيها سوى الزهيد من القربان المقدّس، فيما حمل بطرس باقي القربان، بتجلّةٍ وخشوعٍ، وانطلق مع سائر الرسُل إلى بيت عنيا، تتبعهم العذراء ومرافقاتها. وفي بيت عنيا كان قد التأم العديد من المؤمنين، وتوزّعوا في النُزْل الخاصّ بالتلاميذ، وفي بيت سمعان، وفي بيت لعازر الذي اتّخذ منه كلٌّ من نيقودمُس ويوسف الأريماثيّ، ملاذًا.

واحتفل الرسُل بالإفخارستيّا في بيت لعازر، وزوّدوا بالقربان المقدّس نُزل التلاميذ، وبيت سمعان، وثابروا على التبشير باندفاعٍ متنامٍ.

## عماداتٌ ورساماتٌ جديدةٌ

بشّر الرسول توما جمهورًا من المؤمنين في كنيسة بيت حسدا. ولحق به بطرس، وأعلن أنّه حان الوقت الذي يتّضح فيه من تلقّى، حقًّا، الروح القدس، وأزف وقت العمل، وتحمّل الاضطهاد، واقتسام كلّ شيءٍ من قِبَل الجميع. فعلى من لا قدرة له على ذلك، أو لا رغبة له فيه أن ينسحب. وفي الحال انسحب نحو مئةٍ من المنضمّين الجُدد إلى الجماعة المسيحيّة. ولكن لم يتراجع أيٌّ من الذين كانوا موجودين في العلّيّة، لا بل إنّ كثيرين منهم قضوا الليل يشاركون الرسُل الصلاة.

بعد بضعة أيّامٍ علّم بطرس، مجدّدًا، في الهيكل، بعزيمةٍ ورباطة جأشٍ، أمام جمهور غزيرٍ، مجاهرًا أنّ لا الجلْد، ولا التعذيب، ولا الصلب من شأنها منعه، بعد الآن، عن إعلان يسوع المسيح. وكان الرسُل والتلاميذ يقاطعون خطابه بإعلان تأييدهم لأقواله.

ثمّ خرج المؤمنون من الهيكل، اثنين اثنين، يتقدّم الرسُل موكبهم، يليهم التلاميذ، فالموعوظون، والمرتدّون حديثًا، واتّجهوا غربًا صوب العلّيّة، حيث كانت قد سبقتهم السيّدة العذراء، وثلّةٌ من النساء القدّيسات. كانت العذراء تصلّي منفردةً، راكعةً أمام القربان المقدّس، فيما كانت المجدليّة تصلّي في الرواق، راكعةً تارةً، واقفةً تارةً أُخرى، أو مستلقيةً على الحضيض باسطةً ذراعيها. أمّا الأُخريات فقد انتحينَ في حجرةٍ صغيرةٍ محاذيةٍ لكنيسة بيت حسدا، دائباتٍ على صنع حُلَل العماد، والاحتفالات الكنسيّة.

ولّما وصل موكب الرسُل إلى العلّيّة، انتزع بطرس ويوحنّا العذراء من خلوتها، وأقاماها وسط الجميع، وأوكلا إلى رعايتها المعمّدين الجدد، بعد أن ألقى فيهم بطرس خطبةً موجزةً. وكانت أُمّ الله ترحّب بهم، جماعاتٍ من عشرين نفرًا، وتزوّدهم بإرشادٍ موجزٍ، وتباركهم.

ورأت الأخت "إيمّريك" قدّاسًا في العلّيّة، احتفل به بطرس، يحيق به كلٌّ من يوحنّا ويعقوب. وقد تناول المحتفلون الثلاثة على التوالي، ثمّ قدّموا المناولة للسيّدة العذراء، فللرسُل، ولستّةٍ من التلاميذ كانوا قد أُعدّوا للسيامة الكهنوتيّة، ثم تناول الجمهور. وحينئذٍ جاءت العذراء بالحُلَل الكهنوتيّة، ووضعتها على الهيكل.

وركع الشمامسة الستّة، اثنين اثنين، أمام بطرس، فخاطبهم، وتلا صلاةً مكتوبةً، ووضع يده على رؤوسهم، فيما وضع كلٌّ من يوحنّا ويعقوب يده اليمنى على كتفهم، وهما ممسكان شمعةً باليد اليسرى. وقصّ بطرس من رأس كلٍّ منهم خصلات شعرٍ، وضعها في صحنٍ أودع على الهيكل، فيما ارتقى بطرس المنبر، وتحدّث عن مشاركة الجميع كلّ ما يملكون، وعن واجب توفير احتياجات المعمّدين الجدُد. وشكر للمخلّص إغداقه النعم والبركات على كنيسته.

وتوالت عماداتٌ كان ينالها رجالٌ ونساءٌ على السواء، وكان معظمهم قد هجروا ديارهم النائية، وتخلّوا عن كلّ ما يربطهم بها، لكي ينضمّوا إلى الجماعة المسيحيّة الناشئة. وتقرّ الأخت "إيمّيريك" أنّها كانت ترى سُحُبًا مضيئةً تظلّل المعمَّدين، وتبثّهم منعةً، وتحوّلهم تحوّلاً جذريًّا. وكان المعمَّدون الجدُد يؤمّون كنيسة بيت حسدا، حيث يتلقّون تعليمًا عن الإفخارستيّا، ويتناولون.

## اختيار سبعة شمامسةٍ، وبدء الاضطهادات

جوار بيت لعازر يعجّ بنشاطٍ دائبٍ: قومٌ ينسجون، وآخرون يحيكون، وآخرون يصنعون شتّى أصناف المنتجات. ولعازر منهمكٌ في إشادة مساكن للمؤمنين الجدُد. وقد أنفق ثروته كلّها في هذا السبيل، حتّى غدا معدَمًا مثل أفقر الفقراء، بعد أن كان واسع الثراء.

وذات صباحٍ، جيء إلى فناء المجمع بأعدادٍ غفيرةٍ من المرضى. ووافى إلى الهيكل بطرس ويوحنّا وسبعة رسُلٍ آخرين، وأقبل بطرس على المرضى، وشفى كلّ من أبدى، منهم، استعدادًا للإيمان بقدرات يسوع القائم من الموت. وإذ كانت أسرّة

المرضى قد نُظِّمت على صفّين متقابلَيْن، فكان مجرّد وقوع ظلّ بطرس على بعضهم يؤتيهم الشفاء.

وأجرى رسُلٌ آخرون أشفيةً، غير أنّ معظم الرسُل اقتصروا على معاونة بطرس. وكانت الجموع تزداد، يومًا فيومًا، انجذابًا إلى الرسُل، الذين ما عتّموا أن انتشروا في مدن اليهوديّة مبشّرين بالإنجيل. وأُغلقت العلّيّة، واعتكفت العذراء في منـــزل مرتا، ببيت عنيا. ولبث يعقوب الصغير، وحده من الرسُل، برفقة ثلّةٍ من التلاميذ على مقربةٍ من كنيسة بيت حسدا.

وفي ذلك الحين، شرع مؤمنون يونانيّون يتذمّرون لأنّ أراملهم لم يكنّ يلقينَ من العناية مثل ما تلقى أرامل العبرانيّين، فالتأم الرسُل في العلّيّة، لدى عودتهم من حملتهم التبشيريّة، وعقدوا اجتماعًا، أعلنوا خلاله، أولويّة بطرس، فأخرجوه من صفوفهم، واقتادوه إلى وسط المعبد، حيث ألبسه يوحنّا المعطف الذي كرّمه به يسوع، وجاءه آخرون بعصا الأسقفيّة، ثمّ تلقّى الجميع المناولة من يده.

وعقب هذا الاحتفال وجّه بطرس الكلام للعديد من التلاميذ والموعوظين، وبلّغهم التدابير التي تقرّر تنفيذها بشأن الشكاوى المتعلّقة بتوزيع الصدقات. وجاء في خطابه، قوله: "إنه لا يسوغ إهمال كلمة الله من أجل الانصراف إلى خدمة الموائد، وتوزيع الملابس". وارتأى أن يوكل التبشير للرسُل، وأن يتولّى الخدمةَ متطوّعون. فانبرى شابٌّ وسيمٌ، مديد القامة، متطوّعًا للخدمة. وكان ذاك هو شهيد المسيحيّة الأوّل، اسطفانُس. وفي إثره تطوّع آخرون وكان أكبرهم سنًّا المدعوّ "پـــارميناس"، فوضع بطرس يده عليهم، وألقى على كتفهم وشاحًا، وأوكل إليهم مؤونات الجماعة وأموالها. وحينئذٍ، حلّ على من لم يكن قد تلقّى الروح القدس، نورٌ إلهيٌّ.

في هذه الأثناء، كان شاول يضجّ نشاطًا في أورشليم، فقد كان تنامي أعداد أتباع يسوع المطّرد يقضّ مضجعه، فوطّن العزم على تقويض جماعتهم الناشئة، بل وأدها في مهدها. وانطلق يوغر عليهم صدور اليهود، داعيًا زملاءه ومعارفه إلى معاضدته في

هذه المهمّة، وساعيًا، خاصّةً، إلى استمالة الهيرودسيّين إلى مسعاه. وأفلح في استصدار رسائل توليه سلطاتٍ واسعةً، تخوّله إلقاء القبض على أنصار يسوع، أينما وجدوا.

في هذه الأثناء كان بطرس دائبًا على التبشير والتعميد في مختلف أرجاء فلسطين، فيما كان متشدّدو اليهود، وأبرزهم شاول الطرسوسي، وسامريٌّ مارقٌ يدعى سمعان الساحر، منصرفين إلى مطاردة المسيحيّين واضطهادهم، محرّضين على تدمير منازلهم. وانبرى التلميذ اسطفانُس، المفعم غيرةً، وإيمانًا بيسوع، محتجًّا على هذه الجرائم، ذائدًا عن حياض أتباع الناصريّ، ملقيًا، في هذا السياق، خطاباتٍ ناريّةً، فقُبض عليه، وأُودع السجن، وتقرّر رجمه، وعند أقدام شاول، أودع الراجمون ثيابهم، وإليكم صورةً لرجمه، كما رأتها "أنّا كاتارينا إيمّيريك":

« رأيتـه غيـر مبـالٍ بفظاعـة الـرجم، منصـرفًا إلـى الصـلاة مـن أجـل جلاّديـه شاخصًا بنظره إلى السماء المشرعة فوق رأسه، راكعًا فوق صخرةٍ، في ساحةٍ مستديرةٍ، رافعًا ذراعيه إلى العلاء، مرتديًا ثوبًا أبيض طويلاً... وكان أمام كلٍّ من الرجّامين كومـة حجـارٍ، انهـال وابـلٌ منهـا علـى اسطفانُس، وهـو مـا زال رافعًا ذراعيه إلى السماء، ناعمًا بتأمّل يسوع وأُمّه العذراء، ولكأنّه لا يلوي على شيءٍ ممّا يجري من حوله، إلى أن أصابه حجرٌ في رأسه، وأرداه قتيلاً ».

كان الرجّامون مرتزقةً مأجورين يدفعهم الطمع في أجرٍ، أمّا شاول فكان يحدوه تعصّبٌ أعمى، ولكن صادقٌ ليهوديّته. وفي أورشليم، كانت تنشب، بين فينةٍ وأُخرى، ثوراتٌ شعبيّةٌ مندّدةٌ باضطهاد المسيحيّين، ولكنّها سرعان ما تُخمَد. وفي تلك الحقبة، حوّلت الرحمة الإلهيّة شاول، المضطهد الشرس، إناءً مصطفى ليسوع.

بعد انقضاء ثلاث سنواتٍ على صعود يسوع، أوفد الإمبراطور الروماني إلى أُورشليم، رسولاً يتحرّى حقيقة الشائعات السارية حول صلب يسوع وقيامته. ولدى عودة ذلك الرسول إلى روما، استصحب شهودًا على الحدث، نيقودمُس، والتلميذ إيـــپـــافراس الذي كان ملحقًا بخدمة الهيكل، ورأى يسوع بعد قيامته،

في أماكن عديدةٍ، وسيرافيا (المعروفة بـــڤـــيرونيكا)، وجيء بهذه الأخيرة إلى مخدع الإمبراطور الذي كان معتلاً وطريح الفراش. وكانت سيرافيا قد استصحبت المنديل الذي طبع عليه الربّ صورته، والكفن الحامل آثار جلده وعذاباته مطبوعةً بدمه. وما إن بسطت أمام عيني الإمبراطور هاتين الذخيرتين حتّى تداركه الشفاء، وعادت إليه العافية. فرغب في أن تمكث سيرافيا في روما، واعدًا بتقديم بيتٍ وخَدمٍ لها، ولكنّها آثرت العودة إلى أورشليم، كي تموت حيث مات يسوع. ولّما حلَّ الإملاق بلعازر وشقيقتيه، بعد إنفاقهم ثرواتهم كلّها على الجماعات المسيحيّة الناشئة، وتعرّضوا لمطاردة اليهود، فرّت معهم، ثمّ سُجنت، وحُبِس عنها الطعام والشراب، هي التي طالما زوّدت الربّ وتلاميذه بالطعام المادّيّ، حتّى أسلمت روحها لخالقها، وعادت شهيدة إيمانها إلى ربّها الذي شهدت له بحياتها.

## <u>الجماعة المسيحيّة الأولى تتعرّض للاضطهاد.</u>

عقب صعود يسوع، اختلت المجدليّة في الصحراء، حيث كان قد اعتكف المعمدان. ثمّ توغّلت بعيدًا عن العالم، في مناطق موحشةٍ، ملأى بالأشواك والصخور، وأقامت في المغارة التي كانت إليصابات قد لاذت إليها مع طفلها يوحنّا، هربًا من وحشيّة هيرودس. وحرص لعازر على التواري عن الأنظار، ثمّ، لّما اشتدّ اضطهاد المسيحيّين، سجَنَه اليهود هو وأُخته مرتا. وكان الرسُل، في غضون السنوات الأربع التي عقبت صعود الربّ، قد نظّموا أُمور الكنيسة الوليدة، ثمّ عقدوا اجتماعًا في أورشليم.

وذات ليلةٍ اشتدّ بالمجدليّة الشوق إلى الرسُل وإلى أُسرها، فعادت إليهم زائرةً، ولكن أُلقي القبض عليها، وبعد أن نالت، مع شقيقها لعازر وشقيقتها مرتا قسطًا وافيًا من التنكيل والإهانات، أُصعدوا جميعهم، وبرفقتهم خادمتا مرتا والمجدليّة، وتلميذ يدعى مكسيمان، على متن مركبٍ معطّل، مثقوبٍ من كلّ جانبٍ، لا دفّة له ولا شراع، قُطِر بسفينةٍ كبيرةٍ، جرّته إلى عرض البحر، حيث فُصل عنها، وترك

مع ركّابه، عرضةً لعبث الرياح والعواصف. ولم يكن بيد لعازر وصحبه من حيلةٍ سوى الصلاة، وفيما كانوا يبتهلون، ويُنشدون، اصطدم مركبهم بشاطئٍ في بلاد الغوليّين، وإذ بهم في مدينة مرسيليا، فهبطوا أرضًا، ومجّدوا الله.

واكتفى سكّان المدينة بالتفرّج على الغرباء، الذين ألقاهم البحر على شاطئهم، ولم يمسّوهم بأذًى. فجلسوا، في ظلّ أعمدة هيكلٍ، في ساحة المدينة، حيث كان يقام احتفالٌ بعيد أحد الأصنام، وتلبّثوا هناك طويلاً. وعندما احتشد الفضوليّون من حولهم، انبرت مرتا للكلام، فروت لهم ظروف رحلتهم، وتحدّثت باندفاعٍ وتأثّر عن يسوع، فارتأى القوم إبعادهم عن ذلك المكان، وأخذوا يرجمونهم، غير أنّ حجارة الرجم كانت تنأى عن أهدافها. وفي اليوم التالي شرعوا يبشّرون الجموع، فاستمالوا كثيرين.

وما لبث أن جاءهم، من بناءٍ كبيرٍ يبدو كأنّه مركز البلديّة، موظّفون طرحوا عليهم طائفةً من الأسئلة، وبعد يومين، اقتادوهم إلى ذلك البناء، حيث مثُل الرجال أمام قاضٍ، فيما اقتيدت النساء إلى بيتٍ في المدينة. وانتهى الأمر بالترحيب بهم، وقُدِّم لهم الطعام، وأصدر القاضي أمرًا بحظر التعرُّض لهم بأذًى. فراحوا يبشّرون بالإنجيل حيثما توجّهوا. وسرعان ما طلب منهم عددٌ من الأهالي العماد، الذي قام به لعازر في الساحة العامّة، إزاء الهيكل، وكان القاضي أحد المعمَّدين. واستمرّ لعازر، بصفته أُسقف الكنيسة الوليدة، يبشّر بالإنجيل، فيما انطلق الآخرون، في جهاتٍ أُخرى.

واعتكفت المجدليّة، بعيدًا عن المدينة، في كهفٍ عسير المنال، حيث عكفت على ممارسة أقسى وسائل التوبة. وكانت، بين فترةٍ وأُخرى، تجتاز مسافةً طويلةً، كي تلتقي مكسيمان الذي كان يزوّدها بالقربان المقدّس.

كانت المغارة التي اتّخذت منها منسكًا محفورةً في ناحية جبلٍ موحشٍ، تتوسّطها أعمدةٌ طبيعيّةٌ، وفي جنباتها تجاويف تتّسع لإيداع شتّى الأمتعة. ولم يكن مرقد المجدليّة وسط المغارة، بل في حفرةٍ داخل جدارٍ نحتتها بيدها، بحيث يتعذّر

اكتشافها. وفي هذه المغارة توفّيت المجدليّة، قبل وفاة أُختها مرتا، ووُجدت مغطّاةً بأوراق أشجارٍ، حاضنةً صليبًا ضمّته إلى صدرها. وكانت بشرتها قد اكتسبت سُمرةً وقسوةً، بفعل الشمس والرياح. وجاء ناسكان لفّاها بكفنٍ، ووضعاها على محفّةٍ، ونقلاها إلى الدير الذي كانت مرتا تقيم فيه. ولاحقًا أشاد القدّيس مكسيمان كنيسةً فوق مغارتها، وأودع فيها بعضًا من ذخائرها ورفاتها.

وكانت مرتا قد مضت، مع خادمتها وخادمة شقيقتها، إلى منطقةٍ موحشةٍ مليئةٍ بالصخور، كان قد جعل منها سكّان البلاد منفى لسبايا الحروب. وأقمنَ أكواخًا إلى جانبهنّ، ثمّ أشدنَ ديرًا وكنيسةً صغيرةً، مؤلّفةً من أربعة جدرانٍ، وسقفٍ من أغصانٍ مجدولةٍ، ومغطّاةٍ بأعشاب. وقد أرشدنَ عددًا من السبايا إلى الدين المسيحيّ، فانضمّ إليهنّ عددٌ منهنّ. ولكنّ أُخرياتٍ وشينَ بهنّ، وعرّضنَهنَ للاضطهاد.

ثمّ انتقلت مرتا ورفيقاتها إلى مدينةٍ قريبةٍ تدعى "إيكس" (Aix)، كان يجتازها نهرٌ، حيث كان وحشٌ يعيث فسادًا وخرابًا، زارعًا الخوف في قلوب السكّان. فألقت مرتا حزامها عليه ولفّت به عنقه حتّى اختنق. ومنذئذٍ انطلقت تبشّر بالإنجيل، على ضفاف النهر، وفي السهول. وكانت تبتني، بمساعدة رفيقاتها، منبرًا من أحجار، وتبشّر من فوقه. وإذ كانت تبشّر، ذات يومٍ، على ضفّة النهر، قدم شابّ سابحًا، راغبًا في الاستماع لها، ولكنّه غرق، وأُلقيت عليها تبعة غرقه. واستطاع والد الشابّ انتشال جثمانه في اليوم التالي، وجاء به إلى مرتا، يواكبه جمعٌ غفيرٌ، وأعلن استعداده للإيمان بإله مرتا إن هي استطاعت إعادة ابنه إلى الحياة. فأمرت مرتا الجثمان، باسم يسوع المسيح، أن يعود إلى الحياة، فهبّ ناهضًا، حيًّا، واعتنق المسيحيّة مع ذويه والكثيرين من الأهالي. ومع ذلك عدّ بعضهم مرتا ساحرةً، وأوسعوها اضطهادًا.

في هذه الأثناء، كان مكسيمان قد سيم كاهنًا، واستقرّ في الجوار، وكان يزور مرتا باطّرادٍ، ويزوّدها بالقربان المقدّس. ونجحت مرتا، بفضل أعمالها الخيّرة، وتعاليمها، في نشر الإنجيل، واستمالت كثيرين إلى الإيمان بيسوع.

## إقامة العذراء في أفسُس

عقب صعود الربّ، مكثت العذراء ثلاث سنواتٍ في بيت عنيا. ولكن لّما اشتدّ الاضطهاد على لعازر وأسرته، فرّ يوحنّا بها وبمسيحيّين آخرين إلى مدينة أفسس التي كانت تؤوي جماعةً مسيحيّةً صغيرةً. غير أنّ العذراء لم تُقِمْ في وسط المدينة (الزاخرة بالبذخ والضجيج)، بل على تلّةٍ تبعد عنها نحو خمسة كيلومتراتٍ، في منطقةٍ حرجيّةٍ تكلّلها آلاف الأشجار الباسقة، وارفة الظلال، لا يسمع فيها سوى زقزقات العصافير وحفيف الأوراق الخضراء، وتحضن سفوحها العديد من المغاور الطبيعيّة.

وكان الرسول يوحنّا قد أعدّ، هناك، للعذراء، بيتًا صغيرًا محفورًا في الصخر، وأثّث بعض المغارات التي لا تبعد كثيرًا عن ذلك البيت، بما يمكّن أُسرًا مسيحيّةً من الإقامة فيها، ونصب خيامًا للزائرين.

كان صدر بيت العذراء المعزول عن باقي البيت بستارةٍ، مصلًّى خاصًّا بأُمّ الله. يزيّنه صليبٌ صنعته العذراء والقدّيس يوحنّا بأيديهما، صنعًا بدائيًّا من خشبٍ طبيعيٍّ غير مصقول، وحفرا عليه رسمًا ليسوع، وغرساه في كومةٍ من ترابٍ وحجارةٍ، على غرار صليب الجلجلة، وأودعا عند قدميه بُرديًّا دُوِّنت فيه أقوال المخلّص. وكان إلى جانبي الصليب إناءان يُملآن، باطّرادٍ، بأزهارٍ برّيّة نديّةٍ.

عاشت العذراء في ذلك البيت مع خادمةٍ أصغر منها سنًّا، كانت تتولّى العناية بها، وتزوّدها باحتياجاتها من الطعام واللباس، واللوازم المنـــزليّة. وفي فتراتٍ متباعدةٍ، كان يؤمّ البيت، زائرًا، رسولٌ أو تلميذٌ. وبين فينةٍ وأُخرى، كان يَقدِم القدّيس يوحنّا، فيستبدل حزامه بآخر موشّى بأحرفٍ، ويلقي على كتفيه وشاحًا. وحينئذٍ كانت تخرج العذراء من صومعتها، متّقدةً رغبةً في الإفخارستيّا، بوجهها الشفّاف، مستندةً على ذراعي خادمتها، مرتديةً ثوبًا أبيض فضفاضًا، ثمّ تعود إلى مصلاّها برفقة يوحنّا، وتميط الحجاب عن بيت القربان، وعن الصليب، فيصلّيان معًا، ثمّ يستلّ يوحنّا من جيبٍ داخليٍّ، علبةً معدنيّةً، ويخرج منها منديلاً يحتوي قطعة خبزٍ مكرّسةً، وإثر تلاوة أدعيةٍ بلهجةٍ احتفاليّةٍ وقورٍ، يناول العذراء.

كانت العذراء، أثناء إقامتها في أورشليم، قد أَلِفت استقراء درب صليب ابنها كلّ يومٍ، وإرواءه بدموعها، وكانت مثابرتها على هذا الاستقراء قد مكّنها من حفظ عدد الخطوات التي يتعيّن اجتيازها من مرحلة إلى أُخرى. وقد أمست هذه الممارسة من مقوّمات حياتها الأساسيّة التي لا تقوى على إهمالها. ومن ثمّ، مذ حطّت رحالها في أفسس، أقامت حول بيتها دربًا مماثلاً لدرب الآلام الأورشليميّ، ودأبت على استقرائه بانتظام، متأمّلةً في الآلام الفدائيّة. وكانت قد حدّدت موقع كلّ مرحلةٍ بحجرٍ أو بشجرةٍ، وفقًا لعدد الخطوات الضروريّة للانتقال من مرحلةٍ إلى أُخرى، كما كانت في أورشليم. هذا الدرب كان يُفضي إلى غيضةٍ، انتصبت فيها تلّةٌ تمثّل الجلجلة، ومغارةٌ صغيرةٌ تمثّل القبر المقدّس. وغالبًا ما كانت العذراء تجتاز ذلك الدرب برفقة خادمتها وبمساعدتها. وفي كلّ مرحلةٍ، كانتا تجلسان، وتستحضران ذكرى آلام الربّ، شاكرتيْن له حبّه، بفيضٍ من دموعهما. وشيئًا فشيئًا، دأبت مريم على إضفاء لمسة إكمالٍ على ذلك الدرب. فدوّنت بمخرزٍ، على كلّ حجرٍ، معناه القدسيّ. كما أنّها جهدت في سبيل تحويل المغارة التي تمثّل القبر المقدّس، إلى مكان عبادةٍ وصلاةٍ. وكان القدّيس يوحنّا، كلّما تسنّى له، يشارك أُمّ ربّه، استقراء ذلك الدرب، والتوغّل في تأمل معانيه الفائقة، ثمّ كان يباركها، ويتلقّى بركتها. وبالإجمال كان هو، لها، بمثابة الابن البارّ.

## انتشار الرسُل

بعد أن أقامت العذراء ثلاث سنواتٍ في أفسس، ألحّ عليها الشوق لزيارة أُورشليم، فاقتادها إليها كلٌّ من بطرس ويوحنّا. ومنذ وصولها إلى المدينة وقت الغروب، حرصت قبل دخول المدينة، على زيارة جبل الزيتون، والجلجلة، والقبر المقدّس، وكلّ الأماكن، في جوار أُورشليم، التي كرّسها الربّ بحضوره. وبلغ بها التأثّر والأسى، أن كادت تنهار وتهوي أرضًا، لو لم يتداركها الرسولان.

واتّفق أن كان معظم الرسُل، آنذاك، في أورشليم، فعقدوا مجمعًا بحضور العذراء التي

زوّدهم بإرشاداتها وبركاتها. ثمّ عُيِّن لكلٍّ منهم حقل رسالةٍ وتبشيرٍ في مختلف أقطار العالم، وانطلقوا كي يبشّروا الوثنيّين بالإنجيل، وقبل انفصالهم قبّلوا وباركوا بعضهم بعضًا. وقد استصحب كلّ رسولٍ تلميذين كان قد اختبرهما واطمأنّ إلى وفائهما للإنجيل. وكان على كثيرين منهم ركوب البحر بلوغًا إلى حقول رسالتهم النائية.

كان بطرس، آنذاك، مقيمًا في أنطاكية، حيث رأس المركز الأنطاكيّ مدّة سبع سنواتٍ. ومن هناك عاد إلى أُورشليم مشدّدًا المسيحيّين المضطهدين، ثمّ أبحر إلى ناپـــولي، وأخيرًا حطّ الرحال في روما، يوم الثامن عشر من كانون الثاني عام ٤٤، يرافقه تلميذان يدعيان "مارسيال" (Martial) و"أپـــولّينير" (Apollinaire)، وخادمٌ يدعى "مرسيون" (Marcion). وقد لاقاهم، في منتصف الطريق المدعوّ "لونتولُس" (Lontulus)، وهو وجيهٌ من روما، كان أطلعه رومانيّون كُثُرٌ على أخبار يسوع ومعجزاته. فغزت محبّة الربّ قلبه، وغدا يتقصّى، باهتمامٍ شديدٍ، أنباءه من كلّ قادمٍ بحرًا من فلسطين. وذهب به ولَعه بالمسيح أن أرسل مع أحد أصدقائه قطعة قماشٍ فاخرةً، كي تلامس ثياب الناصريّ، واحتفظ بها ذخيرةً غاليةً. ولّما تنامى إليه نبأ مجيء بطرس إلى روما هرع إلى استقباله، وجاء به وبصحبه إلى بيته، وأغدق عليهم تكريمًا سخيًّا. ثمّ انتقل بطرس ومرافقوه إلى بيت رجلٍ يدعى "پـــرودِنْس" (Prudens)، بيتٍ تحوّل، لاحقًا، إلى كنيسة روما الأولى. وقد أنفق "لونتولُس" على تلك الكنيسة الناشئة إنفاقًا سخيًّا.

مكث بطرس في روما خمسةً وعشرين عامًا، ولم يغادرها سوى مرّةٍ واحدةٍ، حين جاء إلى أفسس للمشاركة في جنازة العذراء. ثمّ عاد إلى روما حيث توفّي، وكان قد بلغ من العمر تسعين عامًا.

أندراوس أخوه بشّر في اليونان وفي آسيا الصغرى، حيث أجرى عجائب جمّةً، وتميّز باستقامته، وصدقه، وبساطته. كان يكبر بطرس أربع سنواتٍ، وكان ربع القامة، أصلع إلاّ من خصلتي شعرٍ شائبٍ على كلّ جانبٍ من رأسه. وكان أوّل رسولٍ تخلّى عن كلّ شيءٍ كي يتبع يسوع. وكان أشدّهم اندفاعًا في هذا الميدان.

واتّفق أن كان متّى في مدينةٍ إيثيوپـــيّةٍ مسجونًا مع رهطٍ من التلاميذ، وقد قُطّر في عينيه سائلٌ سامٌّ فاحمرّتا وتورّمتا. وتلقّى أندراوس، في الحلم، أمرًا بإنقاذه، فأبحر في الحال متنكّرًا، ومن الشاطئ أكمل مسيرته على الأقدام، محاذيًا النهر الذي يجتاز المدينة، فشفى عيني متّى، وحلّ قيوده، وقيود رفاق سجنه، وبشّر هناك بالإنجيل. وسارت الأمور على خير حالٍ في البدء، إلى أن نشطت امرأةٌ شرّيرةٌ في تحريض الأهالي عليه، فقيّدوا قدميه، وجرّوه عبر المدينة، وهو عاكفٌ على الصلاة من أجل جلاّديه. وكان لموقفه هذا أثرٌ حاسمٌ عليهم، فحلّوا قيوده، واستغفروه، واعتنق معظمهم دين يسوع. وتكاثرت المعجزات على يده، حيثما ذهب. ففي نيقيا طرد من المقابر سبعة أرواحٍ نجسةٍ، كانت تعوي كالكلاب بلا انقطاعٍ. وأقام ولدًا من الموت، وهدّأ عاصفةً. وفي مدينة "تراقيا" طاردته عصابةٌ، فأوْمضت السماء بضوءٍ باهر ألقى الرعب في نفوس مطارديه، فخرّوا أمامه مستغفرين. ولطالما نجا، نجاةً عجيبةً، من هجمات حيواناتٍ مفترسةٍ.

أمّا يعقوب فكان قد قصد إسبانيا، حيث أمضى أربع سنواتٍ، طائفًا في مختلف مناطقها، مواجهًا أدهى المخاطر ولكنّه كان يتخطّاها بمؤازرة العذراء، التي ما انفكّت تستجيب لدعواته، وتمدّه بغوثها. ولطالما سُجِن، ثمّ أُطلق سراحه. وقصد برفقة تلميذين روما حيث بشّر في أماكن عديدةٍ. وسُجن في إحدى النوبات، مدّة سبعة أيّامٍ، ولكنّ المحكمة برّأته. ثمّ عاد إلى إسبانيا، حيث كانت الجالية المسيحيّة قد تنامت، فبشّر في مدنٍ عديدةٍ، وأفلح في استمالة كثيرين إلى الدين المسيحيّ. وفي إحدى المدن أُطلقت في إثره طائفةٌ من الأفاعي، فأخذها بيده، بهدوءٍ تامٍّ، وحينئذٍ انطلقت تهاجم عبدة الأوثان. وحاول سَحَرَةٌ إخافته فانقلب سحرهم عليهم. ولم تقتصر العذراء على إنقاذه من مآزقه، بل كانت، أيضًا، توحي إليه بما يتوجّب عليه فعله، وبالأماكن التي ينبغي عليه التبشير فيها.

وذات يومٍ، كان غارقًا في غمرة القلق على مصير الكنيسة، والتمس، في صلاته، من العذراء تزويده بمشيئة الرب. وحينئذٍ استنارت السماء فوق رأسه بنورٍ

ساطعٍ، وصدحت أجواق ملائكةٍ بأناشيد ساحرةٍ، وظهرت زهرةٌ جسيمةٌ يشعّ في وسطها طيف العذراء بألقٍ ساطعٍ، فائق العذوبة.

وتلقّى يعقوب إلهامًا ببناء كنيسةٍ، تكون شفاعة العذراء عمادها، حيث كان راكعًا. وكان التلاميذ المرافقون له قد استدعاهم النور الساطع الذي ظلّله، وأناشيد الملائكة. فأنبأهم بما أُوحي إليه. وفي الحال عزموا جميعهم على تنفيذ مشيئة العذراء. وحينئذٍ انتقى يعقوب اثني عشر تلميذًا، بعضهم علماء، وأوكل إليهم متابعة المهمّة التي حقّقوها بمشقّةٍ.

ثمّ، تنفيذًا لإيحاء العذراء ورغبتها، عاد يعقوب إلى أورشليم، مرورًا بأفسس حيث زار السيّدة العذراء التي أنبأته، بمقتله الوشيك في أورشليم، ولكنّها شدّدته وواسته. وفي أورشليم أُمِر، النوبة تلو النوبة، بالمثول أمام السنهدرين. وأخيرًا، بضعة أيّامٍ قبل عيد الفصح، أُلقي القبض عليه، فيما كان يبشّر على تلّةٍ، في الهواء الطلق، وحوكم في المكان عينه الذي شهد محاكمة يسوع، واقتيد إلى الجلجلة، وهو ما انفكّ يبشّر، ويجتذب كُثُرًا إلى دين الناصريّ. ولّما قيّدوا يديه، قال: "بوسعكم تقييد يديّ، ولكن يستحيل عليكم تقييد لساني وبركتي!". وكان في الطريق رجلٌ مشلولٌ، فسأله أن يمدّ إليه يده ويشفيه، وأجابه الرسول: "تعال، أنت!، ومدّ يدك إليّ". فنهض الرجل، وأمسك بيد الرسول المقيّدة. وحينئذٍ هُرع إليه الواشي الذي كان قد شكاه إلى زعماء اليهود، وخرّ أمامه مستغفرًا، فسأله يعقوب: "هل ترغب في تلقّي العماد؟"، فأجاب "لديّ رغبةٌ مضطرمةٌ في العماد!"، فأوضح له الرسول: "ستتعمّد بدمك!" ولم تلبث نبوءته هذه أن تحقّقت. وجاءت امرأةٌ بابنها الأعمى إلى حيث كان يعقوب معتقلاً، معذّبًا، فشفاه.

وأخيرًا اقتيد يعقوب إلى هضبةٍ، حيث تُلي نصّ إدانته، ثمّ أُجلس على صخرةٍ، وقُيِّدت يداه، وعُصبت عيناه، وقُطع رأسه. وقد حدث ذلك، في السنة الثامنة لصعود الربّ. وأحدث مقتله دويًّا عارمًا، وأقبل كثيرون على اعتناق المسيحيّة. وطالب تلاميذ يعقوب بجثمانه، ولكنّ زعماء اليهود أمروا جنودًا بدفنه في مكان مجهولٍ.

ولكن تعذر على الجنود التقدّم بجثمانه خطوةً واحدةً. وتمكّن التلاميذ من اكتشاف مدفنه، فاستأجروا لصوصًا سرقوا جثمانه، وواروه الثرى، مؤقّتًا، على مقربةٍ من أُورشليم. ثمّ عندما اشتدّ اضطهاد المسيحيّين، انتشلوه خفيةً، ونقلوه إلى إسبانيا.

ولم تمضِ سوى أيّامٍ قليلةٍ على مقتل الرسول يعقوب، حتّى لقي هيرودس حتفه، بطريقةٍ مريعةٍ، إذ كان قد حُمِل إلى مسرحٍ للتفرّج على مشهدٍ مسلٍّ، وبغتةً، وأمام حشدٍ غفيرٍ، انفجر بطنه، واندلقت أمعاؤه، وصار منظره مريعًا.

بعد بضعة أسابيع، عاد بطرس إلى أورشليم. وما لبث أن زُجّ في السجن، حيث قُيِّدت قدماه، ورُبطت يداه بسلاسل متّصلةٍ بمعاصم جنديّين عن يمينه ويساره. فظهر ملاكٌ، أضاء نور السجن، ولمس بطرس فأيقظه وقال له: "انهض سريعًا!". وفي الحال، فُكّت قيوده، فانتعل حذاءه خفيةً، ونهض، وشدّ حزام ردائه، وتدثّر بمعطفه الذي يتغطّى به، أثناء نومه، واقتفى خطى الملاك. وعبرا الباب الذي ظلّ موصدًا، واجتازا قاعاتٍ عديدةً ملأى بجنودٍ مستيقظين، ولكنّهم لم يلمحوهما. ولما انتهيا إلى باب السجن الخارجيّ، انفرج تلقائيًّا أمامهما. ولّما صارا خارجًا، توارى الملاك، وأدرك بطرس الذي كان يظنّ ما يحدث له حلمًا، أنّه في واقعٍ عجيبٍ. فقصد بيت أمّ مرقس، حيث كانت جماعةٌ من المؤمنين تصلّي من أجل نجاته. وقد أسدلوا على النوافذ ستائر صفيقةً، لكيلا يدلَّ شيءٌ على وجودهم، ولكي لا تتسرّب أيّة نأمةٍ منهم إلى الخارج. وقرع بطرس، معلنًا اسمه، وعادت الخادمة تضجّ فرحًا مبشّرةً بمجيئه، ولكنّهم لم يصدّقوها، وعاد بطرس يلحّ قرعًا على الباب، فهرع كثيرون مستطلعين، وأدخلوا بطرس، وغمروه بالقبل. فأشار لهم بالصمت، وروى لهم، بصوتٍ خافتٍ، ما حدث له. ولكنّه لم يُطِل الإقامة معهم، بل غادر إلى مكانٍ آخر، التزامًا بالحيطة.

يوحنّا الإنجيليّ، بشّر آسيا الصغرى، وكان رئيس أساقفتها، دائبًا على تفقّد جماعاتها المسيحيّة. كانت أفسس مركزه الرئيس، وأثناء إقامته فيها، حرص على

تقرّي أوضاع السيّدة العذراء، وتأمين احتياجاتها. ولكنّه لم ينجُ من الاضطهاد. فقد كان، في تلك المدينة، فيلسوف يندّد به وبتعاليمه علنًا. وقد حرّض تلاميذه على إحراج الرسول، بشتّى الوسائل. وبما أنّ يوحنّا كان يدعو، في عظاته، إلى احتقار الثروات الأرضيّة، فقد عمد أولئك الشبّان إلى جمع مصوغاتٍ ذهبيّةٍ وجواهر، وحطّموها ونثروا فتاتها على الأرض، وسألوه، ساخرين: "أهكذا يكون ازدراء ثروات الأرض؟" فأجابهم: بل إنّ ما فعلتموه هو تبديدٌ مجنونٌ ومدانٌ". وانبرى أحدهم متحدّيًا، معلنًا استعدادهم للإيمان بإلهه، إن هو استطاع إعادة حطام تلك الجواهر والمصنوعات الذهبية إلى شكلها الأصليّ. فدعاهم إلى جمع كلّ ما يستطيعون جمعه من ذلك الحطام. وجاؤوه به، فأعاد لهم الجواهر والمصنوعات المحطمة وقد استرجعت أشكالها الأصليّة. فخرّوا ساجدين. وحينئذٍ أمرهم بتوزيع أثمان تلك الأغراض الثمينة على الفقراء، ففعلوا واعتنقوا دين يسوع.

ولكن لّما تنامى عدد المسيحيّين بتأثير مواعظ يوحنّا، زُجّ بالرسول في السجن حيث وافاه كاهنان وثنيّان، وتحدّياه معلنين أُهبتهما لاعتناق دين إلهه، إن هو شرب سمًّا ولم يمتْ. وكلّفا جنديّين باقتياده مقيّد اليدين إلى القاضي الذي نصب قوس محكمته في الساحة العامّة، وسط حشدٍ كثيفٍ. وتأكُّدًا من نجاعة السمّ سُقي به محكومان، فلقيا حتفهما في الحال. وعندئذٍ قُدِّمت له كأس السمّ، صلّى، وتلفّظ فوق الكأس بعباراتٍ، فخرج منها بخارٌ أسود، وأحاطها نورٌ. فتجرّع هو الكأس حتّى القطرة الأخيرة، ولم يصبه أذًى. حينئذٍ رجاه كاهنا الأصنام أن يعيد الحياة إلى الرجلين اللذين تذوّقا السمّ قبله وماتا، فطلب منهما يوحنّا أن يلقيا معطفه عليهما، وتلا دعاءً وجيزًا فنهض الميتان. ولدى رؤية هذه المعجزة، أعلن أهالي المدينة إيمانهم بيسوع، وأُطلق سراح الرسول يوحنّا.

وفي نوبةٍ أُخرى حاول وثنيّون إكراه يوحنّا، عنوةً، على التضحية للأصنام فهبّت على الهيكل عاصفةٌ هوجاء، فانهار سقفه، وانطلقت سُحُب الغبار والدخان من كلّ النوافذ والأبواب، وذابت الأصنام المعدنيّة.

والتقى الرسول يوحنّا، ذات يومٍ، صبيًّا في العاشرة من عمره، يرعى قطيعًا، وتجاذب معه أطراف الحديث، فاستشفّ لديه مؤهِّلاتٍ نادرةً، وطلب منه استدعاء والديه، وكانا من الرعاة الفقراء، فالتمس منهما الرسول إيكال ابنهما إليه كي يثقّفه. ثمّ اقتاده إلى أُسقف بيرية، وأوكل إليه تثقيفه وتربيته، معلنًا عزمه استرجاعه لاحقًا. وسارت الأمور، بادئًا، على خير نسقٍ، ثمّ سها عنه الأُسقف وأهمله، فانضمّ الصبيّ إلى عصابة لصوصٍ. ولّما عاد الرسول مستفسرًا عنه، تبيّن أنّه تائهٌ في الجبال، وسط قطّاع الطرق. وبما أنّ الشيخوخة كانت قد أوهت قوى يوحنّا، امتطى بغلاً أعانه على تسلّق طريق الجبل الوعر. وعندما عثر على الفتى، ركع أمامه، وتوسّله أن يتوب إلى الله، واسترجعه معه، وأقال الأُسقف من منصبه، وأكبّ على إعادة الفتى إلى دروب الربّ بالتوبة والتكفير، وأكمل تثقيفه وإعداده، وأقامه، من بعدُ، أُسقفًا.

ومضى يوحنّا إلى إيطاليا حيث دأب على التبشير، وأُلقي عليه القبض في مدينة روما، وجُرِّد من ملابسه، وجُلِد في إحدى الساحات، وبدا، رغم شيخوخته، محتفظًا بنضارة الشباب وبهائه. ثمّ اقتيد إلى ساحةٍ فسيحةٍ، بعد أن أُلبسَ معطفًا قرمزيًّا يحاكي المعطف الذي ألبسه أزلام هيرودس ليسوع، استهزاءً به. وفي الساحة كان مرجلٌ فوق موقدٍ مثقّبٍ من عدّة جوانب، ممتلئٌ زيتًا مغليًّا، وكان حشد المتفرّجين كثيفًا. وجُرِّد من معطفه، فبدا صدره مغطّى بالدماء التي فجّرها الجَلْد، وحمله رجلان، وألقياه في المرجل، ولكنّه لم يقاومهما، ولبث طويلاً داخل المرجل لا يشكو حرقًا، ولم يصبْه مكروه. ولّما انتُشل من المرجل بدا جسده معافًى، عافيةً تامّةً، وقد زالت عنه آثار الجلد. فتراكض كثيرون من الحاضرين طمعًا في التزوّد بقسطٍ من ذلك الزيت الذي، مع غليانه، لم يؤذِ الرسول، لا بل شفى جروحه. ودهشوا لّما تبيّنوا أنّ ذلك الزيت المغليّ لم يحرق أيديهم. وقد احتُفِظ بقسطٍ وافٍ من ذلك الزيت في الكنيسة التي شُيِّدت فوق ذلك المكان.

## رسلٌ يواصلون رسالتهم

كان توما قد بشّر بلاد المجوس، وعمّد اثنين من ملوكهم الذين عبدوا يسوع الوليد في بيت لحم، مع رهطٍ من مرافقيهم. وقد اختار الملك "منصور"، اسم عمادٍ له "ليأندر" (Lèandre)، أمّا "ثيوكينو" فاختار اسم "ليون".

وعمّد توما جميع الراغبين في العماد، على امتداد طريقه، وكلّف تلاميذه بمتابعة رسالة التبشير في البلدان التي كانت مسرحًا لتبشيره. وبعدئذٍ يمّم شطر الصين والتيبت، والمناطق المتوحّشة في روسيّا.

وأوفد تدّاوس إلى بلاد العرب، حاملاً رسالةً إلى ملكها الذي كان مبتلى بالبرص. ولّما دخل تدّاوس مخدع الملك، حيث كان طريح الفراش، وقدّم له الرسالة، ظهر له يسوع إلى جانب الرسول متألّقًا، فلم ينظر الملك لا إلى الرسالة ولا إلى حاملها، إذ كانت الرؤيا قد استولت على كلّ كيانه. وحينئذٍ وضع تدّاوس يديه على الملك، فشُفي من علّته، في تلك اللحظة.

ومضى تدّاوس، برفقة سيلا، يجوبان تلك البلاد، ويبشّران، ويعمّدان، ويجريان أشفيةً معجزةً، ثمّ قادهما الترحال إلى مصر، ودولٍ أفريقيّةٍ مجاورةٍ.

وبشّر توما وبرتلماوس الهند واليابان، والحبشة، وغزوا قلوب السكّان برقّتهما وإحساناتهما، وأشفيتهما. وبذلك استطاعا الإطاحة بعبادة الأصنام، واجتذاب القوم إلى تعاليم يسوع.

وفي الحبشة حرّر برتلماوس، ابنة الملك من مسٍّ شيطانيٍّ كان يضطّر ذويها إلى تقييدها بالسلاسل، ورغب الملك في مكافأته مكافأةً سخيّةً، فتهرّب الرسول، برهةً، ثم قبل أن يتقبّل الهدايا ويوزّع أثمانها على الفقراء.

وبالإجمال، كان الشعب مفتونًا بالرسل وصنائعهم. ولكنّ كهنة الأوثان كانوا يجيشون غيظًا عليهم. وكان الملك يستدعي برتلماوس باطّرادٍ، ويناقشه، فيستعين برتلماوس بإنجيل متّى الذي كان يرافقه حيثما مضى.

وفضح برتلماوس خِدَع كهنة الأصنام الذين كانوا يصيبون الناس بأسقامٍ مصطنعةٍ، ويوهموهم بشفائهم بقدرة الأصنام، ويغنمون المال الوفير؛ ويرسّخون عبادة الأصنام. بيد أنّ برتلماوس كشف تلك الخِدَع كشفًا ملموسًا، وأخزى كهنة المعبد، وأقنع الملك باعتناق دين يسوع، هو وأفراد بلاطه، وبتحطيم الأصنام، وتحويل معابدهم إلى هياكل لعبادة الله السماويّ الأوحد.

## زيارة العذراء الأخيرة إلى أورشليم

في أفسس توغّلت العذراء في الصمت والخشوع، وأضربت إلاّ عن الزهيد الزهيد من الطعام الذي يمسك لها رمقًا. ولكأنّ جسدها وحده ظلّ سجين الأرض، فيما كان روحها يقطن مكانًا آخر.

وفي منتصف السنة التي سبقت سنة وفاتها شدّها الشوق ثانيةً إلى مسرح آلام ابنها الفدائيّة، فشخصت إلى أورشليم. وفور وصولها، انطلقت مع ثلّةٍ من الرسُل، ليلاً، تستقري الأماكن التي قدّسها ابنها بدمه وآلامه. وكانت لا تني تردّد متأوّهةً، متوجّعةً: "يا بُنيَّ، يا بُنيَّ!"... ولدى وصولها إلى حيث شهدت يسوع يهوي تحت وقر الصليب، هوت، هي أيضًا، أرضًا، فاقدةً الوعي، وتوجّس الرسُل خشيةً من أن تكون قد قضت نحبها، فحُملت إلى العلّيّة، حيث كان قد أُعدّ جناحٌ لإقامتها. وفي الأيّام التالية، تواترت عليها، ظواهر الإعياء والوهن، والألم والإغماء، بحيث بات الرسُل، يتوقّعون رحيلها في كلّ لحظةٍ، وسارعوا إلى تأمين مدفنٍ لائقٍ لها، فاختارت، هي، لهذا الغرض مغارةً في بستان الزيتون، وكُلِّف نحّاتٌ مسيحيٌّ بإعدادها مدفنًا. وشاع ذلك الأمر، وانتشرت شائعاتٌ عن وفاتها، أفضت إلى ترسيخ نبأ وفاتها في أورشليم، حتّى إنّ القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، أكّد، لاحقًا، هذا النبأ، الذي كان قد أمسى تقليدًا.

ويبدو أنّ الله آثر أن تبقى تفاصيل موتها ودفنها موضع ارتيابٍ، لكيلا تستغلّ النـــزعة الوثنيّة التي كانت ما برحت شائعةً، الأمر، وتحوّل ذلك القبر إلى مكان

عبادةٍ. ومن ثمّ، قبل الفراغ من إعداد المدفن، تعافت العذراء، تعافيًا تامًّا، وعادت إلى أفسس حيث توفّيت بعد ثمانية عشر شهرًا. وقُبيْل وفاتها هناك أدّت طقوس درب الصليب الذي أعدّته بجوار مسكنها في أفسس، برفقة خمس نساءٍ، كانت إحداهنّ ابنة أخٍ لحنّة النبيّة التي تقبّلت تقدمة يسوع الطفل في الهيكل، وكانَ منهنّ، أيضًا، الأرملة "مارا" ابنة أخت إليصابات، وهي ابنة نثنائيل الذي أنقذه يسوع من فضيحة نقص الخمرة، يوم عرسه في قانا، وابنة "سيرافيا" (المعروفة بـــ "ڤـــيرونيكا") التي تمتّ إلى ذوي العذراء وإليصابات بصلات قربى. وكنّ قد جئنَ إلى أفسس، وأقمنَ على مقربةٍ من العذراء، ودأبنَ على تقديم ما تستطعنَ إليه سبيلاً من عونٍ لها.

وأثناء درب الصليب الأخير، بدت العذراء مريم في حالةٍ من الوهن الأقصى، وغدا محيّاها أبيض شفّافًا، ولكنّها، رغم تقدّمها في السنّ، لم يغزُ محيّاها غضنٌ ولا أثرٌ لشيخوخة. ولكن، كانت تتجلّى عليها أمارات رغبةٍ عارمةٍ في التقاء ابنها. وكان وقارها، دائمًا، فائقًا، فلم تُشاهَد، يومًا، تضحك، ولكنّ بسمتها كانت تضيء أساريرها، وتدفئ قلوب ناظريها. وكان هزالها المتفاقم يسهم في إيحاء أنّها مجرّد إناءٍ لروحٍ سماويٍّ.

## أيام العذراء الأخيرة

في أسابيع أيّامها الأخيرة، كانت السيّدة العذراء تتنقّل داخل بيتها ببطءٍ ومشقّةٍ، وبمساندة خادمتها. وكانت غرفتها قد غُلّفت بأغطيةٍ بيضاء، وهي أمست ترقد على فراشٍ يلامس الأرض، ويلفّها، بالكامل غطاءٌ أبيض. وكانت النساء المحيطات بها يدخلنَ ويودّعنها، الواحدة تلو الأُخرى، وتعبّر وجوههنّ المكفهرّة، عند خروجهنّ، عن أوجع حزنٍ، وأعمق تأثُّرٍ، وتشتركنَ جميعهنّ بصلاةٍ مبلّلةٍ بالدموع. وسألت العذراء ابنها وخالقها أن ينفّذ وعده لها، في بيت لعازر، فأكّد لها أنّ رسله سيوافون لمواكبة لحظاتها الأخيرة على الأرض، وأوحى لها، بما ينبغي أن توصيهم به، قبل تزويدهم ببركتها.

وتقاطر الرسُل من كلّ أرجاء المسكونة، وساعدهم قوًى سماويّةٌ على اجتياز

المسافات الشاسعة، بيُسرٍ وسرعة مذهلَيْن. في هذه الأثناء، كان بطرس، في نواحي أنطاكيا، راقدًا إلى جانب جدارٍ، وقد طعن في السنّ، وأنهكته الأسفار والأتعاب، وإذ بملاكٍ يأخذ بيده، ويوقظه، ويدعوه إلى التوجّه، في الحال، إلى بيت العذراء، فجلس، وأنصت إلى الملاك، ثمّ هبّ وشدّ حزامه، وتدثّر بمعطفه، وأمسك بعصاه، وانطلق، وما لبث أن التقى أخاه أندراوس الذي كان قد تلقّى دعوةً سماويّةً مماثلةً، ومضيا معًا إلى بيت العذراء حيث كان يوحنّا ينتظرهما، وكان يوحنّا نفسه قد قطع زيارةً إلى أريحا عندما أوعزت إليه السماء بالشخوص سريعًا إلى أفسس. وكان رسُلٌ آخرون في بلاد فارس لّما دعتهم السماء إلى بيت أُمّ الربّ. أمّا برتلماوس فكان في مدينةٍ بشرقيّ البحر الأحمر حيث كان قد أقنع ملك المدينة، وكلّ عائلته باعتناق الدين المسيحيّ. وكان توما أبعد الرسُل عن أفسس، مبشّرًا في الهند، ومتأهّبًا للسفر إلى الصين لمتابعة التبشير، وقد شقّت عليه التضحية بهذا المشروع، ولكنّه أسرع في المجيء إلى أفسس. ولم يبلغها إلاّ بعد وفاة العذراء.

وإلى جانب العذراء كانت أختها الكبرى مريم، زوجة كليوبا، وجدّة يعقوب وتدّاوس وسمعان، المعروفين بإخوة يسوع.

وكان القادمون من الرسُل يقبّلون الرسُل الذين سبقوهم، إلى بيت العذراء، مازجين دموع فرح اللقاء، بدموع الأسى الذي تسبّبه المناسبة الأليمة. وحالَ وصولهم، كانوا يلقون عصاهم جانبًا، ويخلعون معطفهم وحزامهم، فتُغسَل أقدامهم، وحينئذٍ يدخلون إلى مرقد العذراء، ويحيّونها باحترامٍ، ويودّعونها بحزنٍ، فتوجّه لكلٍّ منهم عبارةً موجزةً، بصوتٍ خافتٍ، وتذكّرهم بوصيّة يسوع لهم.

ولّما التمّ شمل بطرس وأندراوس ويوحنّا وتدّاوس وبرتلماوس، ومتّى، والشمّاس المتميّز بغيرته "نيكاتور"، احتفلوا معًا بالذبيحة الإلهيّة، داخل بيت العذراء حيث أقاموا هيكلاً وضعوا عليه صليبًا على شكل صليبٍ يحتوي خمس علبٍ تحتوي إحداها القربان، وتحتوي الأُخريات الميرون والزيت، والملح، وذخائر مقدّسةً.

في هذه الأثناء وصل الرسول سمعان، وتلاه يوحنّا مرقس الإنجيليّ، وبرنابا، وبرسابا وحفيد سمعان الشيخ، فأقام بطرس قدّاسًا ثانيًا، وقدّم المناولة للسيّدة العذراء، في وعاءٍ على شكل صليبٍ. وكان فوق فراش العذراء صليبٌ خشبيٌّ بحجم نصف ذراعٍ، حيث مُثِّل جسد المصلوب، بلونٍ أبيض.

وكانت أُمّ الربّ مُضّجعةً، ساكنةً، والموت يحبو منها على نحوٍ ظاهرٍ، وقد امتنعت عن تناول أيّ طعامٍ، ما عدا رشفاتٍ زهيدةً من عصيرٍ كانت خادمتها تُعدّه لها. وكانت هذه الخادمة في حالةٍ من الحزن الطاغي، والاضطراب، لا تني تنتقل من زاويةٍ إلى أُخرى، فتركع، وتبسط ذراعيها، وتصلّي مذرّفةً وابل الدموع.

مساءً شعرت العذراء مريم أنّ أجلَها قد حُمَّ، فحرصت على تنفيذ وصيّة ابنها، فجلست على فراشها، وصلّت، ثمّ باركت الرسُل فردًا فردًا، ثمّ خاطبت الجميع: الرسُل، والتلاميذ، والنساء القدّيسات. وتقدّم منها بطرس حاملاً سفرًا مكتوبًا. ثمّ أوضحت ليوحنّا التدابير الخاصّة بجثمانها، وأوصته بوهب جزءٍ من ثيابها للأرملة التي كانت تخدمها، وجزءٍ آخر لفتاةٍ كانت تتطوّع، غالبًا، لخدمتها. وحينئذٍ دنا منها التلاميذ الحاضرون فباركتهم، وبعد أن انسحب الرجال إلى الحيّز الأماميّ من البيت، قدمت النساء، وركعنَ أمام فراش العذراء، وتلقّينَ بركتها. وشوهدت العذراء تقبّل امرأةً انحنت عليها.

وأُعدّ هيكلٌ، وارتدى خمسةٌ من الرسُل حُللَهم الكهنوتيّة، وقبل أن يلتفّوا حول الهيكل، وصل الرسول يعقوب مع ثلاثة مرافقين، قادمًا من إسبانيا، عبر روما، ومعهم الشمّاس سمعان. فرحّب بهم الرسُل، ترحيبًا موجزًا، وأوعزوا إليهم بالشخوص إلى حجرة السيّدة العذراء، فدخل يعقوب بمفرده، أوّلاً، وتلقّى بركة أُمّ معلّمه، وتلاه رفاقه الثلاثة معًا. ثمّ التفّوا جميعهم حول الهيكل، واشتركوا في الذبيحة التي رأسها بطرس، على نحو ما احتفل بقدّاسه الأوّل في كنيسة بيت حسدا، عقب صعود الربّ. وقبل انتهاء القدّاس وصل فيلبّس مع مرافقٍ له، قادمين من مصر، وشخص، في الحال، إلى فراش أُمّ الربّ، ونال بركتها، مذرّفًا الدموع.

وكانت العذراء قد تمكّنت، في أثناء القدّاس، من الجلوس على فراشها، ومع أنّها لم تستطع مشاهدة الهيكل والمحتفلين، تابعت الصلوات بخشوعٍ. وبعد أن ناول بطرس جميع الحاضرين جاء مريم بالزاد الأخير، وبزيت مسحة المحتضرين، يتقدّمه تدّاوس مبخّرًا، ويليه يوحنّا حاملاً طبقًا يحتوي كأس الدم المقدّس، وعلب زيوتٍ وميرون، وفي إثرهم موكب الرسُل، الذين كانوا قد أعدّوا هيكلين صغيرين على مقربةٍ من فراش العذراء. وفيما كان الرسُل يتلون صلواتٍ، دهن بطرس بالزيت المقدّس، وجهها ويديها وقدميها، ثمّ ناولها القربان المقدّس، وقدّم يوحنّا الكأس من شفتيها، فارتشفت منها، وحينئذٍ ارتمت على فراشها، شاحبةً، هائمةً في انخطافٍ سماويٍّ. وقد طافت على شفتيها بسمةٌ ملائكيّةٌ، وطفحت عيناها بفرحٍ يتعذّر وصفه، وشخصت إلى مسكن ابنها وإلهها، الذي شدّها إلى لقياه توقٌ طاغٍ، وأخذ بكلّ كيانها. محيّاها كان ساجيًا، متألّقًا، بهيًّا مثلما كان في ريعان شبابها. وأوحت يداها المصوّبتان نحو السماء أنّ جسدها راغبٌ في مرافقة نفسها إلى مسكن ابنها، حيث أشرعت لها السماء أبوابها، وغمرتها بأنوارها، ورحّبت بها أناشيد الملائكة والقدّيسين، وحيث كان ينتظرها، أيضًا، بتوقٍ وإجلالٍ، والداها يواكيم وحنّة، ويوسف، وإليصابات، وزكريّا، ويوحنّا المعمدان.

وقد أُنعم على بطرس ويوحنّا، وثلّةٍ من الرسُل أن يشهدوا، بالروح، استقبال السماء لأُمّ إلهم وسيّدهم، والأمجاد التي أُسبغت عليها، إذ قدّم لها يسوع صولجانًا، جاعلاً منها مليكة الأرض التي غادرتها. وكان جميع الحاضرين الآخرين مطّرحين أرضًا، منتحبين لفراق أطهر مخلوقةٍ عبرت بأرضنا. مثلما حدث يوم صعود يسوع، غلّفت الأنوار والسنى كلّ المكان. وحول فراش المتوفّاة، كان الرسُل والتلاميذ والنساء القدّيسات راكعين، خاشعين، مصلّين، منشدين، مازجين أسى الفراق بإجلال مختارة الثالوث.

وتقول الرائية إنّها رأت طغماتٍ من النفوس المطهريّة يُفرج عنها، وتواكب صعود نفس العذراء إلى السماء.

## جنازة العذراء

تتالى الرسُل على الصلاة أمام الجثمان المقدّس. فيما كان بطرس قد استهلّ، في حجرةٍ مجاورةٍ، صلوات الجنازة، التي كان الرسُل يتابعونها راكعين، والنسوة، في حجرةٍ أُخرى، ينشدنَ المراثي، وبعضهنّ عاكفاتٌ على إعداد الجثمان للدفن، منهنّ أُمّ مرقس، وابنة ڤـــيرونيكا. وقد اضطلعنَ بعملهنّ هذا بتجلّةٍ فائقةٍ، وبحرصٍ شديدٍ على عدم تعريض أيّ جزءٍ من ذلك الجسد الطاهر للتعرية. فكانت اثنتان منهنّ دائبتين على إبقاء غطاءٍ ممدودًا فوق الجثمان، فيما أُخرياتٌ منهمكاتٌ في غسله وتطييبه، ودهنه بالحنوط.

في هذه الأثناء اجتاز متّى وأندراوس درب الصليب، حيث كانت العذراء قد أعدّت، عند محطّته الأخيرة، مدفنًا لها، داخل مغارةٍ. وكانت تلك المغارة أضيق من قبر يسوع، وأوطأ، وبمشقّةٍ يستطيع رجلٌ الوقوف فيها. كانت تحتوي حفرةً تتسع لجثمان، محفورةً في صخرةٍ مائلةٍ يحتلّ مكان الرأس قمّتها. وأمام المغارة انبسطت حديقةٌ صغيرةٌ، تتصدّرها صخرةٌ حُفِر فيها رسم صليبٍ. وحرص الرسولان على تنظيف المدفن وعلى صنع بابٍ له.

أقام الرسُل الذبيحة الإلهيّة، ثمّ دخل بطرس ويوحنّا إلى حيث كان جثمان العذراء مسجّى، وغمس بطرس إبهامه في إناء زيتٍ مقدّسٍ كان يحمله يوحنّا، ودهن به جبينها ويديها وقدميها، وبعد انسحاب الرسولين أكملت النسوة تحنيط الجثمان، فوضعنَ باقات مرٍّ حول أعضائه، وضمَمْنَ يديها إلى صدرها، ولففنَ كلّ جسدها بكفنٍ، وأودعنَ فوق صدرها باقات زهورٍ بيضاء وحمراء وسماويّة، فبدا محيّاها الشفّاف مشعًّا، وسط الأعشاب العطرة المحيقة به. وحينئذٍ دخل الرسُل والتلاميذ بالتتالي، وألقوا نظرات وداعٍ على قسمات ذلك المحيّا الحبيب القدسيّ. وجثوا أمام الجثمان منتحبين. وإثر انسحابهم، ودّعتها النسوة، أيضًا، وأسبلنَ قناعًا على وجهها، ووضعنَها في نعشٍ بسيطٍ، وأغلقنَه، وأحطنَه بشرائط

رماديّةٍ. ثمّ حمله بطرس ويوحنّا إلى الخارج، حيث أقلّه ستّة رسُلٍ على أكتافهم، فيما كان أربعةٌ آخرون من حولهم يحملون المشاعل، ويتبعهم موكب النساء. واجتاز الموكب الجنائزيّ كلّ درب الآلام الذي كانت أُمّ الله قد أعدّته بنفسها، حتّى محطّته الأخيرة، حيث كانت قد أعدّت المغارة، مدفنًا لها. وأُدخل النعش، واحتلّ مكانه من المغارة، ثمّ تتالى جميع الحضور على الدخول، فردًا فردًا، والتخشّع أمامه، وغمره بالأزاهير العطرة، وتلاوة صلواتٍ مضمّخةٍ بالدموع. ومن جرّاء كثرة عددهم، كان الليل قد تقدّم، عندما أغلق الرسُل باب القبر، وغرسوا أمامه سورًا من الأشجار والنباتات المزهرة. وقد آثر بعضهم قضاء الليل على مقربةٍ من القبر، مصلّين. أمّا الذين عادوا، ساهمين، حزانى، فقد قُيِّض لهم، كلّما التفتوا نحو القبر، أن يشهدوا نورًا سماويًّا ينبعث منه، وغمامةً مضيئةً تنحدر من السماء على القبر، وتعود أشدّ سطوعًا وتألّقًا، وقد رأى بعضٌ منهم، في ثنايا النور جسد العذراء الطاهر، صاعدًا، ملتحقًا بنفسها، وبابنها الإلهيّ. ولبث بعض الساهرين عند القبر، شاخصي الأبصار إلى السماء، ولكأنّهم منخطفون، مأخوذون، بهذا المشهد البهيّ.

## وصول توما، وانتقال العذراء

مساء اليوم التالي، فيما كان رسُلٌ وتلاميذ ونساء يصلّون منتحبينَ في بيت العذراء، قرع البابَ الرسولُ توما، قادمًا بثياب السفر، برفقة تلميذٍ يُدعى يوناثان، يمتّ بصلات قربى إلى العيلة المقدّسة، ورفيقٍ آخر استصحبه من بلاد المجوس. يتميّز بالبساطة والطاعة، والتفاني في خدمة الرسول. ولكم صُعق توما ورفيقه، عندما فاجأهما نبأ وفاة أُمّ الربّ، قبل وصولهما. واستمع الرسول إلى تفاصيل تلك الوفاة، فانخرط في نحيبٍ يحاكي نحيب الأطفال. وبعد أن غُسلت قدماه، وقدما رفيقه، انسحبت النساء من غرفة العذراء، وأُدخل إليها توما ورفيقه، فركعا أمام فراشها الخالي، وبلّلاه بدموعهما. وتمادت صلاة توما بقدر ما كان حزنه عميقًا وموجعًا.

وكان الرسُل والتلاميذ، في هذه الأثناء، قد واصلوا صلواتهم، ولّما فرغوا منها، أقبلوا على القادمين، فأهضوهما، وأشبعوهما تقبيلاً وترحيبًا، ثمّ مضوا بهما إلى حجرة البيت الأماميّة حيث قدّموا لهما طعامًا، ثمّ اشتركوا في صلاةٍ جماعيّةٍ.

واستحوذت على توما رغبةٌ ضاغطةٌ في زيارة مدفن أُمّ ربّه، في الحال، فرافقته ثلّةٌ من الرسُل والتلاميذ حاملين المشاعل، وانطلقوا خاشعين، صامتين، متوقّفين لحظاتٍ، عند مراحل درب الآلام، شاكرين وممجّدين رحمة المخلّص وحبّه، ومقدّسين عطف أُمّه التي حرصت على إقامة ذلك الموقع التذكاريّ. وأخيرًا جثوا عند السياج المقام أمام باب القبر. ثمّ دخل توما ورفيقه، وركعا بتجلّةٍ ورعدةٍ، أمام نعش أُمّ الله، فاستنار المكان، وسرعان ما لحق بهما الرسول يوحنّا، ففكّ أربطة النعش، ورفع غطاءه، فتبيّن مذهولاً، أنّ الجثمان الطاهر قد فرّ من أكفانه التي ما برحت راسمةً شكله، وهجر أرض البشر إلى مسكنه الأبدي. وتلقائيًّا رفع الحاضرون داخل القبر أبصارهم صوب السماء، وكأنّهم يتقرّون آثار المرتحلة، إلى موطن خلودها إلى جانب ابنها وإلهها. وهتف يوحنّا: "لم تعدْ هنا! تعالوا وانظروا!"، فتقاطروا إلى القبر، اثنين اثنين، وعاينوا، بذهولٍ الأكفان الفارغة، وكانوا يخرجون، ويركعون، ويذرّفون دموعًا سخيّةً، رافعين الأيدي إلى العلاء، ممجّدين الربّ وأُمّه، أُمّهم الحنون الرقيقة، ومسبّحينها بأرقّ وأعذب عبارات الحبّ البنويّ التي كان يوحيها إليهم الروح. وتذكّر بعضهم الغمامة النيّرة التي رأوها بالأمس تطوف بين القبر والسماء.

لملم يوحنّا بإجلالٍ الأكفان وطواها، وعاد بها، مع الآخرين، بعد أن موّهوا مدخل المغارة بأغصانٍ وأشجارٍ، ورجعوا إلى بيت العذراء، عبر درب الآلام منشدين ممجّدين. ووضع يوحنّا الأكفان فوق الهيكل الذي كانت العذراء تصلّي أمامه، وتخشّعوا جميعهم حيث كانت قد لفظت نفسها الأخير، فيما انتحى بطرس جانبًا، واستغرق في التأمّل، تأهّبًا للاحتفال بالقدّاس.

## الرسُل يحيون ذكرى أُمّ الله ويفترقون

عقب وفاة العذراء، غدا الرسُل والتلاميذ يلتقون غالبًا، ويتحلّقون، ويتبادلون خبراتهم الرسوليّة، ويتجاذبون الأحاديث عمّا جرى لكلٍّ منهم في ميدان رسالته.

وبعد أن أدّوا طقوس التكريم اللائقة بأُمّ ربّهم، وأُمّهم، آلوا على ذواتهم تزيين درب الآلام الذي نظّمته في جوار بيتها، فحرّروه من الأحجار والأشواك، والأعشاب الجافّة، وغرسوا فيه شجيراتٍ ونباتاتٍ جميلةً وأزهارًا، وكانوا يضطلعون بهذه المهمّة، وهم ينشدون، وكأنّهم يحتفلون بطقسٍ مقدّسٍ، طقس حدادٍ وحبٍّ عذبٍ ومؤثّرٍ، احتفال أبناءٍ يزيّنون مواطئ أقدامهم أُمّهم الحبيبة.

وحرصوا على سدّ مدخل مدفن العذراء سدًّا محكمًا، وجمّلوا الحديقة المنبسطة أمام القبر، وعبّدوا طريقًا جديدًا حول قمّة التلّة، يفضي إلى جانب القبر الخلفيّ، حيث أحدثوا فجوةً في الصخر، يمكن، من خلالها، رؤية المكان الذي كان جثمان أُمّ الله قد سُجّي فيه مؤقّتًا. وأشادوا فوق المغارة كنيسةً صغيرةً، على شكل خيمةٍ، أقاموا في وسطها هيكلاً من ثلاثة أحجارٍ، أحدها قام مقام أساسٍ، وانتصب الثاني فوقه عموديًّا، وأُثبت فوقه حجرٌ مستطيلٌ مسطّحٌ، بمثابة هيكلٍ. وخلف الهيكل أسبلوا بساطًا نُقشت عليه صورةٌ للعذراء، موشّاةٌ بألوان البنّيّ والأزرق والأحمر.

وحُوّل البيت الذي كانت تقيم فيه العذراء إلى كنيسةٍ، غير أنّ خادمة مريم ظلّت تقيم فيه، مع نساءٍ أُخرياتٍ برهةً من الزمن. وكُلّف تلميذان بتوفير الخدمات الروحيّة للمؤمنين القاطنين في تلك البقعة.

ثمّ تفرّق الرسُل مجدّدًا، وعقب وداعٍ مؤثّرٍ، انطلق كلٌّ منهم إلى ميدان رسالته. وتلبّث يوحنّا وحدَه في أفسس فترةً، عاكفًا على تنفيذ وصيّتها، موزّعًا أشياءها وفق رغبتها. ولكنّه أهدى ثيابها التي ارتدتها مرّةً واحدةً، في مناسباتٍ فريدةٍ عزيزةٍ، لكنيسة فلسطين، وقصّ بعضًا منها أجزاءً صغيرةً كي تكون ذخائر ثمينةً للأجيال المسيحيّة القادمة.

وعادت أُمّ مرقس إلى فلسطين، حيث أسّست جماعةً من نحو عشرين امرأةً يمارسنَ حياةً شبه نسكيّةٍ. وأَلِف الرسُل والتلاميذ التلاقي في مركز تلك الجماعة. وكان كلّ شيءٍ، حتّئذٍ، يتمّ في صمتٍ وهدوءٍ.

## اضطهاداتٌ وشهداء

إثر وفاة العذراء، والهدوء النّسبيّ الذي كان سائدًا حتّئذٍ، نشبت الاضطهادات بالمسيحيّين. وكان من أوائل شهداء يسوع، قريبه، يعقوب "الصغير"، المدعوّ "أخا الربّ"، والذي كان يتبوّأ مركز أُسقف أورشليم. فقد جرّوه إلى محكمة اليهود، على امتداد سبعة أيّامٍ متتاليةٍ، وفي كلّ مرّةٍ كان يُسام تعذيبًا وحشيًّا. وفي آخر المطاف ألقوه من أعلى سطح الهيكل، وأجهزوا عليه رجمًا، وضربًا بالهراوات.

وصُلب أندراوس، لدى عودته من أخائية. وظلّ معلّقًا على الصليب يومين وليلتيْن. لم يكفّ، أثناءهما عن التبشير بيسوع، إلى أن نشبت ثورةٌ شعبيّةٌ، طالبت بإطلاق سراحه، إذ إنّ فئةً واسعةً من الشعب كانت شديدة التعلّق به. ونجم عن تراصّ المطالبين بإنقاذه ازدحامٌ من الشدّة بحيث اختنق عديدون، فسأل الرسول الله الإسراع في استعادة روحه.

أمّا برتلماوس، فكان، أثناء تبشيره في الحبشة، قد أقنع الملك "پـــوليميوس" (Polymius) باعتناق الدين المسيحيّ، في حين أبى شقيقه، "أستياج" (Astyage) حذو حذوه. ولّما عاد الرسول من أفسس، إثر وفاة السيّدة العذراء، شكاه كهنة الأوثان إلى الملك "أستياج"، مدّعين أنّه يعيث في البلاد فسادًا، فاستدعاه الملك المذكور، وقال له: "لقد أغويت أخي، وجعلته يعبد ربّك. وأنا سأعلّمك تقديم الأضاحي لآلهتي!". فأجابه برتلماوس: "إنّ الله الذي منحني سلطة فضح إبليس أمام أخيك، وإعادته إلى الجحيم خاسئًا، سيمنحني، أيضًا، قدرة تحطيم أصنامك، وإكراهك على انتهاج السراط القويم!". وفي تلك اللحظة عينها، مثل رسولٌ بين يدي الملك، زافًّا نبأ تحطّم صنمه بضربةٍ صاعقةٍ. فاستشاط الملك غيظًا، ومزّق

ثيابه، وأمر بجلد الرسول. فقيّدوه إلى شجرةٍ، وسلخوه حيًّا، ووضعوا جلده بين يديه، ومع ذلك لم يتوقّف عن التبشير إلى أن طعنوا حنجرته بسكّينٍ. ولّما لقي حتفه، تُرِك جثمانه طعامًا للكواسر. غير أنّ الملك "پــوليميوس"، جاء، ليلاً، بموكبٍ حافلٍ، وأنزله عن الصليب تمهيدًا لدفنه. أمّا الملك "أستياج"، وكهنة الأوثان، فقد اعتراهم هياجٌ جنونيٌّ، فتراكضوا نحو قبر الرسول متوسّلين عونه. واعتنق "أستياج" الدين المسيحيّ، أمّا كهنته فماتوا شرّ ميتةٍ.

وما لبث أن تردّى ذلك الملك إلى هوّة الإملاق، فلاذ بكنيسةٍ، واتّفق أن كانت قد سبقته إلى تلك الكنيسة سيّدةٌ مسيحيّةٌ ثريّةٌ، نذرت التبرّع بقسطٍ من ثروتها لأوّل من يأتي إلى الكنيسة بعدها. وهكذا أنقذته العناية الإلهيّة من العوَز.

أمّا تدّاوس، فبعد مشاركته في جنازة العذراء، عاد إلى بلاد فارس، حيث التقى أخاه سمعان القادم من بلادٍ نائيةٍ. وتعرّضا، كلاهما، لطائفةٍ من الأحداث، بعضُها سارٌّ، وبعضها مؤسٍ. ودعيا، ذات يومٍ إلى مجلسٍ كرّمه الملك بحضوره. وبغتةً، انتفض كهنة الأصنام على الرسولين، وأطلقوا نحوهما ثعابين بحجم الذراع، غير أنّ الثعابين ارتدّت على مطلقيها، انطلاق سهامٍ، والتفّت حول أجسادهم، وأوسعتهم لدغًا، وكادت تقضي عليهم، لو لم يأمرها الرسولان بالارتداد عنهم... وإزاء هذا الحدث اعتنق الملك، والعديد من سكّان المدينة الدين المسيحيّ.

ثم انتقل الرسولان الأخوان إلى مدينةٍ أُخرى، حيث استضافهما رجلٌ مسيحيٌّ. ولكن سرعان ما هبّت ثورةٌ شعبيّةٌ عليهما. فاقتيدا إلى معبدٍ وثنيٍّ، حيث كانت أصنامٌ من ذهبٍ وفضّةٍ جاثمةً على عربةٍ تحرّكها عجلاتٌ. وكان المعبد والفناء المحيق به غاصّين بالقوم. وبغتةً تحطّمت الأصنام، وانهار جزء من المعبد، فانقضّ كهنة الوثن، وجموع الشعب على الرسولين اللذين لم يظهرا مقاومةً، وانهالت عليهما الضربات بكلّ أصناف الأسلحة والأدوات، وشجّت فأسٌ رأس أحد الأخوين، وفاضت دماء استشهادهما.

مرقس كان من أوائل تلاميذ الربّ، وتميّز بنشاطه وبراعته، ولطالما واكب بطرس حتّى إلى روما، وكتب إنجيله تحت إشراف بطرس، مع أنّه كان شاهد عيانٍ على معظم الأحداث التي رواها وسردها. وأثناء وجوده في روما تفشّى في المدينة وباء الطاعون، فأوصى الكنيسة بإقامة درب صليبٍ على نسق ذاك الذي أقامته العذراء في أفسس، قوامه إثنا عشر حجرًا، دوّن على كلٍّ منها إحدى مراحل آلام المخلّص. وشرع المسيحيّون يجتازون من مرحلةٍ إلى أُخرى، منشدين الصلوات. ونجا من الطاعون كلّ من أدّى هذا الطقس المقدّس، وانتقلت عدوى هذه الممارسة إلى العديد من الوثنيّين، وكانت توفّر لهم الشفاء والنجاة.

وبشّر مرقس بالإنجيل في كلّ الأماكن التي وطئها يسوع وأُمّه ويوسف في مصر، بدءًا بالإسكندريّة. وفي تلك المدينة تشقّق حذاؤه، فكلّف إسكافيًّا بإصلاحه. وفيما كان الإسكافيّ عاكفًا على هذه المهمّة، جرح يده جرحًا بليغًا، فجبل مرقس حفنة ترابٍ بلعابه، وطلى بهذا المزيج الجرح، فبرئ في الحال. واعتنق الإسكافيّ دين المسيح، واستضاف مرقس في بيته الفسيح. ولاحقًا تزعّم الجماعة المسيحيّة في الإسكندريّة، وأصبح ثلاثةٌ من أبنائه العشرة كهنةً.

وبشّر مرقس، أيضًا، في هيليوپـــوليس، حيث حوّل إلى كنيسةٍ مكان صلاة العيلة المقدّسة، أثناء منفاها المصريّ. وبفضل تبشير مرقس اعتنق الدين المسيحيّ العديد من اليهود الذين كانوا، هناك، يسوقون حياةً شبه نسكيّةٍ. وكانوا البذار الذي انبثقت منه الحركة النسكيّة التي ازدهرت في مصر.

وسُجن مرقس، وفي سجنه قُتِل خنقًا، ثمّ نُقِل جثمانه إلى البندقيّة.

ذوو القدّيس لوقا كانوا يقيمون في أنطاكية. وهو كان نشيطًا، بارعًا، ودودًا، دمث الأخلاق، تعلّم الطبّ والرسم في بلاد اليونان، ولم يلتقِ يسوع، أثناء حياته الأرضيّة، غير أنّه تعمّد، مثله، على يد المعمدان، وتأثّر بأقوال سابق الربّ. وكانت

ممارسة مهنة الطبّ تقتضي منه التنقّل المستمرّ من مكانٍ إلى آخر، فلم تتسنَّ له مواكبه التلاميذ. وكانت رغبته في الاستبحار بالعلم متّقدةً، ملحّةً عليه، لا تفسح له هدنةً. أمّا إيمانه فظلّ هشًّا، مترجرجًا، حتّى أماط له يسوع القائم من الموت اللثام عن حقيقة هويّته، في نزل عمّاوس المتواضع. وبعدئذٍ قضى وقتًا طويلاً مع الرسول يوحنّا في أفسس، واختلف إلى بيت العذراء، هناك. ثمّ التقى بولس، في موطنه، أنطاكية، ولازمه في أسفاره، طبيبًا وأمين سرٍّ. وكان بولس ربع القامة، متين البنية، يطغى لون السمار على بشرته، وكلّ ما فيه يوحي بالعزيمة، وقوّة الشكيمة، ولكن بعيدًا عن التعنّت. ولكنّه، إثر وقوعه أسير حبّ يسوع، اتّسم سلوكه بالرقّة والعذوبة، المقترنين بالتقشّف، والغيرة والاندفاع.

وقد دوّن لوقا إنجيله، تلبية لرغبة بولس، في السنة الخامسة والعشرين لصعود الربّ، بعد أن شاعت أخبارٌ مختلَقةٌ عن يسوع الناصريّ. وبعد أن توغّل هو، في التحقُّق من كلّ أمرٍ، لدى شهود العيان، وزياراته الشخصيّة للأماكن التي أجرى فيها المخلّص معجزاته، واستيضاحه عن سياقها وظروفها. وتلافيًا للإسهاب لم يذكر كلّ عجائب يسوع، واقتصر على إيراد نماذج منها، مغفلاً كثيراتٍ مماثلاتٍ لها. ولاحقًا تولّى لوقا منصب الأُسقفيّة، واستُشهد في طيبا.

أمّا الرسول توما، فبعد أن عمّد ملوك المجوس، يمّم شطر التيبت والصين، وتخوم روسيّا، ومن هناك عاد كي يشارك في جنازة العذراء. ثمّ مضى من فلسطين إلى إيطاليا، واجتاز أجزاءً من ألمانيا وفرنسا، وانتهى إلى الحبشة حيث بشّر، ثم انتقل إلى الهند، حيث سُجِن، وأنقذه ملاكٌ من سجنه. وعاد إلى الصين، وإلى القسم الآسيوي من روسيّا، ومنه وافى إلى القسم الشماليّ من اليابان. وكان راغبًا في المكوث في تلك البلاد، وتبشير سكّانها، غير أنّ إيحاءاتٍ علويّةً كانت تلحّ عليه بالشخوص إلى الهند، حيث سيشيد صروحًا فخمةً، رائعةً. وبما أنّه لم تكن له أيّة معرفةٍ بشؤون الهندسة والبناء، فقد ساورته الشكوك في صحّة تلك الإيحاءات.

ولكنّ هذه الإيحاءات لم تفارقه، بل أمست أوفر وضوحًا، وبيّنت له أنّ الصروح التي كان يراها، إنّما كانت الارتدادات الغفيرة إلى دين يسوع، والنفوس التي لا يحيط بها حصرٌ، التي سيقتادها إلى الله. واستشار في الأمر بطرس، الذي دفعه في هذا الاتجاه، فأتى جزيرة "سكوكوتورا"، حيث بشّر.

وفي المدينة الهنديّة الثانية التي توقّف فيها الرسول توما، كان القوم مقبلين على الاحتفال بعيدٍ كبيرٍ. فبشّر وأجرى أشفيةً عجيبةً. واستمع إلى تبشيره الملك وبلاطه. وكان عدد الذين اعتنقوا الدين المسيحيّ من الجسامة بحيث تميّز غيظًا كاهنٌ وثنيٌّ، ولطم الرسول بعنفٍ، فيما كان يعظ. وبرقّةٍ ملائكيّةٍ، أمال اله الرسول خدّه الثاني، فأكبر الملك والشعب الحاضر موقفه، ورأوا فيه قدّيسًا حقًّا. وتاب الكاهن الذي صفعه، والتمس الاعتماد. وكان البرص قد غشى يده التي صفع بها الرسول، فأبرأها توما، وانقلب ذلك الكاهن من أوفى تلاميذ الرسول توما، وأشدّهم غيرةً.

وكان للملك صهرٌ تسكنه الأبالسة، فحرّره الرسول توما، واعتنق الصهر وزوجته، ابنة الملك، الدين المسيحيّ. وبعد أن أنجبا ولدًا، نذرا كلاهما العفّة، ووزّعا كلّ ممتلكاتهما على الفقراء، فأثارا غيظ الملك الذي اتّهم توما بممارسة السحر. غير أنّ ابنته وزوجها لم ينثنيا عن عزمهما، ونشرا تعاليم الربّ مثلما تلقّياها، واجتذبا إلى دين يسوع أعدادًا غفيرةً من قومهما. وأخيرًا، استسلم الملك نفسه لروح الربّ، فأوفد رسلاً يستدعون توما الذي كان قد غادر المدينة، وتعمّد الملك على يده مع رهطٍ غفيرٍ من شعبه. ثمّ أصبح شمّاسًا إنجيليًّا، وأشاد أحد أبنائه كنيسةً.

وخطر للرسول توما مغادرة الهند، إثر اصطدامه بغلاظة رقاب العديد من أفراد شعبها. ولكنّ يسوع ظهر له، وأمره بالتوغّل داخل الهند، واعدًا بمواكبته، وبتحقيق العظائم بواسطته.

وحلّ توما في مدينةٍ كان ملكها مقبلاً على بناء قصرٍ، وقد سخّر الأهالي للعمل في بنائه، بلا مقابلٍ، ولا أجرٍ، وكان معظم أولئك العمّال المسخّرين يرزحون تحت وقر القهر والعَوَز. وبما أنّ الرسول كان، خلال عظاته، يستخدم أمثلةً مستقاةً من ميدان البناء، فقد استشفّ فيه الملك مهندسًا بارعًا، وأوكل إليه بناء قصره، وزوّده بمبالغ طائلةٍ من المال، وسافر. وواصل الرسول التبشير، مغدقًا الأجور السخيّة على العمّال الذين كانوا يكادون ينفقون جوعًا. ولما اعتلّ الملك، رغب في معرفة ما انتهى إليه بناء قصره، فأُبلغ أنّ الغريب الذي أوكل إليه المال لهذا الغرض قد أنفقه على الفقراء، وأنّه أشدّ اهتمامًا بالتبشير والتعميد من اهتمامه ببناء القصر. فاستدعى الملكُ الرسولَ، وأنّبه بقسوةٍ. وردّ توما بأنّه، في الحقيقة، أشاد له قصرًا رائعًا، ولكن ليس بوسع الملك رؤيته، لأنّه أعمى. فطلب منه الملك أن يمسّ عينيه، ويشفيهما حينئذٍ أوضح له توما أنّ عماه هو عمًى روحيٌّ، وأنّه، إن وافق على تنفيذ ما يطلبه منه، فسيرى الصرح الرائع الذي بناه. وحينئذٍ صوّر الرسول للملك الكنيسة وتعاليم يسوع، على أنّها قصرٌ رائعٌ، وأشار إليه بالنهوض، فنهض وقد استعاد قواه وعافيته، ورافقه إلى موقع البناء، حيث كان جذع شجرةٍ ضخمٌ أودعه البحر على الشاطئ، وفشلت جمالٌ عديدةٌ في زحزحته عن مكانه. وطلب توما من الملك أن يهبه هذا الجذع كي يبني به كنيسته، إن هو استطاع جرّه بمفرده. ووافق الملك، فلفّ توما الجذع بحزامه، وجرّه إلى حيث كان يعتزم بناء كنيسته. وقد أسهم هذا الحدث في ارتداد جموعٍ غفيرةٍ، وطلب الملك وكثيرون من أفراد الرعيّة العمادَ. وقُيّض للملك أن يشهد العظائم المتعدّدة التي أُجريت على يد الرسول، بشكل صرحٍ مهيبٍ.

وانتقل الرسول إلى مدينةٍ أُخرى، بناءً على توجيه الربّ، وأجرى فيها العديد من المعجزات، والارتدادات. بيد أنّ تعليمه لم يرُقْ لمن كانت زوجاتهم تزهدنَ في متاع الدنيا وبهارجها، وتعتنقنَ تعاليم يسوع، وتحيَيْن وفقًا لها. وقد ضمّت هذه

الفئة من المرتدّين عددًا وفيرًا من أفراد الأُسرة المالكة نفسها. فاستدعى الملكُ الرسولَ، وأمره بإثبات صحّة تعاليمه، ودعم إلهه لهذه التعاليم. وامتحانًا له وضع أمامه قضبانًا حديديّةً كانت قد حُمِّيت حتى أضحت قضبانًا ناريّةً، وسار الرسول فوقها، بأقدامه الحافية التي لم تُصَبْ بأذًى. وفي مكان القضبان تفجّر نبع ماءٍ. وحينئذٍ روى توما، على مسامع الملك وحاشيته، ما اعتاد أن يرويه في كلّ مكانٍ، أنّه رغم مشاهدته معجزات يسوع على امتداد ثلاث سنواتٍ، لم تزايله الشكوك، إلى أن وطّدت قيامة المخلّص، من الموت، إيمانه. ولذلك كُلِّف بتبليغ الحقيقة لمن تراودهم الشكوك. ومع ذلك، أمر الملك باقتياده إلى حجرةٍ مليئةٍ ببخارٍ حارقٍ، كي يختنق فيها، ولكنّ الهواء في تلك الحجرة ظلّ مصقّعًا، رغم محاولات تسخينه.

وأخيرًا أكرهه الملك على تقديم الأضاحي لأصنامه. فأجابه توما: "سأفعل ذلك، ما لم يحطّم ربّي يسوع أصنامكم!..." وانطلق موكب الملك مع توما إلى المعبد، على وقع الأبواق والطبول. وفي المعبد، كان صنمٌ ذهبيٌّ فوق عربةٍ، وأصنامٌ أُخرى. وصلّى توما، فانقضّت صاعقةٌ على الصنم وأذابته، وتحطّمت الأصنام الأُخرى. وثارت ثائرة الكهنة والشعب، واضطرّ الملك إلى زجّ الرسول في السجن.

ومثلما أطلق ملاكٌ بطرس من سجنه، أطلق ملاكٌ سراح توما من سجنه، فمضى إلى جزيرةٍ حيث مكث طويلاً. وذات يومٍ، إذ كان مع مرافقيه في عرض البحر، هبّت عاصفةٌ. وشوهد مركبٌ يابانيٌّ، كان قد اصطدم بجرفٍ رمليٍّ، وامتلأ ماءً. وأشرف على الغرق. فأهاب الرسول ببحّارته أن يهرعوا لإنقاذه. ولكنّهم أحجموا، متوجّسين المخاطر، فقال لهم توما: "إذا عزمتم بصدقٍ على إنقاذ هؤلاء القوم، فإنّ سيّدي، الذي رأيته، مرّاتٍ عديدةً، يأمر الأمواج فتسكن، سيقودنا بأمانٍ". فتشجّع البحّارة، واستجابوا لرغبته، واستغرق توما في الصلاة، ثمّ أمر الأمواج باسم يسوع، فسكنت العاصفة، ووصل توما ورفاقه إلى المركب المهدَّد، وعملوا جاهدين على إفراغه من حمولته، ومن الماء، وانتشلوه من الرمل. وحينئذٍ

توسّل قبطان المركب اليابانيّ، الذي كان قد سمع الكثير عن دين توما، ومحبّته، ومعجزاته. أن يستصحبه إلى اليابان. ولم يرُق الأمر لرفاق الرسول. غير أنّ القبطان اليابانيّ قطع لهم عهدًا بإعادته. فأوكل الرسول لثلّةٍ من تلاميذه مهمّة مواصلة رسالته، وانطلق إلى اليابان حيث مكث ستّة أشهرٍ. وقبل عودته، حفر، على صخرةٍ، نبوءةً بحروفٍ جسيمةٍ، يعني كلّ حرفٍ منها كلمةً كاملةً، ضمّنها ملخّص العقيدة المسيحيّة، وتوقّع اندثار التعاليم التي نشرها هناك، وألاّ يبقى منها سوى آثارٍ باهتةٍ، وسيأتي من يحاول إعادة إحيائها، ولكنّها لن تلبث أن تزول زوالاً تامًّا، وأن يوصد اليابانيّون أبواب بلادهم في وجه الغرباء. بيد أنّ قومًا نصف مسيحيّين سيتمكّنون من دخول البلاد، وبعث مظاهر مسيحيّةٍ، ويُبشّرون، للمرّة الثالثة، بالعقيدة المسيحيّة. غير أنّ زلزالاً قد أطاح بالصخرة وبالنبوءة التي حُفِرت عليها، والتي كان توما قد توّجها بالصليب.

وأعاد القبطان اليابانيّ الرسول إلى الجزيرة التي كان قد أخذه منها، فاستعاد توما التبشير، وهدى عددًا غفيرًا من أفراد الأسرة الملكيّة إلى دين يسوع، ولكنّه، بذلك، سعّر نقمة كهنة الوثن عليه. وقد طلب منه أحدهم أن يشفي ابنه المعتلّ، ولكن قبل أن يلبّي طلبه، خنق الكاهن ابنه العليل، واتّهم الرسول بقتله. فطالب الرسول أن يُؤتى بجثمان الشابّ، وأمره، باسم يسوع، أن يقرّ باسم من قتله. فاستقام الميت وأعلن: "إنّه والدي!". وكان هذا الحدث سببًا لارتداد كثيرين.

وكان الرسول قد أَلِف الصلاة، عند أطراف الجزيرة، على مسافةٍ شاسعةٍ من البحر، راكعًا فوق صخرةٍ. وتنبّأ أنّ، في اليوم الذي يمتدّ الموج إلى ذلك المكان البعيد عن البحر، ويلامس تلك الصخرة، سيأتي غريبٌ من بعيدٍ، ويبشّر بإنجيل يسوع. ومع أنّ إمكانيّة وصول أمواج البحر إلى ذلك المكان كانت مستبعدَةً، فقد ترجّل فرنسوا كزافييه، عند تلك الصخرة، بعد خمسة عشر قرنًا، ونصب فوقها صليبًا.

وفيما كان توما، ذات يومٍ، في حالة انخطافٍ، يصلّي راكعًا، فوق تلك الصخرة، انقضّ عليه كهنة الوثن، وطعنوه بحربةٍ في ظهره. ثمّ نُقِل جثمانه إلى مدينة الرها. وكانت، على مقربةٍ، من مكان اغتياله شجرة زيتونٍ ارتوت بدمه، فغدت ترشح زيتًا، في ذكرى مقتله، من كلّ عامٍ. وفي السنوات النادرة التي لم يكن يرشح منها زيتٌ، كان الأهالي يتوقّعون أحداثًا مشؤومةً. وقد جهد عبدة الأصنام في اقتلاع تلك الشجرة، ولكنّها كانت تُنبِت، كلّ مرّةٍ، فروعًا جديدةً.

وكان الرسول توما، يوم وفاته، قد بلغ الثالثة والتسعين. وكان شديد النحافة.

في هذه الأثناء كان الرسول يوحنّا يدير كنائس آسيا. وفي السنة الثالثة التي سبقت وفاته، اعتزم تدوين إنجيله، وغدا يختلف إلى مكانٍ منعزلٍ في مدينة "قيدار"، حيث يعتكف وحيدًا، تحت فيء شجرةٍ وارفةٍ، كانت تقيه من الشمس ومن الأنواء، وحتّى من الأمطار التي تغرق الجوار ولا تمسُّه ببلَلٍ. ولم يكن يرافقه هناك أحدٌ، بل كان تلاميذه يأتونه بالطعام والماء، واحتياجات الكتابة، ويدعونه لمهمّته، وحيدًا.

وبما أنّ الرسول توما كان قد سام العديد من الأساقفة في ديار العرب وفي بلاد المجوس، وكان هؤلاء الأساقفة يواجهون مشاقّ عويصةً في مهمّاتهم، إذ كانت عبادة الأوثان لا تني تتغلّب وتطيح بجهودهم، فاستغاثوا بيوحنّا الذي أوفد لهم الأخوين مكاريوس وكايُس، اللذين ما لبثا أن التمسا من الرسول أن يخفّ لمساعدتهما، فلبّى ملتمسهما رغم شيخوخته ووهنه. وتقاطر جميع أساقفة تلك المناطق إلى حيث كان يوحنّا مع الأخوين، فطالبوه بتدوين كلّ ما فعله وقال الربّ على الأرض. فصارحهم بأنّه دوّن سيرة المخلّص، وكشف النقاب عن ألوهته بقدر ما تتّسع كلمات الأرض لهذا الكشف، معترفًا أنّه، أثناء كتابته، كان يستحوذ عليه شعورٌ بأنّه في السماء. ومن هناك غادر يوحنّا إلى أورشليم، فإلى روما، ثمّ عاد إلى أفسس.

كان قد طعن في السنّ، بيد أنّ محيّاه احتفظ ببهائه وعذوبته. وكان الربّ يظهر له بتواترٍ في أيّامه الأخيرة، وينبئه بدنوّ أجله. وكان هو، في تلك الآونة، يُكثر من

الاحتفال بالإفخارستيّا. وذات يومٍ تحلّق تلاميذه من حوله، فعلّمهم في فيء شجرةٍ، ثمّ قصد، برفقة اثنين منهم، إلى حرجٍ رائعٍ، خلف تلّةٍ مطلّةٍ على البحر، وأراهم قبرًا في مرحلة إعداده النهائيّة، ورجاهما أن يُكملا إعداده، وعاد إلى تلاميذه الآخرين، وأدلى بتعاليمه ووصاياه الأخيرة بعذوبةٍ ملائكيّةٍ، وأوصاهم أن يحبّوا بعضهم بعضًا، فاعتراهم شعورٌ بأنّه يودّعهم الوداع الأخير، فارتموا عند أقدامه مذرّفين الدموع. فصلّى معهم، وباركهم، ومضى مع خمسةٍ منهم إلى القبر، حيث صلّى، برهةً، عند حافّته، ثمّ بسط معطفه فيه، ورقد فوقه. وفيما كان يتلو صلاته الأخيرة أشعّ نورٌ ساطعٌ فوقه، وحينئذٍ لفظ أنفاسه الأخيرة، وانطلقت نفسه الطاهرة، في ثنايا غمامةٍ نيّرةٍ، نحو من أخذ حبُّه بكلّ أوتار كيانه. وانخرط تلاميذه في انتحابٍ مفجوعٍ، حول جثمانه، قبل أن يسبلوا فوقه غطاءً.

وعن المجدليّة تقول "كاتارينا" إنّها رأتها في السماء تتبوّأ موقعًا رفيعًا. أمّا على الأرض فكانت مديدة القامة، فاتنة الجمال، ولو لم ترتدّ إلى يسوع، لأمست وحشًا بشريًّا.

# الفهرس

## الفصل الرابع

**الآلام ........................................ ٧**

عشاءٌ أخيرٌ في بيت عنيا ........................................ ٨

العلّيّة ........................................ ١١

العشاء الأخير ........................................ ١٣

غسل الأرجل ........................................ ١٥

تأسيس الإفخارستيّا ........................................ ١٧

## الفصل الخامس

**الآلام الخلاصيّة ........................................ ٢١**

على جبل الزيتون ........................................ ٢٢

رؤى جرائمنا: النزاع الأوّل ........................................ ٢٣

النزاع الثاني ........................................ ٢٧

يهوذا وعصابته ........................................ ٣٦

توقيف يسوع ........................................ ٣٩

حراكٌ وجلبةٌ في أورشليم ........................................ ٤٤

يسوع أمام حنّان ........................................ ٤٦

يسوع أمام قيافا ........................................ ٤٨

إنكار بطرس ........................................ ٥٣

العذراء في بيت قيافا ........................................ ٥٥

يسوع في السجن ........................................ ٥٧

المحكمة الصباحيّة ........................................ ٥٨

قنوط يهوذا ..... ٦٠
يسوع أمام بيلاطس ..... ٦١
بيلاطس وزوجته..... ٦٧
يسوع أمام هيرودس ..... ٦٩
عودة إلى بيلاطس ..... ٧٢
إكليل الشوك ..... ٧٩
هذا هو الرجل..... ٨٠
الحكم على يسوع بالصلب ..... ٨٣
يسوع يحمل صليبه..... ٨٧
سقطات يسوع تحت الصليب..... ٨٩
ڤيرونيكا ..... ٩١
سقوط يسوع الرابع ..... ٩٣
درب الصليب..... ٩٥
مريم ومرافقاتها في الجلجلة ..... ٩٦
تعرية يسوع وتعليقه على الصليب ..... ٩٨
رفع الصليب ..... ١٠١
أقوال يسوع على الصليب..... ١٠٥
قول يسوع الرابع على الصليب..... ١٠٧
أقوال المصلوب الأخيرة، وموته ..... ١١١
اهتزاز الأرض . وظهور أموات في أورشليم..... ١١٣
يوسف الأريماثيّ يطلب من بيلاطس استلام جثمان يسوع ..... ١١٥
إنزال المخلّص عن الصليب وتحنيطه ..... ١١٧
أحداث متّصلة بالصلب ..... ١٢٣
حراسة القبر ..... ١٢٤

الفصل السادس

حياة يسوع المجيدة، بعد قيامته ..... ١٢٧
نجاة يوسف الأريماثيّ..... ١٢٨
ليلة القيامة، وظهور يسوع لأُمّه..... ١٢٨
رؤيا القيامة ..... ١٣٠
النساء القدّيسات عند قبر الربّ..... ١٣١
أشخاص على صلة بالأحداث..... ١٣٧

الفصل السابع

بعد القيامة ..... ١٣٩
الإفخارستيا الأولى ..... ١٤٠
احتفال الرسُل بإثنين الفصح، وظهور يسوع لتلميذي عمّاوس ..... ١٤١
حملةٌ تبشيريّةٌ ..... ١٤٤
يسوع يظهر لتوما، ويقيم بطرس رئيسًا للرسل..... ١٤٧
الصيد العجيب ..... ١٤٩
ظهورٌ آخر علنيٌّ ..... ١٥١
تجمّعٌ في بيت عنيا ..... ١٥٢
العذراء، أمّ الكنيسة، تتناول من يد بطرس. ..... ١٥٣
الجماعة المسيحيّة تنمو ..... ١٥٤
يسوع يُعِدّ أصدقاءه للفراق..... ١٥٥
صعود الربّ..... ١٥٨

الفصل الثامن

تأسيس الكنيسة برعاية العذراء الأُموميّة..... ١٦١
تأهّبٌ للعنصرة ..... ١٦٢

يوم العنصرة المقدّس ..... ١٦٣
كنيسة بيت حسدا ..... ١٦٦
عماداتٌ ورساماتٌ جديدةٌ ..... ١٦٨
اختيار سبعة شمامسةٍ، وبدء الاضطهادات ..... ١٦٩
الجماعة المسيحيّة الأولى تتعرّض للاضطهاد. ..... ١٧٢
إقامة العذراء في أفسُس ..... ١٧٥
انتشار الرسُل ..... ١٧٦
رسلٌ يواصلون رسالتهم ..... ١٨٣
زيارة العذراء الأخيرة إلى أورشليم ..... ١٨٤
أيام العذراء الأخيرة ..... ١٨٥
جنازة العذراء ..... ١٨٩
وصول توما، وانتقال العذراء ..... ١٩٠
الرسُل يحيون ذكرى أُمّ الله ويفترقون ..... ١٩٢
اضطهاداتٌ وشهداء ..... ١٩٣
الفهرس ..... ٢٠٣

# صدر للمؤلّف

## أ – منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

### مؤلّفات متفرّقة

١ – قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – **١٩٩٠**

٢ – يسوع في إنجيله – **٢٠٠٦**

٣ – يسوع في حياته – الجزء الأوّل – **٢٠٠٦**

٤ – يسوع في حياته – الجزء الثاني – **٢٠٠٦**

٥ – أمّ الله أمّنا – **٢٠٠٩**

٦ – مختارات مريميّة – **٢٠٠٩**

٧ – أمّ الرحمة – **٢٠١١**

٨ – باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – **٢٠١٦**

### سلسلة النوابغ

١ – السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – **١٩٩٢**

٢ – فرنسيس... أصلح كنيستي – **١٩٩٢** و **٢٠٠٨**

٣ – صوتُ من لا صوتَ لهم: الأب بيير – **١٩٩٧**

٤ – حتّى يوجعَ العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – **١٩٩٨** و **٢٠٠٣**

٥ – أنا الأخت إيمّانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦ – سيرة المسيح ( مترجم عن جيوڤانّي بايپيني ) – ٢٠٠٣

٧ – بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٨ – جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٩ – البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

**سلسلة الظهورات**

١ – ظهورات لورد – ٢٠١١

٢ – ظهورات فاطمة – ٢٠١١

٣ – ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١

٤ – ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١

٥ – ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢

٦ – ظهورات كيبـيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢

٧ – ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الإيقونة العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢

٨ – ظهورات لوس وغيتـشڤاود – ٢٠١٢

٩ – لمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢

١١ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣

١٢ – ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣

١٣ – ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

## سلسلة صفحات روحيّة

١ – أبانا – ٢٠٠٥

٢ – كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧

٣ – العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧

٤ – المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥

٥ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل، الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

## كتب مترجمة

١ – يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)

٢ – ثلاث عشرة قصّة – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)

٣ – أيدٍ ملطّخة بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)

٤ – اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥

٥ – حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

## ب – دور نشر أخرى

١ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤ و ٢٠٠٠

٢ – حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) – ١٩٩٨ و ٢٠٠٠

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان